سلسلة الاستشراق الألماني

12

هانز ألكسندر فينكلر

الملبوس

دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر

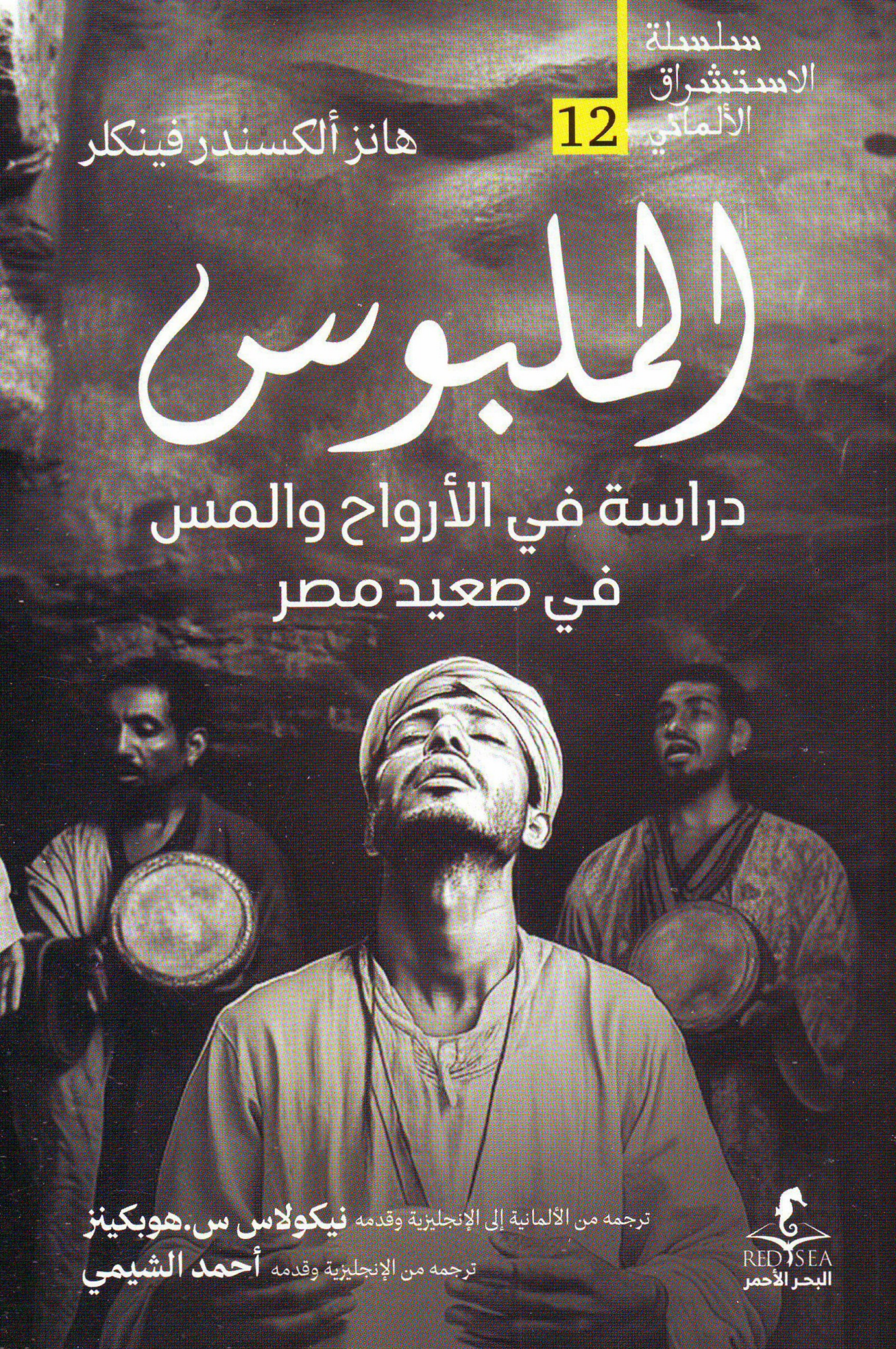

ترجمه من الألمانية إلى الإنجليزية وقدمه **نيكولاس س. هوبكينز**

ترجمه من الإنجليزية وقدمه **أحمد الشيمي**

RED SEA
البحر الأحمر

بناءً على اتفاق ملزِم مع الناشر الأجنبي ترجمة قانونية كاملة من الأصل الصادر باللغة الإنجليزية:

Ghost Riders of Upper Egypt
A Study of Spirit Position
First published in German in 1936 as Die reitenden Gesiter der Toten
Copyright © 2009 by The American University in Cairo Press
Translated into English and introduced by Nicholas S. Hopkins
113 Sharia Kasr el Aini, Cairo Egypt
420 Fifth Avenue New York, NY 10018
www.aucpress.com
Copyright © 1936 by Hans Alexander Winkler

الملبوس

دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر

هانز ألكسندر فينكلر

ترجمه من الألمانية إلى الإنجليزية وقدمه

نيكولاس س. هوبكنز

ترجمه من الإنجليزية وقدمه

أحمد الشيمي

RED SEA
البحر الأحمر

الملبوس

دراسة في الأزواج والمس في صعيد مصر

هانز ألكسندر فينكلر

ترجمة: أحمد الشيمي

الطبعة الأولى

القاهرة 2025

رقم الإيداع: 34177/ 2024

الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 8836 - 47 - 9

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر مكتبة البحر الأحمر».

مكتبة البحر الأحمر

42 ش ماري جرجس- مجمع الأديان - المنطقة السياحية - مصر القديمة - القاهرة.

هاتف: 002027412286

محمول: 00201144418191

www.redseabookstores.com

E-mail:info@redseabookstores.com

السلسلة:

تقوم مكتبة البحر الأحمر بنشرها تباعًا، وهي سلسلة مهتمة بالاستشراق الألماني على وجه الخصوص، وقد تتناول موضوعات أكثر عمومية في بعض الأحيان، إلا أنها متماسة بشكل أو بآخر مع تاريخنا وتراثنا الشرقي إسلاميًا كان أو مسيحيًا.

تنهض هذه السلسلة بترجمة أمهات الكتب أو رسائل الدكتوراه المعتبرة، والتي تمثل نقاطًا بحثية مهمة، يقف القارئ العربي والباحث على وجه الخصوص بعيدًا عنها بسبب حاجز اللغة، فهو غالبًا ما يستطيع القراءة والبحث في الأكاديميا الإنجليزية والفرنسية، بينما يبقى الحاجز اللغوي حائلًا دون الاحتكاك بمثيلتها الألمانية؛ ولذا رأت المكتبة أن تنهض بهذه المسؤولية في إيصال جهدِ مدرسةٍ أكاديميةٍ واستشراقيةٍ رصينةٍ مثل المدرسة الألمانية وإظهار جهد علمائها المتميزين باللغة العربية.

جميع الترجمات في هذه السلسلة هي عن الأصل الألماني مباشرة.

المشرف العام على السلسلة مازن عكاشة.

المشاركون في الكتاب:

المؤلف: هانز ألكسندر فينكلر

هانز ألكساندر فينكلر مستشكف ألماني وُلد في فبراير عام ١٨٩٠ وحصل على شهادة الدكتوراه من جامعة «طوبنجن» (١٩٢٥)، وفي عام ١٩٢٨ أصبح أستاذًا مساعدًا في نفس الجامعة واستمر في عمله إلى عام ١٩٣٣، إلى أن اضطر إلى الاستقالة تحت ضغط النازيين، فذهب إلى مصر كرحالة ومستكشف وعمل مع الإنجليزي السير روبرت روبن. واضطر في عام ١٩٣٩ إلى الانضمام إلى الحزب النازي، وعُين في وزارة

الخارجية الألمانية، ثم أرسل إلى القتال في عام ١٩٤٤ في الجبهة الشرقية، وفُقِد في العشرين من يناير عام ١٩٤٥ ولم يُعرف عنه شيئًا حتى الآن. ومن أهم كتبه هذا الكتاب وكتاب الفولكلور المصري، وكتاب حركة ناس ووطن في صعيد مصر، وكتاب الرموز والطلاسم السحرية عند المسلمين.

المترجم من الألمانية إلى الإنجليزية: نيكولاس هوبكنز

حصل نيكولاس هوبكنز على درجة الدكتوراه من جامعة شيكاغو. وأجرى بحوثه الميدانية في مالي (غرب أفريقيا)، حيث درس السياسة المحلية والتنمية في بلدة كيتا الصغيرة، وشكل هذا الأساس لكتابه «الحكومة الشعبية في بلدة أفريقية: كيتا، مالي» (١٩٧٢) فضلاً عن العديد من المقالات، بما في ذلك «ذكريات الجريوت» في مجلة ألف ١٩٩٧ التي تصدر عن الجامعة الأمريكية بالقاهرة.

في السنوات (١٩٦٧-١٩٧٥) قام هوبكنز بالتدريس في جامعة نيويورك هي الفترة التي طور فيها اهتمامًا بحثيًا جديدًا في تونس، حيث أمضى عامين بحثيين في الفترة ١٩٦٩-١٩٧٠ و١٩٧٢-١٩٧٣، أسفرت عن سلسلة من المقالات وكتاب صدر في عام ١٩٨٣ عن التغيير الزراعي والاجتماعي في «تستور»، وهي بلدة صغيرة في شمال تونس. صدر كتاب «تستور أو تحول الشمبانيا المغربية» في تونس باللغة الفرنسية وكان هوبكنز يُكلف لسنوات عديدة بتدريسه لطلاب علم الاجتماع في جامعة تونس.

في عام ١٩٧٥، ترك هوبكنز جامعة نيويورك وانتقل إلى الجامعة الأمريكية بالقاهرة، توجهت اهتماماته في هذه الفترة إلى قضايا التنمية والتغيير الاجتماعي في مصر. وفي عامي ١٩٨٠ و١٩٨١، أجرى بحثًا في قرية كبيرة خارج أسيوط في صعيد مصر؛ ونُشر هذا البحث تحت عنوان «التحول الزراعي في مصر» (١٩٨٧). وبعد ذلك، شارك في سلسلة من المشاريع البحثية الأخرى، معظمها بالاشتراك مع مركز البحوث الاجتماعية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة، وتناولت هذه المشاريع الميكنة الزراعية، والري، والتسويق الزراعي، والاستجابة الاجتماعية للتغير البيئي والتلوث. وبالإضافة إلى كتابة أو تأليف العديد من المقالات والكتب والتقارير المستندة إلى هذا البحث، فهو محرر مشارك، بالاشتراك مع سعد الدين إبراهيم وزملائه الآخرين، لكتاب «المجتمع العربي»، وهو النص المطلوب

لمقرر الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع: (المجتمع العربي ٢١٠). وقد نُشرت ثلاث نسخ من هذا الكتاب، أحدثها في عام ١٩٩٧.

في الفترة ١٩٩٠-١٩٩١، أمضى هوبكنز نصف عام في الهند في دراسة التجربة الهندية في مجال التنمية الريفية، وقراءة تحليلات العلماء الهنود وغيرهم، وزيارة مشاريع التنمية الريفية في مختلف أنحاء الهند.

وفي الجامعة الأمريكية بالقاهرة شغل هوبكنز مقعد بروفيسور ورئاسة قسم الاجتماع والإنثربولوجي والمصريات، بالإضافة إلى عمادة كلية الآداب ومجلس أعضاء هيئة التدريس بها.

المترجم من الإنجليزية إلى العربية: أحمد الشيمي

أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة بني سويف، عميد كلية الألسن الأسبق، رئيس قسمي اللغة الإنجليزية في كلية الآداب والألسن، وأستاذ مشارك في جامعة الملك خالد في أبها المملكة العربية السعودية (١٩٩٩ - ٢٠٠٩)، مترجم لأكثر من عشرين كتابًا في مجالات مختلفة، وله بحوث محكمة في مجلات مرموقة، وترجمات كثيرة لمجلات مرموقة أيضًا مثل فصول وإبداع والعربي وغيرها..

من أهم الكتب المترجمة:

- حكمة الشرق وعلومه، في جزئين عن عالم المعرفة الكويتية ٢٠١٧

- الأدب العباسي، المركز القومي للترجمة

- هل يوجد نص في هذا الفصل؟ سلطة الجماعات المفسرة ... المركز القومي للترجمة.

- الطاعون من العصور الوسطى إلى العصر الحاضر، دار البحر الأحمر للنشر ٢٠٢٣.

الملبوس - دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر

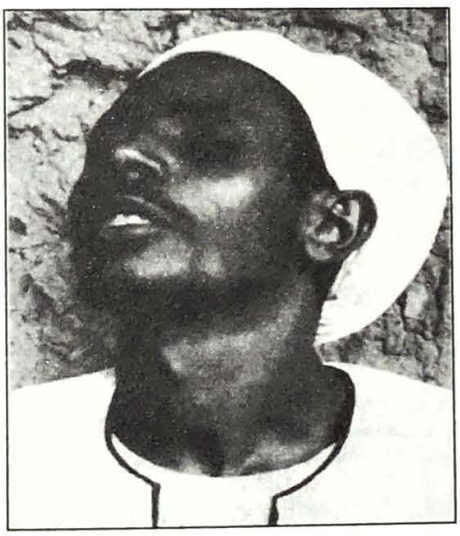

فهرس المحتويات

مقدمة المترجم ١١
مقدمة بقلم نِكولاس س. هويكنز ١٩
تصدير بقلم المؤلف ٣٥
الباب الأول: بيئة عبد الراضي ٣٩
الفصل الأول: المنظر الطبيعي والناس حول عبد الراضي ٤٠
الفصل الثاني: بيئة عبد الراضي الدينية ٤٧
الدين الشعبي والإسلام ٤٧
الجسد البشري ٤٨
الأرواح والجن ٥٣
السحر والمحن ٦٥
الطب الشعبي ٦٧
المشايخ: الشيخ المقدس والشيخ المتوفى ٧٢
صورة العالم والإسلام ٩٤
الباب الثاني: عبد الراضي ١٠٧
الفصل الثالث: أصول عبد الراضي ١٠٨
الفصل الرابع: حياة عبد الراضي قبل المرض الكبير ١١٦
الفصل الخامس: من المرض الكبير إلى النداء ١١٨
الفصل السادس: النداء ونوبات المس غير المنتظمة في الفترة الأولى ١٢٧
الفصل السابع: أحاديث المس المطردة ١٣٧
الزمان والمكان ١٣٧
بداية تثاؤب المس ونهايته ١٣٨
حرق البخور واستهلال المس ١٣٨
قصر النفس ١٤٠
النهاية ١٤١
أرواح المس وبخيت ١٤٣
أرواح أخرى ١٥٢

الشيخ علي ١٥٣
محمد أحمد يوسف الأسيوطي ١٥٤
محمد عبد القادر البراهمي ١٥٤
محمد أحمد القلعاوي ١٥٩
على البراهمي ١٦١
نور الدين العقولي ١٦٢
خليفة مصطفى الشيخي (من الشيخية) ١٦٢
عبادي محمد البيرودي ١٦٣
ورداني ابن الحاج الصغير الكيماني (من «كيمان»). ١٦٣
عبد القادر الجيلاني ١٦٣
عبد الله، عم عبد الراضي ١٦٣
سليم الهُوّي (من قرية الهُو) ١٦٣
مس مزدوج ١٦٥
رسائل استقبلتها شخصيًا، براهين على قدرة الممسوس على قراءة الغيب ١٦٩
الفصل الثامن: تأثير الممسوس على حياة الفلاحين الدينية والاجتماعية ١٨٢
مكانة عبد الراضي عند الفلاحين ١٨٢
الممسوس بوصفه ناطقًا باسم المتوفى ١٨٥
الممسوس بوصفه ناصحًا للمرضى ١٨٦
حالة عباس ١٩٠
الممسوس ناصحًا وحكمًا في الأمور القانونية وأمور أخرى اجتماعية ٢٠٠
عبد الراضي بوصفه النقطة المركزية في مجتمع الفلاحين ٢٠٦
الدرويش ٢٠٨
الضريح أو المقام ٢١٢
أولياء الله ٢١٩
الفصل التاسع: شخصية عبد الراضي ٢٢٢
الفصل العاشر: علاقة عبد الراضي الشخصية بأرواحه التي تسكنه ٢٢٩
الفصل الحادي عشر: العلاقة بين وعي عبد الراضي في حالة اليقظة وحاله في المس ٢٣٣
خاتمة ٢٤٥

مقدمة المترجم

صدر هذا الكتاب في ألمانيا في عام ١٩٣٤، وقد ألّفه صاحبه، وهو مستشرق ألماني، في عام ١٩٣٣ كما يقول في المقدمة، أي أنه كان في «قفط» و«والظافرية» و«نجع الحجيري» منذ أكثر من تسعين عامًا خلت. هل ما زالت «قفط» و«الظافرية» و«نجع الحجيري» الآن كما هي كما وصفها هذا الباحث الألماني من أكثر من تسعين سنة؟ أم أن تغييرًا طرأ أو تطورًا حدث؟ إن علماء الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا والاجتماع والدراسات الثقافية هم الذين يجيبون على مثل تلك الأسئلة. ومعروف أننا في مصر لا نهمل شيئًا كما نهمل علومًا مهمة مثل الأنثروبولوجيا والإثنوجرافيا والجغرافيا والتاريخ وعلوم اللغات والدراسات الثقافية، مع أن هذه العلوم هي مفتاح التقدم، والبداية الحقيقية التي ينطلق منها الفهم إلى آفاق رحيبة نحو التطوير. فقد سافر هذا الشاب إلى أقصى الصعيد في ثلاثينيات القرن العشرين، ليدرس ظاهرة لم يكن العالم في ذلك الوقت مشغولاً بها مقدار انشغاله بصعود الحزب النازي إلى السلطة، وسعي هتلر إلى الانتقام لهزيمة ألمانيا في الحرب الكبرى الأولى، وبمقدار التغييرات الكبرى التي كان العالم كله يستعد لاستقبالها بعد أفول الخلافة العثمانية، وصعود ألمانيا النازية، واستقرار أمريكا بوصفها أعظم قوة لم يظهر مثلها في التاريخ الحديث والقديم أيضًا، وأفول الإمبراطورية البريطانية بعد أن مارست الاستعمار والتكبر وازدراء العالم لقرن من الزمان أو يزيد.

وكاتب هذا الكتاب كان شابًا حسن المظهر في الثلاثينيات من عمره عندما ذهب إلى الصعيد وأقام وسط أهلها عند شخص يُدعى «سنوسي» في

البداية، ثم عند «عبد الراضي» في نجع الحجيري بعد ذلك. يريد أن يدرس ظاهرة المس والأرواح واتصالها بالبشر عن كثب في قرية من القرى النائية في الصعيد، ويقدم ما توصل إليه إلى بني قومه في ألمانيا. وهذا النوع من الباحثين كثير العدد في الحضارة الغربية، وهو سر قوة هذه الحضارة التي قامت على فهم الآخر توطئة للاستيلاء عليه أدبيًا وماديًا. ونحن ربما نعرف شيئًا عن جيوش الاستعمار العسكرية التي زحفت إلى بلادنا وهيمنت عليها، ونهبت أفضل ما فيها من موارد ومقدرات، ومنعتها عن التقدم. ولكنا لا نكاد نعرف شيئًا عن كمية المعارف الحقيقية والزائفة التي تسلحت بها تلك الجيوش قبل أن تتسلح بالمدافع. وما بذله باحثوها وعلماؤها وأساتذتها في فهم الشعوب التي زحفوا إليها كي يسهل عليهم الاستيلاء على مقدراتها.

فالأرواح والمس والخوارق ظواهر موجودة في مصر وفي غير مصر، وهي جزء لا يتجزأ من خصائص الأمم القديمة الموجودة على أرضها منذ آلاف السنين. وظاهرة التواصل مع الأرواح معروفة، هناك من ينكرها ويحتكم إلى المنطق في إنكارها، ولكن هل يستطيع العقل والمنطق الحكم على كل شيء في هذا الكون الفسيح؟ غاية ما توصل إليه العقل البشري في أواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين أن العقل لا يستطيع استيعاب كل شيء، ولا يستطيع الجزم بشيء، وأن الرأي المطلق لا يمكن التعويل عليه.

هانز الكسندر فينكلر (١٨٩٠ - فُقِد في عام ١٩٤٠م)

ورغم الحقيقة التي تقول إن الشرق هو الساحة الروحية التي تشع على العالم كله، وأنه موطن الأديان والصلات مع العالم الآخر، فإن الدراسات الكثيرة حول الروح والحياة البرزخية إنما أُنجزت في الغرب، وبأقلام باحثين من البلاد الأوروبية والأمريكية، وقد ألمح إلى ذلك الشيخ الجليل طنطاوي جوهري في كتابه القيم بعنوان: «كتاب الأرواح» (١٩٢٠)، ويدور كله حول صحة العلم الروحي الحديث والدفاع عنه ونفي شبهة التعارض بينه وبين العقيدة عندما قال (٥ - ٧): «فهل نقف أمام هذا الحادث صامتين، إنه لعيب

فاضح، وخطأ واضح وشين مبين، نحن أحق بهذا العلم من الغربيين، وإن الأمر لجلل يعوزه كتب تؤلف ومجامع تُحشد، وعلماء تُنتقد. أنا لست في كتابي هذا أثبت العلم الروحي فحسب، فلقد سبقني إليه من نشروا الفكرة وأذاعوا أمره بين إخواني المصريين»[1].

والمصريون القدماء أول من فطنوا إلى فكرة خلود الروح، وبعدهم البابليون ثم الفرس واليونانيون والهنود والأمريكيتين. والاعتقاد بإمكان الاتصال بين الأحياء والأموات ليس أمرًا جديدًا على الفكر الإنساني، بل إنه يمثل عقيدة كانت معروفة وشائعة في مجتمعات كثيرة، ثم اندثرت في أمريكا وأروبا تحت تأثير ذيوع الآراء المادية، إلى أن بعثت من جديد في منتصف القرن الماضي تحت تأثير طرقات منزل «ويكمان» في قرية هدسفيل بالولايات المتحدة الأمريكية، فيروي المؤرخ «فسك» مثلاً أن الاتصال بأرواح الموتى كان من أول العبادات التي عرفها أجدادنا على اختلاف أجناسهم التي عاشت في إفريقيا وآسيا والصين واليابان في الشعوب الآرية والهندية والأوروبية وقبائل الهنود الأمريكيين (٤٩).

ومن يرجع إلى كتاب «الروح» لابن القيم الجوزية يجد الكثير من البيانات عن أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة والآثار وأقوال العلماء، وفيه يبين كيف أن الأرواح قسمان: أرواح معذبة وأرواح منعمة، فالمعذبة في شغل بما هي فيه من العذاب عن التذاور والتلاقي، والأرواح المنعمة المرسلة غير المحبوسة تتلاقى وتتزاور وتتذاكر ما كان منها في الدنيا وما يكون من أهل الدنيا فتكون كل روح مع رفيقها الذي هو

(١) د. رؤوف عبيد، الإنسان روح لا جسد: بحث في العلم الروحي الحديث، دار الفكر العربي، طبعة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٦٦، ص ٤٢.

على مثل عملها. والشواهد كثيرة على تلاقي أرواح الأموات، والأدلة أكثر من أن نحصيها» (٨٥).

وهكذا اتفق كثيرٌ من الدارسين والباحثين على أن أرواح المتوفين يمكن أن تسكن في جسد البشر، وتسبب لهم الأمراض النفسية والجسدية، وقد تكون هذه الأرواح من الأنواع الحميدة التي لا تدخل إلا للخير، فتساعد المضيف ولا تحبطه، وقد تساعد في حل المشكلات المالية، وتصلح بين المتخاصمين من الأزواج وغير الأزواج. وقد يكون المس كليًا وقد يكون جزئيًا، وفي المس الكلي تختفي شخصية الممسوس تمامًا، ويحل محلها الروح الذي يتخذ من الجسد مأواه وملاذه، فتسمع منه أصواتًا مختلفة، ويكون الممسوس بعيدًا عن وعيه تمامًا، ويصبح في حالة النشوة التامة التي ليس بعدها نشوة، وقد يكون المس جزئيًا، حين نجد الممسوس ينوب عن الجان في قضاء بعض الحاجات التي يريدها من البشر. وبعض الباحثين يرون أن العفاريت ما هي إلا أمراضًا نفسية يعزوها المرضى إلى الأرواح والمس بدلاً من عزوها إلى الفيروسات واضطرابات السوائل داخل الجسم البشري. ولا توجد ظاهرة مألوفة عبر التاريخ والجغرافيا وغير مفهومة في نفس الوقت إلا هذه الظاهرة. وهناك من العلماء من يحصرها في التجارب البشرية المسرفة في الكم والكيف، مثل الحب المبالغ فيه، والكره المبالغ فيه أيضًا، وكذلك في الشجاعة التي تفوق الحد المعقول، وكذلك في الموقف من الذات !!

ومنهم من يرى أن مس الأرواح ما هو إلا طريقة يبتدعها الممسوس الهدف منها التغطية على سلوك مريض بعزوه إلى عامل خارجي وهو الروح، ولذلك نجد أن علماء النفس يدرسون هذه الظاهرة، كما يدرسها علماء الاجتماع والسياسة والجمال. ولكن يبقى الإثنوجرافيون والأنثروبولوجيون

هم أهم من درس ظاهرة المس بالارواح في مصر وفي غير مصر، وأهم من خرجوا علينا بمعرفة متعمقة عنها، ووقفوا على وجوهها المختلفة. والواقع أنها في حاجة إلى تعاون الكثير من أصحاب المناهج والمقاربات والأدوات البحثية، مزيج متعاون من الإثنوجرافيين وأضحاب المذهب الكمي والمعرفي، وكذلك الدراسات الثقافية، فما تزال الظاهرة بكرًا، وما تزال أعماقها مظلمة ظلمة تتراوح بين الظلمة الحالكة والخفيفة. وما تزال مقاربتها من ناحية اللغة نادرة، وفي حاجة إلى علماء اللغة ليدلوا بدلوهم. وكثيرًا ما يتحدث الممسوس بلغة غريبة لا يفهمها السامعون، ولا يألفها الحاضرون من أهل المريض الذي يطلبون له المشورة عند الشيخ.

ومن المفارقات أن أهم من درس هذه الظاهرة في مصر وخصص لها كتابًا مرجعيًا مهمًا في ستينيات القرن العشرين أستاذًا في القانون الجنائي كلية الحقوق جامعة عين شمس، وهو الأستاذ الدكتور رؤوف عبيد، صاحب كتاب «الإنسان رُوح وجسد: بحث في العِلم الرُوحي الحديث»، الذي زادت طبعته الثالثة على ثلاثة آلاف صفحة. غير كتب أخرى ودراسات ترجمها في الموضوع عن الألمانية والإنجليزية وغيرها، ولـه كتاب آخر بعنوان: «في الرجوع للتجسد بين الاعتقاد والفلسفة والعلم»، الذي يقول فيه بالحرف: «إن الحياة الأرضية هي المغامرة، وهي الشيء المحير والاستثنائي، فنحن تجسدات، ودخلنا إلى عالم المادة، ونحتفظ مع ذلك ببعض الصلة بعالم الروح، وهو العالم الحقيقي الذي هو موطننا أكثر مما نحن هنا. ولذا تحدث الرؤى، والإلهامات، وحتى «الصوت المباشر»، وكل صور الظواهر التي أضحت مألوفة لدينا تدريجيًا، كما كانت لدى الأقدمين أيضًا» (ص ٤) [1].

(١) د. رؤوف عبيد، "في العودة للتجسد: بين الاعتقاد والفلسفة والعلم"، دار الفكر العربي ١٩٧٦.

وهو يذكر في كتاب «الإنسان روح بلا جسد» أن في الغرب علماء أجلاء تصدوا لدراسة الروح منهم الفيلسوف وعالم السيكولوجيا وليام جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠) وقد سلم بوجود الظاهرة. ومنهم الفيلسوف هنري برجسون (١٨٥٩ - ١٩٤١) وكان رئيسًا للجمعية البريطانية للبحث الروحي وكان من الموافقين على صحة تجاربها، وكذلك ذكر عالم الفسيولوجيا الشهير شارل ريشيه (١٨٥٠ - ١٩٣٠) الحائز على جائزة نوبل في الفيسيولوجيا. ومن الأدباء الذين كرسوا وقتًا كبيرًا من حياتهم في دراسة الأرواح والمس السير وليام ت. ستيد (١٨٤٩ - ١٩١٢) الذي كان نقيبًا للصحفيين في إنجلترا، والروائي الكبير الشهير السير آرثر كونان دويل (١٨٥٩ - ١٩٣٠) الذي أمضى حياته باحثًا وكاتبًا وخطيبًا في موضوع الأرواح. ومن أجمل ما كتب الدكتور رؤوف عبيد، هذا الأستاذ الفذ، ما نقتبسه هنا من كتابه:

نعم إن السماء تتلألأ بقدرة الله الناطقة في الكواكب المضيئة، والتي تنطق بها أرواح «الموتى» الذين فقدناهم فخيل إلى حواسنا القاصرة أن الموت نهايتهم، فإذا هو بداية الحياة الحقيقية لهم، التي يغذها النشاط المتدفق بحب المعرفة، كما يغذيها الأمل والعاطفة بمشاعر حية وقوية لا نعرف منها هنا إلا فعالاً باهتة وبصيصًا ضئيلاً ستطفئه إن عاجلاً أو آجلاً ريح الموت التي تبدو الآن عاتية رهيبة. فهذه المعرفة الجديدة تخفف الكثير من رهبة انتظار الموت عند الإنسان - وهو أبدًا يخشى المجهول - إذا ما تحقق بنفسه أن ريح الموت هذه لا تُطفئ شيئًا، بل تزيد شعلة النفس قوة وضياءً، وتختطف الزهرة الذابلة من هنا كيما تضعها في جنة للخلد أكثر رونقًا وبهاءً (ص ٣٠). وهو يورد ما قاله العالم الروحي جيمس آرثر فندلي: «إن الموت - كما أُنبئت - سهل وبسيط كالذهاب إلى النوم والتيقظ. فجسمنا الأثيري ينسل من جسمنا

الفيزيقي حاملاً العقل. ثم نصحو في هذا الوسط الجديد فنجد أن أصدقاءنا وذوي قربانا على استعداد لمساعدتنا وإرشادنا في حياتنا الجديدة .. ويعود الجسم الفيزيقي إلى الأرض، أما الجسم الأثيري وهو الذي يهيمن عليه العقل فيستمر في تأدية وظائفه في هذا العالم الأثيري ... وتبقى الشخصية وهي بمعزل عن المادة الفيزيقية، وسنظل نفكر كما نفكر الآن، لأن كمية العقل الصغيرة التي لدى كل منا هي نفسها التي تؤثر في الجسم الأثيري وحده» (٣١). وهو يمضي في القول: «وجوهر علم الإنسان الآن هو علم الروح بعد إذ تبين أن الإنسان روح لا جسد، وأنه أعظم بكثير مما كانت تصوره مدارس المادة بوصفه قطعة من جماد لا يتختلف عن غيرها إلا بوظائفها العضوية، أو كائنًا يحبو على قدمين لا يختلف كثيرًا عن تلك التي تحبو على أربع». (٤٠)

وأما الترجمة فلم نجد عنتًا كثيرًا في ترجمة المصطلحات والأسماء والتعبيرات التي استخدمها المؤلف، وقد استطعت تحقيق مبدأ التقريب بشيء كثير من اليسر، وهذا لسبب بسيط وهو أني ممن عاشوا في القرية الصعيدية، ويعرفون موضوعات هذا الكتاب عن قرب. ولا أظن إلا أنه كتابٌ مهم، ومفيد في مجال الأنثروبولجيا، والدراسات الثقافية، ومهم أيضًا لعلماء الاجتماع والنفس وخاصة علم النفس الإكلينيكي.

أرجو أن يوفق الله جميع القراء لما يحب ويرضى.

د. أحمد الشيمي

باجا

٣١ يوليو ٢٠٢٤

مقدمة بقلم نِكولاس س. هوبكنز

مترجم الكتاب من الألمانية إلى الإنجليزية

«الملبوس - دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر» ترجمة لكتاب منشور منذ عام ١٩٣٦، قام بتأليفه عالم الأنثروبولوجيا الألماني والمتخصص لعلم الأديان المقارن «هانز الكسندر فينكلر». والحقيقة أن العنوان الذي ترونه مختصر جدًا، فالعنوان باللغة الألمانية طويل جدًا، ولا داعي لأن نورده بالألمانية هنا ولكن ترجمته تصبح: «عفاريت المتوفين التي تسكن الأحياء: دراسة في حالة عبد الراضي الممسوس، وكذلك في الأشباح والعفاريت والأولياء وحالات الانجذاب، وتقديس الأموات والأولياء في قرية في صعيد مصر». وأما صورة العنوان فتشير إلى فكرة مفادها أنه عند المس يكون الممسوس قد سكنه الجن أو الروح أو العفريت، كأن رجلاً يركب مطيته. في هذه الحالة الراكب هو العفريت أو الشبح، عفريت المرحوم أو روحه، والمرحوم عضو في المجتمع، والمطية هي الشخص الحي، مثل الجمل المركوب إن شئنا التعبير عنه بالاستعارة. والشخصية المركزية في هذه الدراسة هي «عبد الراضي»، يقوم بدور «الجمل» مع «روح» عمه المرحوم «بخيت» الذي يتولى نقل رسائل عبارة عن نبوءات وتشخصيات لأمراض وعلاجات وتفسير لأحداث مضت وهلم على هذا الجر - إلى أولئك الذين كانوا يأتون إلى عبد الراضي. ويمكننا الآن أن نقول إنه يقوم بدور الوسيط بين المرحوم عمه «بخيت» والناس. أو، بالمصطلحات الأنثروبولوجية، هو «الروح الوسيط».

وقد حدد العلماء والدارسون الكثير من الوسائل التي تستعين بها الأرواح لتلعب دورًا في حياة المجتمع البشري. فالروح تلعب دور الوساطة بطريقة

أو بأخرى، ولكنها تلعب أيضًا أدوارًا أخرى وليس فقط دور الوساطة. ودور الوساطة معناه أن الشخص الممسوس يُعتبر وسيطًا بين هذا العالم والعالم الآخر، فالمس بالأرواح معناه أن روحًا خارجية قد ركبت جسد الشخص وتحكمت فيه، وربما دفعته إلى أن يسلك سلوكًا غير عادي، ويسير في طرق لم يألفها الناس من حوله (Firth 1964: 247). والحق أن الاثنين يمكن أن يندمجا، أي يتماهى الروح في الممسوس. وهذا ما يحدث في حلقات الزار في مصر التي وصفناها في هذا الكتاب، ووصفها آخرون في مواضع أخرى، فقد تسكن الأرواح شخصًا، ما يتطلب ضربًا من العلاج لا ينفع فيه إلا التماهي بين الروح والجسد البشري، بحيث تسمح الروح للرجل أن يعيش حياته العادية بعيدًا عن الطقوس والمراسم. وعادة ما تُدعى الروح إلى الجسد بين الحين والآخر ليقوم الجسد بترضية الروح وتهدئتها وتجديد العلاقة معها. فالمس بالروح والوساطة بالروح كثيرًا ما ينطوي على شكل من النشوة تنزاح فيها شخصية الشخص العادية لتحل محلها أخرى. وهذه النشوة بدورها يمكن تمييزها عن نشوة أخرى تغيب فيها شخصية الشخص، وهنا يطغى عليه شعورٌ بالعدمية، أو التماهي مع خالقه. والحق أن الكتابات الأنثروبولوجية والسيكولوجية حول وساطة الروح والمس بالروح أكثر كثيرًا من الظاهر، وأكثر ثراءً، وربما أكثر قابلية للتحليل، أكثر بكثير الآن من الكتابات التي كانت موجودة أيام كتب «فينكلر» كتابه هذا، ولكن المادة التي بنى عليها «فينكلر» كتابه ما تزال تتسق مع أكثر التفسيرات حداثة.

كان عبد الراضي يعيش في قرية تُسمى «نجع الحجيري» قريبًا من مركز «قفط» بين الأقصر وقنا في محافظة قنا. و«قفط» هذه تعود إلى أيام الفراعنة كما تشهد بذلك الأطلال الباقية. فقد كانت من المحطات الرئيسية على وادي

النيل، ونقطة مهمة لالتقاء طرق التجارة عبر الصحراء الممتدة إلى البحر الأحمر. وكانت نجع الحجيري قرية حديثة نسبيًا قريبة من تخوم الصحراء إلى الشرق من «قفط» نفسها، وكان سكانها يتميزون عن غيرهم من سكان القرى الأخرى القريبة بأنهم من البدو المستقرين على أرضهم لاشتغالهم بالزراعة منذ زمن بعيد. والحق أن الفرق بين قرية وقرية في صعيد مصر ليس بكبير إلا إذا كان ذلك الفرق إحساسًا بالذات وبالتميز بين قبيلة وأخرى. وفي ضمن الجماعات الأخرى في المنطقة جماعة من البدو أحدث منهم قليلاً يُسمون«العزايزة»، وقبيلة أخرى تسمي «العبابدة». والحديث كثير عن أصول «العبابدة» وجذورها، ولكنها تحتفظ لنفسها بالتميز من حيث أنها تتألف من جماعات تتحدث العربية؛ وهم يعيشون في جماعات صغيرة عبر صعيد مصر كله. وأغلب الظن أن هذه جماعات من البدو التي استقرت على مر الزمن واشتغلوا بالزراعة وأصبحوا فلاحين في مجتمع أصبح زراعيًا مع كر الأيام ومر السنين. كما جمعت بينهم ممارسات اجتماعية معينة وثقافات مشتركة.

والحق أن هذه الدراسة متعددة المستويات أُجريت في ثلاثينيات القرن العشرين وكانت سابقة لعصرها في منهجها ونتائجها، ومن هنا تحتفظ بعلاقة طيبة مع زماننا ويومنا لا بالنسبة للتراث الشعبي المصري فقط، وإنما أيضًا لتاريخ الأنثروبولوجيا في مصر. وإذا قارنا بينها وبين دراسات أنثروبولوجية أخرى كثيرة في تلك الفترة، فإنها ليست مجرد قائمة من التفاصيل والأوصاف، وإنما تنطوي على جهد كبير كان يقصد إلى وضع الحركة الاجتماعية في السياق الثقافي - إنها دراسة حالة توسع فيها الباحث توسعًا مفيدًا. إن دراسة «وينكلر» الإثنوجرافية هذه تسلط الضوء على الزمان والمكان اللذين أُجريت فيهما المقابلات وحكايات المس بالأرواح. فهو لم يكتفِ بأن يروي لنا

تاريخ عبد الراضي، وإنما روى لنا قصصًا شخصيات أخرى كانت تعيش في البيئة التي كان يعيش فيها، ربما كان بعضهم منافسين على الاهتمام الشعبي. يركز «وينكلر» على العملية الاجتماعية التي تجري حين تتطور تجربة المس بالعفاريت في البداية إلى حادثة اجتماعية أصبح الناس يألفونها، ويتعاملون معها بوصفها حقيقة من حقائق الحياة، وشكلاً جديدًا من أشكال الظواهر الاجتماعية - حيث تصبح الروح واسطة بين هذا العالم الذي فيه نعيش والعالم الآخر المجهول، وتلك البنية الاجتماعية التي أفسحت المجال أمام هذه الأحداث وتلك الممارسات، وهذه الممارسات التي تحدث هنا تعطينا فكرة عن شكل القرية التي تجري فيها هذه الممارسات، والنظام الاجتماعي، وربما يفضي ذلك كله إلى تغيير ما يحدث في هذه القرية.

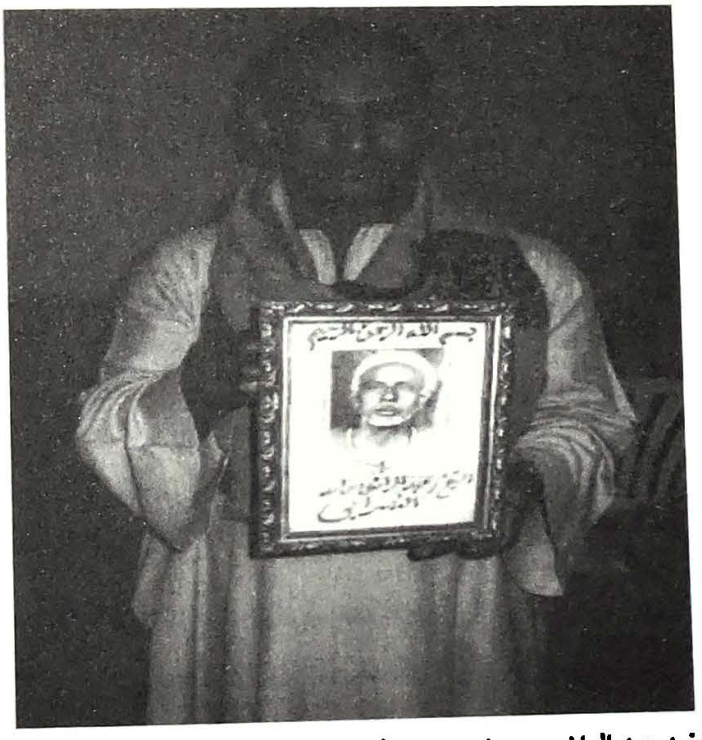

حفيد عبد الراضي يعرض صورة لجده - نجع الحجيرية نوفمبر ٢٠٠٦.

لقد كان «فينكر» يكتب عن نفسه في القصة، ليس فقط عندما كان يروي بضمير المتكلم حكاياته مع عبد الراضي ورهطه، وإنما كان يكتب عن نفسه وهو يطرح الأسئلة المتصلة بأسرته وحياته، يريد أن يعرف مدى دقة الإجابات. إن «فينكلر» يروي تفاصيل العلاقة الشخصية المتزايدة بينه وعبد الراضي. ورغم وجود العديد من الاختلافات بين الباحث الألماني والفلاح المصري، فإن مساحات من التشابه بينهما موجودة، فهما في نفس السن، ولهما ظروف أسرية متشابهة، وسيرة حياة فيها أن الاثنين عملا أجيرين في بداية حياتهما (هوبكنز ٢٠٠٧). إن تصوير العلاقة بين الباحث والفلاح هي أهم موضوع في الكتاب.

وكان «فينكلر» ينادي محاوره بـ«عبد الراضي» أحيانًا، وفي أحيان أخرى كان يناديه «بخيت»، حسب السياق وظروف اللحظة، بوصفهما شخصين مختلفين أشد الاختلاف ولكنهما يسكنان جسدًا واحدًا. والحق أن مس الأرواح أكثر تعقيدًا مما نظن، وعلى عالم الأنثروبولوجيا أن يُظهر لنا كيف كانت شخصيات كثيرة تظهر في عبد الراضي، رغم أن «بخيت» يظل هو الشخصية المهيمنة. ثم إن عالم الأنثروبولوجيا يفسر لنا كيف أن شخصية عبد الراضي شخصية منفصمة، ولكن لا يذهب في هذا التفسير إلى مسافة بعيدة. فتحليل الأزمات النفسية المختلفة التي يعاني منها الناس تطرح بالضرورة أسئلة أمام علم الأنثروبولوجيا النفسية، ولكن «فينكلر» يتعمد النأي بنفسه عن التفسيرات وعلم النفس.

يريد «فينكلر» أن يشرح لنا ظهور هذا الوسيط الروحي، فيبدأ في إعداد السياق الثقافي؛ فيراجع البيئة الثقافية التي ظهر فيها هذا الوسيط الروحي،

ويستكشف المعتقدات والممارسات المختلفة الموجودة عند الفلاحين في أثناء تلك الفترة. ويتأمل كيف يميل الصعايدة إلى إنشاء تصورات مختلفة بأشكال مختلفة عن القوى الخارقة، ومنها دور المجذوبين مثل بخيت وغيره من الممسوسين. فمهما يكن من أمر فإن الأشباح والأرواح وما على شاكلتها ما هي إلا أشياء ثقافية أُوتيت القوة على «الفعل». وهذا التصوير المتأني لهذا التصور الثقافي للعالم غير المرئي هو أساس نقطة انطلاقه نحو تحليل الأفراد والوكالات التي تمارس هذا الفعل. ولذا نجد أن «فينكلر» لا يهتم بتحليل السلوك الشخصي للحاوي أو مدرب الثعابين، ولكنه يهتم أكثر بالسياق الذي خرج منه هذا الحاوي، والهيئة التي علمته ودربته لتخضع له ثعابين الأرض، وما دور أهل الزار في الموضوع، وخاصة مكان الطرق الصوفية ومطارح الذكر التي يرعونها ويحرسونها.

إن «فينكلر» يطلب منا أن نعلق تكذيبنا، وأن نركز بدلاً من ذلك على الجوانب بين/ الشخصية والأدواتية في وساطة الأرواح. وهو يضع الرسائل التي بين «عبد الراضي وبخيت في سياق الديناميات الاجتماعية [1] social dynamics يريد أن يُظهر به المعاني وكيف ينطق بها الوسيط والسائل وآخرون مثل والد عبد الراضي المدعو حامد الذي كان كثيرًا ما كان يساعد في تفسير الغامض من الكلام الذي كان ينطق به «بخيت». كانت الجلسات مع الشبح مناسبات يتألق فيها المعنى ويزداد ثراءً، وفيه يسعى الناس إلى مزيد من التفسيرات والشروح في الإطار المشترك لثقافتهم المشتركة. ويكرس «فينكلر» مساحة أرحب ليجيب على السؤال: «إلى أي مدى ترتبط رسائل

(١) دراسة سلوك الجماعات والأفراد والتفاعلات بين أفرد المجموعات سواء في البشر أو في النبات أو الحيوان [المترجم]

«بخيت» بتجربة عبد الراضي»؟ وهل يمكن أن نطلع منها إلى ضمير عبد الراضي ودرجات وعيه؟ وهنا نلمس بعض القرائن والفجوات، وما لا نصل إلى تفسيره يتولاه المحلل النفسي.

ولا يقدم «فينكلر» البعد الثقافي منبت الصلة عن السياق الاجتماعي، ولا موجودًا في جزيرة منعزلة بعيدًا عن الفهم الإنساني الأرحب، وإنما يطلعنا على مساحات من الخلاف أو حتى الشك بين الناس حول تفسير الأحداث التي هم أنفسهم عليها شهود. وكان المدخل إلى التعامل مع كل شخص مضطرب نفسيًا مدخلاً تجريبيًا، ومعنى ذلك أن الأصدقاء والأقارب والجيران يتجادلون في أي التفسيرات أقرب إلى الحق، ويجربون الحل الأول ثم الذي يليه. فهم يبدأون مثلاً بالسؤال: هل كان «عبد الراضي» فعلاً ممسوسًا بروح أم بعفريت أم بجن؟ وماذا عن «عباس» الذي تختلف تجربته مع المس عن تجربة عبد الراضي؟ وكيف يفسرون ذلك كله تفسيرًا يتفق مع فهمهم المحلي لصحيح الإسلام؟

والناس هناك يتصرفون حسب سياقهم وأحوالهم، ويحددون معاني الأشياء حسب هذا السياق المحدود، رغم أنهم لا يثبتون على حال واحد، ورغم أنهم يتعاملون مع الجوانب المختلفة للمشكلة الواحدة، ويتجادلون أخذًا وردًا فيها من كل اتجاه، ما يعزز معنى الممارسات والأعراف المختلفة عند آخرين. ولا يمل «فينكلر» من تأكيد أن كل أفعال الناس وتفسيراتهم إنما تستند على وجود الخالق وهو الله الذي تتسع قدرته لكل شيء. وهو يقول دائمًا إن أفعال أولئك الناس حتى وإن تناقضت فإنها تدعم جوهر العقيدة الإسلامية.

وأما السياق الاجتماعي/ السياسي فهو غائب عن هذه الدراسة. فنحن لا نسمع إلا بعض الإشارات إلى الزراعة وهجرة العمالة، رغم أنهما عنصران مهمان في حياة القرية، خاصة والكساد كان السائد على الأحوال، وكان الوجود الأوروبي والاستعماري يطل برأسه القبيح على آفاق الحياة، ولا يقر المستعمر بحياة مصرية سياسية خالصة في أثناء الثلاثينيات من القرن العشرين. وعندما كان «فينكلر» يجري بحثه هذا، كانت مصر واقعة تحت الحماية البريطانية، وتتمتع بحكم ذاتي. وربما كانت جنسيته الألمانية وهو يعيش في بلاد يحكمها الإنجليز، وربما كانت طبيعته كواحد من قدامى المحاربين، ما جعله يشير بين الحين والحين إلى بدايات حرب تطل في الأفق ولكن دون كثير من الثرثرة وذكر الأسباب. وفي كتاب آخر لـه أورد حوارًا دار بينه وبين شخص آخر، يقول فيه محاوره إن الألمان والترك يجب أن يتحدا ويجبرا الإنجليز على مغادرة مصر، وذلك لأن الحكم الإنجليزي قد أهان المرأة وحط من قدرها ونال من حريتها (١٩٣٦: ٥٣). ولكنا في الوقت نفسه يمكن أن نلمس بعض مظاهر التوتر في حياة الريف بسبب الفقر، وسوء الأحوال الصحية ومشكلات شخصية كثيرة من شتى الأنواع والأنماط. وهنا يجدر بنا أن نشير إلى أن الدور الاجتماعي للثنائي عبد الراضي / بخيت في الدفاع عن السلم في البلاد، والاهتمام بالمصالحة بين الناس: فقد كان يشجع الناس على نسيان فكرة الثأر، ونبذ العنف، وكان يسعى في الصلح بعد المشاجرات التي تنشأ بسبب السرقات؛ وكانت تسيطر عليه الرغبة في تخفيف الآلام عن الثكالى والمحزونين، من خلال أعمال الخير والبر، وكان أحيانًا يأتي بالعلاج والحلول لمشكلاتهم التي كانوا يعانون منها. إن «فينكلر» يتعمد ألا يضع دراسة الحالة هذه في إطار المقارنة الأرحب، سواء مع علم المصريات أو

علم النفس أو الأديان المقارنة. ونحن هنا نحذو حذوه، ونترك هذه المحاولة لاجتهاد القارئ. كان «فينكلر» مهتمًا بالدراسة المقارنة مع الشامانية[1]، وهي من الديانات التي تؤمن بالروح الوسيط جزءًا من العقيدة. وقد رأيناه يخصص ندوة لهذا الموضوع في آخر فصل دراسي لـه في جامعة «طوبنجن». ولكنه هنا يحتفظ بالتركيز على دراسة حالة واحدة لا غير، في وقت معين حدده ومكان معين حدده أيضًا، ويركز قبل كل شيء على الديناميات الاجتماعية. فإن غياب البيانات حول الجوانب الأخرى من الحياة في «نجع الحجيري»، إلا ما يعن بالمصادفة، يجعلنا في حرج من أن نضم هذه الدراسة إلى طائفة الدراسات الانتفاعية، وإنما هي مجرد خطوة في ذلك الاتجاه.

إن الفكرة التي أنهى بها «فينكلر» كتابه - وهي تبيان التناقض بين عقلانية أوروبية (غربية) وتفكير الآخرين - إنما تعكس أيضًا ما يُعتبر سؤالاً من أسئلته البحثية التي يطرحها: كيف تعمل الوساطة في موضوع الروح؟ هل تعمل بالشعوذة، أم هناك عامل يمكن تفسيره من الناحية العلمية وراء هذه القدرة يعمل عبر الزمان والمكان، أو يخترق عقول الناس اختراقًا يمكن البرهنة عليه؟ وماذا نحن صانعون بالاختلافات العميقة في التجارب الدينية في أجزاء مختلفة من العالم؟ إن «فينكلر» يفضل أن يترك السؤال دون إجابة، مكتفيًا بالقول إن الوساطة الروحية لا يمكن فضحها أو كشفها بشكل لا يقبل اللبس، ولا يمكن البرهنة عليها أيضًا. ويعكس السؤال نفسه مدى تأثره بزميل قديم من الزملاء الذين كانوا يدرسون في جامعة «طوبنجن»، وهو الفيلسوف

(١) الشامانية هي ظاهرة دينية تتضمن مجالات وممارسات الشامان. بالرغم من أن الشامانية موجودة بعدة أشكال حول العالم، قد يكون موطن الشامانية بشكلها النقي سايبيريا وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى السكان الأصليين للأمريكيتين والذين يبدون من أصول وسط آسيوية.

وعالم النفس «ت. ك. أوسترتش» (١٨٨٩ - ١٩٤٩). وكان اهتمام «أوسترتش» يتركز على ما يُسمى «التليباثي» أو التخاطر الذهني وما يسمونه بعلم النفس الغيبي أو «البارسيكولوجي»، ولكي يتمكن من تطوير أفكاره نشر سفرًا ضخمًا يضم أمثلة على حالات المس وما اتصل بها من ظواهر في العام ١٩٢١، وهو ما يشير إليه «فينكلر» في مقدمته. وهنا يخفق «فينكلر» في فهم بنية الحقيقة الثقافية، ومقتضاها أن «الأشياء تُعد حقيقة إذا اعتقد الناس أنها كذلك». وكذلك لا يقر بدور السياق في تحديد صحة القيم الدينية، وأن هذه القيم الدينية لها دور في تشكيل المعتقدات والأفعال، وهو يستشهد بـ «فيرث» (Firth 1964: 239) في أن القيم الدينية صحيحة من الناحية السياقية، وأنها تؤثر على السلوك بتحديد الممكن المتاح.

التقط أفكار «فينكلر» حول دور «عبد الراضي» بوصفه «مركزًا» جديدًا في مجتمع القرية عالم أنثروبولوجيا إنجليزي يُدعى «إيه. إم. هوكارت» كان أستاذًا لعلم الاجتماع في جامعة القاهرة من عام ١٩٣٤ وحتى عام ١٩٣٩. تزامن عمل «هوكارت» مع «فينكلر» في القاهرة، وعرف كلٌ منهما الآخر. وكان «هوكارت» مهتمًا بعملية التطور الاجتماعي، واستفاد من جهود «فينكلر» في دعم تحليلاته (١٩٣٦: ٣٠٠؛ هوبكنز ٢٠٠٧: ٤١٦). فنحن نعرف أن «عبد الراضي» لم يصبح محورًا لتغيير كبير في بنية القرية الاجتماعية، ولكنا نعرف مجذوبًا آخر مجهول الاسم لا يبتعد كثيرًا عن عبد الراضي نجح في إحداث تأثير كبير دائم في المجتمع[1]. ففي قرية تُسمى «بغدادي» تبعد نحو

(١) يعني ذلك أن هناك من رجال الدين من يؤثر في المجتمع ومنهم لا يعجز عن فعل ذلك، ويعود ذلك إلى عدة عوامل منها معتقدات وممارسات معينة وأيضًا ظروف اجتماعية / اقتصادية موجودة في القرية، ومنها بنيات القوة الموجودة في القرية ومنها السياق التاريخي. [المترجم]

٦٠ كيلومترًا من ناحية الجنوب، كان يعيش أحمد رضوان الذي شُيد باسمه مركزًا دينيًا كبيرًا (هوفمان ١٩٩٥: ٢٥٥ - ٦٧). هنا يتحقق الفهم الاجتماعي الذي نراه، وإن كانت حالة عبد الراضي لا تكفي للكشف عنها.

أستطيع أيضًا أن أقارن كتاب «فينكلر» بكتاب آخر أسبق منه يصف أحوال الصعيد في مصر، وهو كتاب بعنوان «الفلاحون في صعيد مصر» من تأليف «ونفرد بلاكمان» (١٩٢٧). أيضًا تزامن عمل «فينكلر» مع عمل «بلاكمان» في القاهرة، وكتب «فينكلر» مرة أنه اطلع على كتاب «بلاكمان» بشكل جيد، وعبر عن تقديره لها لأنها شجعته على أن يمضي في بحثه في صعيد مصر وإن كان آخرون ينصحونه بألا يفعل (١٩٣٤: ٢). وعلى الرغم من التشابه في كثير من التفاصيل بين الكتابين، فإن منهجيهما يختلف اختلافًا تامًا - فقد أقدمت «بلاكمان» على مسح المنطقة بين الفيوم وأسيوط، ورتبت محتويات الكتاب حسب الموضوعات، بينما كان «فينكلر» يركز على منطقة صغيرة ليصل في نهاية المطاف إلى تحليل يؤكد الروابط والصلات التي تربط بين الأجزاء.

وُلد «هانز الكسندر فينكلر» في عام ١٩٠٠، وعمل فترة قصيرة في الجيش الألماني في نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي تلك الأثناء أزمع المضي في دراساته، ولكن الفقر كان قد ضرب البلاد والعباد بعد الحرب، فاضطر إلى العمل في أبسط الأعمال لكي يجد قوت يومه. ولأمر ما وجد من يغريه بالشيوعية فانضم إلى الحزب الشيوعي الألماني. ولكنه وجد في نفسه ميلاً إلى الدراسة الأكاديمية، فقرر تقليص مساحة السياسة وتوسيع مساحة الرغبة في العلم والمعرفة. فعمِد إلى جامعة «طوبنجن» ليحصل منها على درجة الدكتوراه

في عام ١٩٢٥، ثم ليحصل فيها أيضًا إلى وظيفة مناسبة في التدريس في عام ١٩٢٨. وكان تخصصه في الأديان المقارنة، مع دراية ما بالاستشراق، وتعلم العربية من كثرة قراءة النصوص العربية قبل أن يتوجه إلى مصر. ولكن مساره الفكري والعلمي كان في اتجاه الأنثروبولوجيا، وكان يمكن أن يحقق فيه إنجازًا كبيرًا لولا التوقف الكبير الذي حدث لـه في عام ١٩٣٣.

فقد كان «فينكلر» على وشك الدخول في رحلة أكاديمية ناجحة لولا وصول الحزب القومي الاشتراكي (النازي) إلى السلطة، وأقدم النازيون على فصل «فينكلر» من سجلات الجامعة بسبب انتماءاته الشيوعية السابقة. وساعده بعض الزملاء الأكبر منه سنًا في المجال على توفير بعض التمويل اللازم لمواصلة البحث العلمي، فأزمع الرحيل إلى مصر في عام ١٩٣٣ ليواصل بحوثه التي كان قد بدأها العام المنصرم. وكانت تلك هي اللحظة التي قابل فيها عبد الراضي وقرر تحليل حالته في خلال فترة تصل إلى ثلاثة أشهر بدأت من ديسمبر ١٩٣٣ إلى مارس من العام ١٩٣٤. وبعد ذلك راحل يطوف أرجاء مصر كلها من الجنوب إلى الشمال على قدميه في أغلب الأحوال، ولمدة أشهر قبل أن يعود أدراجه إلى ألمانيا. وفيما بعد عاد «ونلكر» إلى مصر وقضى هناك سنوات عديدة في أواخر الثلاثينيات من القرن العشرين في صحبة بعثة إنجليزية كانت مشغولة بالبحث عن الرسم على الصخور في صحاري مصر. وفي تلك الأثناء توفيت زوجته في سن السادسة والثلاثين تاركة له طفلين. وعندما اندلعت الحرب في عام ١٩٣٩ عاد إلى ألمانيا والتحق في نهاية المطاف بالسلك الدبلوماسي الألماني (واضطر بحكم العمل إلى الانضمام إلى الحزب النازي)، عاملاً لفترة بوصفه حلقة وصل

الألمان ورجال السياسة العرب الذين اجتمعوا في برلين. وفي عام ١٩٤٤ تطوع للخدمة العسكرية، وقُتِل في معركة من المعارك التي دارت في بولندا في يناير من العام ١٩٤٥. وعمِد زملاؤه من الذين نجوا من المعارك إلى أوراقه الكثيرة التي تركها فسلموها إلى إدارة الأرشيف في جامعة «طوبنجن» (انظر Junginger 1995a and 1995b).

كتاب «الملبوس - دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر» يقف شامخًا بين كتب «فينكلر»؛ فهو يختلف عن كتبه التي كتبها قبل ذلك والكتب التي ألفها بعده. فهذا الكتاب بشكل عام أكثر تناغمًا مع الميول الأنثروبولوجية المعاصرة من كتابيه الآخرين اللذين أقامها على البحث الميداني الإثنوجرافي في مصر (Winkler, 1934 and 1936). ويختلف بطبيعة الحال عن الكتابين اللذين ألفهما في علوم المكتبات ونشرهما قبل عمله الميداني، وعن التقارير التي تركها عن الرسم على الصخور ونشرها في إنجلترا في أواخر الثلاثينيات. ولأمر ما استقبل القراء هذا الكتاب استقبالاً فاترًا، واعترض بعضهم على عرض «فينكلر» المغرق في العاطفة والشفقة على تلك المعتقدات المحلية، ولم يفهموا ما انطوى عليه الكتاب من خطورة في المنهج حين وضع المؤلف نفسه وسط فلاحي الصعيد في مصر. فلم تكن المشكلة في هذا الكتاب لغته وحدها؛ فالحق أن كثيرًا من الكُتاب الألمان قد قرأوا الكتاب ولم يحفلوا به، ولم يشيروا إليه إلا قليلاً جدًا، ولم يكن السبب في ذلك لغته كما قلنا، وإنما كانت فترة ثلاثينيات القرن العشرين فترة صعبة بطبيعتها على أصحاب التخصص في الأنثروبولوجيا والأديان المقارنة، وكان هذا الكتاب سابقًا لزمنه في كثير من الوجوه، وأيضًا كان مشتبكًا مع أهداف الأيديولوجية السائدة في

عصره. كان يعرف ذلك الألماني دون غيره، وأما غير الألمان فربما لم يدركوا مدى اختلاف هذا الكتاب عن تلك الأيديولوجيا السائدة، وربما شغلتهم عنه موضوعات أخرى كانت شائعة في تلك الأعوام التي سبقت الحرب الكبرى. أضف إلى ذلك أن مصر لم تكن في ذلك الوقت ثابتة القدم على خريطة المناطق التي توجهت إليها اهتمامات علماء الأنثروبولجيا. ويستطيع المرء أن يحصي عدد علماء الأنثروبولوجيا الذين تخصصوا للأحوال المصرية أو حتى العربية، نستطيع أن نحصيهم على أصابع اليدين. ومهما يكن من أمر، فقد ظل الكتاب فترة طويلة مرجعًا غامضًا، وقليلاً ما يعود إليه الباحثون أو القراء بشكل عام، دون أن يستحق هذا التجاهل وذلك الإهمال، ومن هنا برزت أهمية نشره مترجمًا إلى اللغة الإنجليزية وفي مصر بالذات، بعد أكثر من سبعين عامًا من نشره باللغة الألمانية.

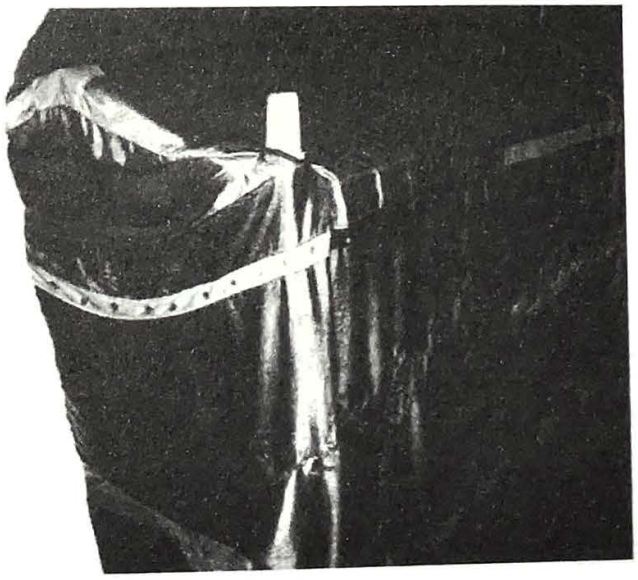

تابوت الشيخ بخيت. اسمه مكتوب على قطعة القماش. نجع الحجيري، نوفمبر ٢٠٠٦.

وقد أتيح لي بمساعدة كريمة من الدكتورة ريم سعد الأستاذة في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، أن أظفر بزيارة قصيرة لقرية عبد الراضي، نجع الحجيري. وهناك قابلنا أحفاد عبد الراضي وأسرهم. وأما مقام الشيخ بخيت فقد حظي مؤخرًا ببعض التجديدات، ويضم الآن أيضًا تابوت الشيخ عبد الراضي نفسه - وكلاهما مدفونين في مكانين مختلفين. وقد قدرنا أن الشيخ عبد الراضي قد تُوفي في العام ١٩٧٠. وقد علمنا أن ابن عبد الراضي قد أصبح بدوره وسيطًا روحيًا للشيخ بخيت، ولكن لم يأخذ دوره أحد بعد وفاته. ورغم زعم «فينكلر» بالعُنة التي تصاحب من يضطلع بدور الوسيط الروحي، وجدنا أن الشيخ عبد الراضي قد تزوج مرتين منذ أن نشر «فينكلر» دراسته، وأنه أنجب ذرية كثيرة العدد. وكذلك فعل ابنه الذي تزوج وكانت له ذرية كثيرة العدد أيضًا. وكذلك لم نر ذلك الفصل القاسي بين الذكور والإناث الذي تحدث عنه «فينكلر»، فربما كان موجودًا في زمنه وليس اليوم. وأغلب العاملين في الأسرة يعملون في الوظائف الحكومية، وليس في الزراعة، ويبدو عليهم يسر العيش وشيء من الرفاهية، فهم يمسكون التليفونات الخلوية ويستخدمون الكاميرات الرقمية. وهكذا وجدت العملية الاجتماعية التي بدأها عبد الراضي في عام ١٩٣٣ مستمرة وماضية في طريقها بعد ثلاث وسبعين عامًا، رغم أنها لم تسفر عن حراك اجتماعي أكثر تطورًا كما تنبأ «فينكلر»؛ فلم نجد إلا تطورًا في المظهر دون الجوهر.

نِكولاس س. هوبكنز

المراجع

- Blackman, Winifred S. 1927. The Fellahin of Upper Egypt. London: George G. Harrap; republished Cairo: The American University in Cairo, 2000.

- Firth, Raymond. 1964. Essays on Social Organization and Values, London School of Economics, Monographs on Social Anthropology. London: The Ath- lone Press.

- Hocart, A.M. 1936. Kings and Councillors: An Essay in the Comparative Anat- omy of Human Society. Cairo: P. Barbey; republished Chicago, 1970.

- Hoffman, Valerie. 1995. Sufism, Mystics, and Saints in Modern Egypt. Colum- bia: University of South Carolina Press.

- Junginger, Horst. 1995a. "Ein Kapitel Religionswissenschaft während der NS- Zeit: Hans Alexander Winkler (1900-1945)." Zeitschrift für Religionswissenschaft 3:137-61.

- 1995b. "Das tragische Leben von Hans Alexander Winkler (1900-1945) und seiner armenischen Frau Hayastan (1901-1937)." Bausteine zur Tübinger Universitätsgeschichte, Folge 7, pp. 83-110.

- Oesterreich, Traugott Konstantin. 1921. Die Besessenheit. Langensalza: Wendt und Klauvell. (English translation: Possession, Demoniacal, and Other, among Primi- tive Races, in Antiquity, the Middle Ages and Modern Times [London, 1930]).

- Winkler, Hans Alexander. 1934. Bauern zwischen Wasser und Wüste: Volk- skundliches aus dem Dorfe Kiman in Oberägypten. Stuttgart: W. Kohlhammer. 1936. Ägyptische Volkskunde. Stuttgart: W. Kohlhammer.

تصدير بقلم المؤلف

أتذكر جيدًا ذلك الحماس الذي استبد بي حين كنت طالبًا صغيرًا وسمعت أول مرة عن الشامانيين في سيبيريا. كان ذلك في محاضرة ألقاها «ألفرد برتولت» في «جوتنجن». ومنذ ذلك الحين وأنا مستغرق بحماس وبشيء من الولع في دراسة الروايات التي تتحدث عن الممسوسين بالأرواح والجن والآلهة. وفي صيف عام ١٩٣٣ كنت أنا نفسي أقوم بإلقاء بعض المحاضرات عن الديانة الشامانية في قسم تاريخ الأديان في جامعة «توبنجن». وبعد ذلك بفترة قصيرة سافرت إلى مصر.

وعشت فترة في القاهرة. وذات يوم زرت هناك، مع صديق لي كان رسامًا، رجلاً من الذين كانوا يتنبأون بالمستقبل، أو يقرأون الطالع. وكان المساء قد حل. رحنا نتسكع في شوارع المدينة العتيقة. وكانت الأزقة تزداد ضيقًا والتواءً. وفي نهاية المطاف وجدنا البيت الذي يقطن فيه الوسيط الروحي. كانت السلالم مضاءة بأنوار مصباح يعمل بالكيروسين، وبالكاد كنا نرى درجات السلم. وفي الطابق الثاني وجدنا حجرة واسعة جدًا كان يجلس فيها ما يقرب من المائة رجل. كانوا يتبادلون أطراف الحديث همسًا انتظارًا لـ «الشيخة»، ولم تكن الشيخة تلك إلا رجلاً تلقى معرفته كلها من جنية من تلك الجنيات المنتشرة في الريف. ولذا كان الناس ينادونه بـ «الشيخة». كانت الحجرة مضاءة جيدًا. وكانت المقاعد مرتبة ومستندة إلى الجدران. وكانت الأرض مغطاة بالحصر. وعلى الجدران أيضًا وُضعت ساعتا حائط في مواجهة بعضهما من التي كان يضعها الأجداد في السنين الخوالي. وكانت

دقاتهما ممزوجة بهمسات الجالسين. تدلى من السقف نموذج لسفينة كبيرة، وعُلِّقت على الجدار الخلفي لوحة زيتية بالألوان. وأمام الحشد المنتظر مساحة فارغة تُركت ليجلس فيها الوسيط الروحي. وقريبًا منه كان يجلس رجلٌ يمسك في يديه بقمعين سكر يقدمهما هدية للشيخة شكرًا وامتنانًا. وفجأة اهتز المكان بحركة طارئة، فقد دخل الوسيط الروحي من باب جانبي وبحركة رشيقة، يرتدي جلبابًا أبيض، عاري الرأس يعلوه شعر أشقر غامق يستقر كيفما اتُفق على جبهته الشاحبة. كانت عينا الوسيط الروحي زرقاء. وأخبرني الناس هناك أنه من المغرب. وكان المشهد الأغرب ذلك الطوق الفضي الذي كان يعلقه على عاتقه وصدره أشبه بالبوق الفرنسي. راح يوزع الابتسامات ويسرف في التعبير بوجهه، ثم جلس. أحضر له الصبي الأرجيلة الخاصة به، وشد نفسين عميقين ثم أومأ للضيوف إيماءً ليدل عن رضاه. هناك في الخلف كانت امرأتان تجلسان القرفصاء. يبدو أنهما كانتا من خاصته والمنتمين إليه بشكل أو بآخر. ومن يبتغي شيئًا من «الشيخة» عليه أن يضع قرشين صاغ (لا أكثر ولا أقل) في منديل، ثم يسلمهما للوسيط الروحي. وكان عليه أيضًا أن يعلن عن اسمه وأسم أمه والملة التي إليها ينتمي. وكان الوسيط الروحي يقوم باستخراج النقود من المنديل ثم يلف المنديل ويعصره ويشمه، ثم يبدأ بالهمس والتحديق في الأرض أحيانًا كأنه يحدث شخصًا يراه ولا يراه الناس، ومن يكون ذلك الشخص غير تلك الجنية القادمة من تحت الأرض؟ قال لصاحبي الرسام: «إنك في رحلة صيد ولكن فريستك هربت، اذهب لرحلة أخرى وستجد ما تريد». وتوجه إليّ قائلاً: «وأنت تبحث عن كنز ولن تجده». وتوقع لثالث حظًا كبيرًا في مستقبل الأيام، ولرابع أرجأ الإجابة في ذلك اليوم. وربما كانت الرسائل إلى أولئك واضحة المعاني بالنسبة لهم مقارنة بالرسائل التي يرسلها إلينا نحن الأوروبيين. فمن الممكن

قراءة الكثير في مثل تلك التنبؤات والتصريحات، فربما تكون «الفريسة» هدفًا علميًا يتحقق، أو تذكرة يانصيب تربح، أو صفقة تتم، أو فتاة يفوز بها القلب، أو أي نوع من أنواع الانتصار والربح. ومن ذا الذي يخلو قلبه من أمل في رضا فتاة، أو أي أمل آخر يفضي إلى نصر أي نصر؟ والكنز ضرب من الأمل في النصر، فربما عرف الرجل بالسليقة أني عالم آثار أو نابش قبور أو أي نوع آخر من الباحثين عن الكنوز المدفونة في باطن الأرض.

وبعد ذلك عندما قابلت «عبد الراضي» مصادفة، والذي أصبح موضوع هذا الكتاب، تذكرت «الشيخة» وأنا في القاهرة. وقد وجدت كنزًا كما تنبأت هي. وكان من حسن الحظ بالنسبة لي أن ألتقي بعبد الراضي، وأنا أقترب من الحياة الدينية التي يعيشها الفلاحون بحميمية لا يعرفها الأوروبيون. فقد كان الأوروبيون يعيشون لأسابيع وحتى لأعوام مع الفلاحين دون أن يفهموا طبيعتهم، ودون أن يدركوا أنه في أحد تلك الأكواخ القريبة قد تقتحم روحًا من تلك الأرواح الهائمة جسد إنسان، ويهتز لها اهتزازًا عنيفًا، وتعذبه عذابًا غريبًا، ثم تستولي على فمه فتتحدث من خلاله عن الأمور البعيدة، والأسرار الخفية. وحتى لو تعلم الأوروبي شيئًا من هذا فإنه لا يفهمه، وحتى لو رأى الممسوس فإنه لا يستطيع الاقتراب من حياته الروحية وحياة ضيوفه. ومن ثم، كان من حسن حظي أن تمكنت على مدار أسابيع أن أصبح قريبًا جدًا من عبد الراضي، حتى أنه قبلني صديقًا، وتخلى عن تحفظاته وتركني أشركه النظر في روحه الساكنة بين جنبيه. وكنت أسعد حالاً عندما عرفت باقي أفراد أسرته، وقبلوني أيضًا صديقًا، ولم يستهينوا بعملي، والأروع أنهم سمحوا لي بتصوير عبد الراضي وهو في حالة المس. بذلك استطعت الظفر بفهم عميق غاية العمق للحياة الدينية التي يعيشها فلاحو صعيد مصر، وهي حياة تختلف اختلافًا كبيرًا في الواقع عن تلك الحياة التي كنا نتخيلها لهم ونحن غرباء عنهم.

وأريد أن أنصح قارئ هذا الكتاب نصيحة مهمة غاية الأهمية، إن حدث نفسه بزيارة عبد الراضي في قريته، ألا يُظهِر له صوره التي التقطتها له وهو في حالة المس. فإني لم أسمح لنفسي أن أوريه صوره وهو في تلك الحال. ولقد كنت أفعل ذلك من منطلق التأدب وحسن الذوق، وأرجو أن يراعي القارئ هذا السلوك غاية المراعاة.

ولقد حرصت على أن أقدم عبد الراضي من خلال عالمه الخاص الذي فيه يعيش. وكان في وسعي أن أبحث عن حالات تشبه حالته في كتب علماء الإثنوجرافيا فأستنبط وأستنتج. ولكني أدركت أن ذلك لن يمكنني من وصف التجربة بالدقة المطلوبة. فمن يريد أن يفعل ذلك سيجد حالات كثيرة في الكتاب الذي ألفه «أوسترتش» عن المس والممسوسين، وكنت قد عكفت على دراسته وتعلمت منه وأنا في صعيد مصر. ولقد قررت أيضًا ألا أبحث عما يشبه حالته في مصر القديمة. وكذلك أحجمت عن الدخول في متاهات علم النفس والطب، وجعلت كل تركيزي على عبد الراضي دون غيره، وعلى تقديمه حالة جلية واضحة أمام علماء الإثنيات وعلماء الدين وعلماء المصريات، وحتى علماء النفس.

وختامًا أقول إني أشكر صندوق أبحاث الطوارئ للعلوم الألمانية، الذي يسر لي العمل في هذا المشروع غاية التيسير، في الجانب الميداني والمكتبي كليهما، وأشكر أيضًا الناشر، الدكتور «ف. كولهامر» الذي أحسن الظن بهذا العمل، وتحقق من أن ثمار كدحي لم تكن بالهينة.

هانز الكسندر فينكلر

القاهرة، ديسمبر ٢٨، ١٩٣٥

الباب الأول

بيئة عبد الراضي

الفصل الأول

المنظر الطبيعي والناس حول عبد الراضي

الحقول الخضراء عميقة الخضرة على جانبي خط السكة الحديد، تحدها من الشرق والغرب جبال الصحراء الشاحبة وقد أخذ بعضها اللون الأصفر الضارب إلى الرمادي، وفي الأفق تستقر السماء الزرقاء ساطعة الزرقة تتوسطها شمس ساطعة ترسل أشعتها الحارقة - هذا هو صعيد مصر. وفي تلك الحقول تنتشر القرى تظلها أشجار النخيل، والمنازل المبنية بالطين تنهض من على الأرض، وهنا وهناك ترى قبة لمقام لولي من الأولياء أو صالح من الصالحين مطلية باللون الأبيض. هناك ترى الفلاحين يركبون عربات القطارات ويرتدون جلابيبهم الطويلة، وقد وضعوا على رؤوسهم العمائم المصنوعة من القماش الأبيض ناصع البياض، كيفما اتفق. وجوههم بنية من طول التعرض للشمس كل يوم. ومن جهة الشرق يمكن للمرء أن يرى مدينة أكبر قليلاً من القرية، ويرى فيها مئذنة نحيفة تشق الهواء وتعلو على ارتفاع النخيل والمنازل. تلك هي مدينة «قفط». تلك المدينة التي كانت مختلفة أشد الاختلاف، مدينة كبيرة وشوارعها ضيقة ومساجدها أرحب وأوسع، وكانت تزدحم بالتجار والفلاحين، وكذلك بأولياء الله الصالحين والموظفين، وكنت ترى فيها الجنود والبدو يمتطون جمالهم قادمين من الصحراء أو إليها ذاهبين. الصمت اليوم يخيم على المدينة العتيقة، والمنازل قد تهاوت. لم يبق غير الاسم العظيم «كوبتوس» هو العالق اليوم بذلك الأثر المنقضي - «قفط».

«قفط» نفسها - عدد قليل من الأزقة الترابية البائسة، تستقر عند الحافة الغربية لأرض الأطلال، تغشاها أنقاض الجدران الدارسة، وأكوام الأحجار، وكتل الأعمدة، وما لا يُحصى عددًا من شظايا الخزف والفخار. والحشائش الشائكة تغطي المكان كله، ذلك الذي كان ذات يوم نابضًا بحياة ثرة كمركز تجارة عظيم تعاظمت مكانته وتضخمت، واليوم نرى رعاة الجمال من قبائل البشارية والعبابدة يطلقون جمالهم ذات الأعين الواسعة. وأرض الأطلال تلك تحفها القرى من جميع الجوانب، وعند الحافة الشرقية تقع «كيمان»، أو الكومة، بعبارة أخرى، كومة الأنقاض. وعند الحافة الشرقية لهذا التجمع السكني يقوم منزل محمد أحمد السنوسي. وكان السنوسي ذات يوم من أمهر رؤساء العمال الذين خدموا مع علماء الآثار الألمان. اليوم يقضي أغلى ساعات النهار جالسًا على كومة من أكوام الأنقاض القريبة من جاموسته السوداء. لقد عشت وعملت في منزل هذا الرجل في ربيع عام ١٩٣٢، وفي شتاء عامي ١٩٣٣ و ١٩٣٤. وأشهد الآن أنه كان مكانًا مريحًا جدًا للسكن والإقامة. لم يكن صخب القرية وغبارها يصلنا هناك، بل كان المنزل تحده الحقول الخضراء التي تتصاعد منها في الليل رائحة الفول الطازجة، أو رائحة الأرض الرطبة. كان المنزل مقسومًا إلى نصفين، نصف يسكن فيه «سنوسي» وزوجته وأبناؤه، والنصف الثاني يسكن فيه أخوه «الشيخ مصري». وكان الشيخ مصري يمتلك دكانًا، لم يبق منه الآن سوى الميزان الكبير مستقرًا أمام الأرفف الفارغة. والحق أن الشيخ ذا اللحية الرمادية كان كثير الجلوس في وضع القرفصاء خلف الكاونتر، ولكن بدلاً من بيع الدخان وأقماع السكر، أصبح الآن يبيع الأحجبة والتعاويذ لأولئك الذين كانوا يلتمسون العلاج لشخص من الناس أو دابة من الدواب، أو يبحثون عن سعادة مفقودة في العلاقات الحميمة، أو وضع نهاية لتهديدات الأرواح وتعذيبهم.

إن الطريق إلى الصحراء القريبة والنجوع المنتشرة على امتدادها لا تجري على خط مستقيم على الإطلاق، ولكنها طريقٌ مليئة بالمنعرجات والمنحنيات التي ليست لها تفسير. وتلك السدود العظيمة التي تحجز المياه في أثناء الفيضان وفي نفس الوقت تعمل بوصفها الروابط أو الصلات التي تصل القرية بالقرية الأخرى، سدودٌ لم تُبنى عبثًا فزُوِّدت بانحناءات تحتمل ضغط المياه، تؤنسها مدقات ترابية لها نفس الانحناءات والالتواءات. وفي الحقول تسمع صرير ساقية تدور بها بقرة يعدو خلفها غلام اسمر البشرة يرتدي قميصًا مهلهلاً. وفي مكان آخر ترى فلاحًا آخر مفتول العضلات عاري الخصر يجذب الشادوف صعودًا وهبوطًا بإيقاع منتظم وقد ارتفعت عقيرته بالغناء وهو يقول: «جرحي من المي مكران عليّ / مكتوب يا ناس من القدم للراس .. آه يا شادوف». وكثيرٌ من تلك الألحان يبدأونها بآهة طويلة كأنها تنهيدة الحسرة. ثم إنك ترى عصبة من الفلاحين وقد انتشروا كأنهم الجنود على غيط محروث، كانوا يعزقون الأرض التي كانت صلبة كالصخور، بفؤوسهم مختلفة الأحجام. وعلى الطريق ترى قبة بيضاء ناصعة البياض، إنها لمقام ولي من الأولياء، وتلك كانت تحتوي على ضريحين لاثنين من الأولياء. وفوق باب الضريح، على الجدار، رسم أحدهم رجلاً أسمر البشرة، يمسك بيده راية. كانت مثل هذه الأضرحة منتشرة على طول الطريق، في القرى والمقابر، مزدانة بمثل تلك الصور الغليظة، صور لرجال وجِمال وقطارات وسفن وطيور وأشياء أخرى كانت تعِن لذهن الفنان. وهنالك في الأفق حيث تنتهي المساحة الخضراء وتبدأ الصحراء، ترى قرية، يعرفها «هانز الكسندر» بن «فينكلر» بمدخلها المحفوف بأشجار النخيل والدوم. تلك هي قرية نجع الحجيرية. في تلك القرية عاش «عبد الراضي»

الذي اختارته العفاريت والجنيات ليكون مأواها وحاملها على أكتافه، والمؤتمن على رسائلها وتوصيلها إلى الناس.

وبعيدًا عن صخب أوروبا، يقضى الفلاح المصري يومه كما قضى اليوم المنصرم، ويقضى العام كما قضى العام المنصرم. وللفلاح يد ذهبية هي التي بفضلها تزدان مصر بالخير الوفير. فلو تخيلنا هذه اليد وقد آثرت السكون، فلن تجد هذا المنظر الطبيعي بديع الجمال، ولوجدت أشجار النخيل وقد ذبلت، ولوجدت الحقول وقد تحولت إلى صحراء جرداء لا زرع فيها ولا ماء. ولكن هذه اليد لا تخلد إلى الراحة، فبها يحرث الفلاح ويبذر الحب، وبها يلوح للطيور يناجيها وتناجيه، بها يدرس القمح ويذري الحب من التبن، وبها يروي الأرض العطشى، أو يقف وراء بقرته وهي تجر الساقية، عامًا بعد عام، وأغلب الوقت في النهار أو في الليل. بذلك يكون هو الناشيء لهذا المشهد الأخضر، والطبيعة الخلابة، ولكنه هو نفسه ابن الطبيعة، فهي التي تكلؤه كما يكلؤها، وتعني بأولاده كما يعني بها. فلا تجد مكانًا على وجه البسيطة يمتزج فيه طبع الفلاحين بالأرض إلا في مصر. فعلى ضفتي نهر النيل الضيق يمكن للفلاح أن يرى الصحراء البائسة التي لا ترحم. تطل عليه وهو يعمل، تنتظر توقفه عن العمل فتنقض عليه وعلى الحياة نفسها، فيختفي كل شيء ويهيمن الموت؛ وكلما نشط في عمله قهر الصحراء واحتواها، وألزمها حدودها لا تتعداها، فإذا شحذ همته وشد على ساعده، ظفر بمزيد من الحقول الجديدة. إنه يعشق أرضه كما يعشق أمه وأولاده، ويعشق المياه العذبة الغنية الآتية من النيل المبارك، ويهاب تلك الصحراء المحدقة التي يعدها عدوًا يجب أن يحاربه.

والحق أن أهل نجع الحجيرية الذين كانوا يسكنون عند حافة الصحراء، لم يطب لهم المقام هناك مدة طويلة. فمنذ قرنين انصرما كان أجداد أولئك الفلاحين يجوبون الصحراء بوصفهم البدو الرحل. ولكن حياة الصحراء المصرية قاسية لا تُطاق، ولا تحتمل الجبال عددًا كبيرًا من البشر، ولا تتسع إلا للقليل. وإنما جذبت الحقول الخضراء في حضن وادي النيل أولئك الرعاة الجوعى. فهبطوا من الجبال، وتزوجوا من نساء الفلاحين، وامتزجوا بهم وبقوانين الأرض المصرية الطيبة التي منها أن الراغب في الاستقرار عليه أن يكد ويكدح بالشادوف وجر المحراث. إنهما عالمان مختلفان أشد الاختلاف: عالم الصحراء وعالم الوادي الخصيب، حياة الصحراء القائمة على الحرية، حرية الراعي الهائم وحده في صحراء لا نهاية لها يتضور جوعًا، وحياة الفلاح الرغدة الناعمة في القرى المستقرة. وأحفاد البدو في نجع الحجيري أصبحوا يتقنون الزراعة بنفس مهارة أولئك الذين كان أجدادهم هناك منذ القدم، منذ أبونا آدام عليه السلام. وصاروا يعشقون وادي النيل، كما عشقها أحفاد الفراعنة الذين كانوا يزرعون الأرض منذ الأزل، وظلوا لا يأنسون للصحراء التي يطل منها الخطر في كل لحظة. ففي قدرة البدو أن يصبحوا فلاحين في وقت قصير، دليلا لا يُدحض على سحر وادي النيل وقدرته على التغيير التي صاغت الناس في مدينة «قفط» [كوبتوس] بقوة الأرض الطيبة.

مجال الرؤية عند الفلاحين محدود؛ في المكان لا يتجاوز نهر النيل، وفي الزمان لا يتجاوز عصر النبي محمد. الحوادث كلها قدرية. لا يتصور بلادًا أخرى لا يشرب أهلها من ماء النيل، ولا يتصور ناسًا عقلاء لا يؤمنون

بمحمد وجنته الموعودة. أفكار الفلاح وخواطره اليومية مقصورة على حياته وعمله. فعليه أن يصلح الساقية المعطوبة، ويعتني بالجاموسة التي ستلد له عجلاً، وعليه بالاعتناء بالغيط والحصاد، ويحرص على شراء العلف للبهائم. والسوق عندهم حدث أسبوعي. فإلى هناك يحمل الفلاح بصله وفجله وقصب السكر وحبوبه وماعزه وعجوله، ومن هناك يشتري الفلاح قماشًا وأحذية وخيطًا وتوابل، وبرقعًا لزوجته تحتاج إليه في المناسبات، وعكازًا له. وهناك في السوق قد يجد من يخلصه من ضرس معطوب، أو من يعد له حجابًا أو تعويذة يستعين بها على الحسد، أو من يضرب لـه الوشم على ذراعه. وأكثر ما يزعجه مرور جامع الضرائب، ذلك الذي يظهر لـه وقت الحصاد، عندما تكون الجرون على الأرض وقد فُصلت الحبوب عن التبن، وتكومت حبوب القمح كأنها حبات الذهب الأصفر على الأرض. وأكثر ما يفرح قلبه أخبار الزواج، عندما تُدق الطبول ويصدح المغنون بالغناء، وتطير رائحة اللحم المشوي والمغلي في كل مكان، وينتشر خبز المواسم في أنحاء المنزل. وأكثر ما يفرحه أن يستقبل مولودًا ذكرًا عندما تنداح الزغاريد تعبيرًا عن الفرح، عندئذٍ يدخل السرور في قلب الأب - ثم تأتي أفراح الطهور، أو ذبح أضحية عند مقام ولي من أولياء الله الصالحين، عندما يفي الفلاح بنذر نذره أو وعدٍ وعده. الموت أيضًا يقطع الطريق أمام حياة الفلاح الماضية في طريقها المستقيم، فينخلع قلبه عندما يسمع صرخات الحداد آتية من مكان ما في القرية، صرخات النسوة المجتمعات في بيت الميت، وهي علامة سرعان ما تنتشر في الريف كله. عندئذٍ يسرع ليواسي أصحابه، ويساعد في حمل الجثمان إلى القبر. الكل يسهم في حمل «النعش» ولو لخطوات قلائل على أكتافه. وعندئذٍ تسمع الشهادتين: لا إله إلا الله محمد رسول الله»، يرددها

الركب بشيء من التنغيم الحزين، يودعون بها أخًا لهم مسلمًا مؤمنًا بالإسلام في طريقه إلى مغفرة الله الرحمن الرحيم رب العالمين.

السياسة والحرب، حكايات الجرائد وتقارير البورصة والأسواق، وأخبار الاكتشافات والاختراعات - كل ذلك بعيدة عن مجال رؤية الفلاح المصري. فعيناه لا تبرحا النيل وعقله لا يزيغ بعيدًا عن الصلاة على النبي محمد.

الفصل الثاني

بيئة عبد الراضي الدينية

الدين الشعبي والإسلام

معروف أن أفكار أي شعب فيما يتعلق بالعالم الآخر تكون متنوعة وناشئة من مصادر متباينة، وينطبق هذا على كل الشعوب وليس على أولئك الفلاحين فقط. فما تزال أفكار من الزمن القديم تعيش بيننا جنبًا إلى جنب الأفكار الأحدث عهدًا، بعض تلك الأفكار القادمة من الخارج تمتزج مع أفكار أخرى من صميم البيئة. وهذا الثراء العقدي لا يكون مرتبًا إلا في أذهان رجال الدين والمتخصصين: الباحث وحده هو الذي يرتب منظومة أفكاره حول علم أو كيان (نبي مثلاً) أو فكرة مجردة (التوحيد مثلاً)، فيتسع النسق لكثير من الأفكار القديمة نحو وجهة جديدة، مع إقصاء الكثير من الأفكار الأخرى غير المناسبة. وأما المشهد الديني لفلاحي صعيد مصر فيبدو مختلفًا أشد الاختلاف عما يعرضه علينا علماء الإسلام. فقد يبدو للمراقب السطحي أن الفلاحين قد قبلوا الإسلام قبولاً سطحيًا، وكأن القديم ما يزال يفرض نفسه فرضًا بحرية ليس فيها انضباط. ولكن المظهر خادع مضلل. فالطريقة التي يعمل بها الإسلام إنما يعمّق التدين عند الفلاحين، حتى وإن كان ذلك العمق لا يطفو على الحياة اليومية، ولكنه موجود هناك، ويصبح واضحًا جليًا في وقت الحاجة إليه. جاءت رسالة محمد (ص) بفهم كوني، ولم تأتِ بنظام مليء بالتفاصيل والمعتقدات والممارسات، وأهم ما جاءت به هذه الرسالة

فهم عظمة الله بوصفه خالق الكون الرحمن إله العالمين، ورغم وضوح رسالة الإسلام فإن كثيرًا من معتقدات الجاهلية الدينية وعاداتها ومخاوفها وخوارقها ظلت موجودة بين الناس، والحق أنها اكتسبت ثوبًا جديدًا في إطار التوحيد والخضوع لله الواحد الرحمن القاهر على عباده إلى أبد الآبدين.

الجسد البشري

يبدو الجسد البشري لنا كأنه وحدة واحدة متماسكة لها حدود وتخوم. ولكنا اخترعنا الميكروسكوب فأوغلنا فيه فحصًا، ووصلنا إلى بنيته وعرفنا أدق تفاصيلها وأصغرها، وسعينا إلى معرفة تحولاته وما يطرأ عليه من تغييرات بدءًا من حالة المضغة في الرحم وحتى تحلله بعد أن يستقر في القبر. ولقد أمعنا في الجانب الروحي، لنكتشف أن الروح والجسد لا ينفصلان، وأن للروح أصلاً في الجسد، ورحنا نرقب قدرات الأداء الجسدي والروحي، وظفرنا من بحثنا باحترام لما نراه أمام أعيننا - نحن وليس غيرنا - الفرد وحدوده الجسدية. والفلاح لا يرى إلا أن البشرية أو أغلبها في صفه، تقف في جانبه - فالبشري لا يبدو لـه ذلك الفرد المنقبض المحدود، وإنما هو ذلك الفرد المتماهي جسديًا وروحيًا مع قوى أخرى من الجانب الآخر. فالحدود يمكن تجاوزها، والقفز عليها بعوامل داخلية وخارجية على السواء.

وأصل الإنسان معجزة في الخلق والتكوين، ويقولون إن الإنسان خُلق من نطفة يسقط ثلثها الأول على الأرض، والثلث الثاني يصعد إلى السماء، وأما الثالث فيدخل رحم الأم وينشأ الطفل البشري. في الشهر الأول تكون النطفة ماءً، وفي الشهر الثاني تتحول إلى دم، وفي الشهر الثالث تصبح لحمًا. بعد الشهر الثالث تدخل الروح جسد الطفل الجديد من خلال اليافوخ،

ويمكنا أن نشعر بدخول الروح من خلال خفقان يافوخ المولود. وأما ثلث النطفة الذي صعد إلى السماء وقت الحمل يبقى هناك حتى يوم القيامة - لماذا وكيف أمور يعلمها الله ورسوله. وأما الثلث الذي يسقط على الأرض فإنه يمضي - كيف؟ هذا أمر يعلمه الله ورسوله - إلى المكان الذي سيموت فيه الإنسان على قدره. ويجتمع معه في القبر - وهو أمر يعلمه الله ورسوله أيضًا. ولهذا يقول الناس عندما يموت شخص بعيدًا عن بيته «تلتو» (أي: ذلك كان ثلثه).

فمصير الإنسان مكتوب على جبينه، كتبه الله على جبينه كما يقولون. وعلى الجبين دروز تشي بهذه الكتابة الملغزة.

فإذا رأت امرأة حامل شخصًا غريبًا أعجبها بجماله ووسامته، أو أزعجها بقبحه أو شكله، فإن طفلها الذي في رحمها يمكن أن يقتبس من ذلك الجمال، أو من ذلك القبح، أو تلك الخصال التي لا يعلمها إلا الله، خاصة وأن الطفل ما يزال يتحرك في رحم أمه.

فإذا تاقت المرأة الحامل إلى عنب مثلاً أو تمر، وإذا لم يُستجب لها في الحال، فإن صورة ذلك الذي تاقت إليه نفسها سوف تنطبع على جسد المولود، وتظهر عليه «وحمة» لا تُمحى.

وعندما تضع المرأة توأمين، أيًا كان النوع، فإن روح واحد منهما، وواحد فقط، سوف تتحول إلى قطة أو قط. ولذا وجب على الأب أن يسمي التوأمين في الأربعين يوم الأولى «يوسف» و «جورنة» بعد الميلاد مباشرة، وعليه أيضًا أن يجلب لهما لبن إبل ليشرباه إلى جانب لبن الأم. وبهذه الطريقة دون غيرها

تتوقف عملية التحول، لا يحدث المسخ المرتقب. فإذا لم يتوفر لبن الإبل، فإن روح أحد التوأمين ستطوف كل ليلة وهي على هيئة قطة، في حين يرقد الجسد في مكانه ويخلد إلى النوم. فإذا ما استيقظت الأم النائمة وبحثت عن رأسي الطفلين، فإن حركتها توقظ التوأم الذي تحولت روحه إلى قطة، فإن الطفل سيموت لأن روحه، أو طيفه، كانت غائبة عن جسده في وقت الإيقاظ. حينئذٍ سوف تطوف الروح في كل مكان على هيئة قطة، تتطفل على الأمكنة، وتقتحم البيوت، وتنقض على أي طعام يصادفها في الطريق، وأكثر ما يجذبها رائحة «التقلية». هذه القطة الشبحية لا ذيل لها، أو لها ذيل ولكنه بالغ القصر. وقد يتصادف أن يُقدم شخص على قتل ذلك الشبح الذي يسرق الطعام من المنازل. فإذا ضربها بالفعل فإنه لن يجد لها جسدًا، ولن يعثر على قطة ميتة كما يتوقع. ولكن الذي يحدث أن الطفل صاحب تلك الروح الهائمة هو الذي سيموت في الحال. ونوع القطة من نوع الطفل الأصلي، فإذا كان الطفل ذكرًا كانت روحه قطًا. وبعد أن يصل هذا التوأم إلى مرحلة النضج، فإن روحه تتوقف عن التجوال على هيئة قطة أو قط. ورغم ذلك، هؤلاء الناس يحتفظون بخصلة الانجذاب إلى رائحة الطعام، وخاصة رائحة «التقلية» - التي تُعد حتى اليوم من أشهر الروائح المنبعثة من المطبخ في قرى الصعيد. فإذا وصلت إلى أنف هذا الشخص روائح التقلية، فإنهم لا يترددون لحظة في إعدادها له في البيت - فإذا لم تتوفر عندهم الوسائل - فإنهم يطلبونها كلها أو بعضها من المكان الذي انبعثت منه الرائحة. فإذا لم يجد «التقلية» بعد أن شم رائحتها، وهفت إليها نفسه، فإن المرض سوف يصيبه، ويصبح طريح الفراش.

والناس يستطيعون الإحساس بحوادث ستقع قبل أن تقع بزمن، بالحدس أو بالأحلام، وإن لم يروها أو يسمعوا بها.

فإذا رمشت عين الشخص اليمنى فإن مالاً قادمًا إليه في الطريق، وأما لو رمشت العين اليسرى فإنه يبكي في الحال.

وإذا حدث أن حك المرء كف يده اليمنى، عرف أيضًا أن مالاً في الطريق إليه، ولكن إذا شعر بحاجة إلى حك يده اليسرى، عرف أنه سينفق بعض المال. وحين يكون الفلاح مشغولاً في الأكل وحدث شيء مثل «الزغطة» مثلاً فإنه على يقين من أن قريبًا تذكره.

فإذا اهتزت الأذنان وأحدثتا طنينًا فلا تقلق، فإنه «أبو الوزان»[1] يزن العمر، ويقيس الأعوام المتبقية. وتلك إشارة على اقتراب المنية. في هذه الحالة يضع المرء حلقة في أذنه، ويلويها حول الأذن حتى يطرد «أبو الوزان» هذا حتى يذهب قبل أن يفرغ من قياس طول الحياة. وعلى المرء الذي جاءته تلك الإشارة أن يقول: «هوز هوز - روح لعجوزة ولا عجوز»، و «هوز هوز» كلمتان ليس لهما معنى، ولكنه الإيقاع.

وإذا حلم الفلاح بأنه خلع ضرسًا، فإنه يعتقد أن أحد الشباب سوف يموت، وربما يكون صاحب الحُلم نفسه هو الذي سيموت؛ فإذا حلم بأنه خلع سنة من القواطع، فإن الذي سيموت يكون طفلاً.

وإذا رأى الفلاح في الحُلم شخصًا آخر ميتًا، فهذا يعني أن هذا الشخص سوف يتمتع بعمر مديد وصحة وافرة.

---

(١) إما أنها من الوزن أو من الأذن «ودن».

فإذا رأى المرء شخصًا على على قيد الحياة أو ميتًا في حالة من الضيق أو مريضًا أو مجهدًا أو عاريًا فإن ذلك علامة مبشرة بشيء حسن. وهذا يعني أن هذا القريب سواء كان على قيد الحياة أو في عداد الأموات، يعيش في سعادة.

فإذا رأيت نفسك عاريًا في الحُلم ، فإن ذلك يعني السعادة والثروة.

فإذا رأيت عروسًا أو حفل زواج، فإن ذلك يعني الحظ السعيد.

فإذا رأيت نارًا في الحُلم ، فإن ذلك يعني أن المكان الذي اندلعت فيه النار في الحُلم سوف يظفر بالحظ السعيد، وخاصة المال. فالنار تجيء من الذهب، لأن كلاهما أحمر. والأفضل أن تبادر مباشرة إلى البحث عن الكنز في المكان الذي اشتعلت فيه النار في الحُلم . فإذا عرفنا أن الجسد يتأثر، عرفنا أنه يمكن أن يرسل إشارات قوية.

فالمرأة لا ينبغي أن تتخطى طفلاً غريبًا عنها راقدًا على الأرض، لأن دم حيضها يمكن أن يسقط على الطفل، وبعد ذلك يعاني الطفل من ورم في رأسه لن يبرأ منه أبدًا.

الرائحة الكريهة لعرق الرجل يمكن أن تدخل في عيني رجل آخر. وهذه العين يمكن أن تبدأ في الالتهاب. وعلى الشخص الذي التهبت عينه أن يُدخِل أصبعه أو ريشة في أذنه ليستخرج بعض الشمع، ويضعه على العين الملتهبة كما تفعل النساء بالمكياج. عندئذٍ تذهب «الريحة» أو الأثر السيء لرائحة العرق.

الأخطر من ذلك كله عين الحسود التي لا يكترث لها كثيرون للأسف الشديد. وخاصة عندما تحدق العين الحاسدة في شيء ما بإعجاب، وهذا

التحديق أو حسد الحسود يمكن أن يكون مدمرًا جدًا. ويمكن حماية الأبناء والماشية من الحسد عن طريق الأحجبة والتعاويذ، ويمكن حماية المنازل من الحسد بتشتيت نظرات الحاسد بأي شيء كطائر يُعلق مصلوبًا على باب البيت، وليكن هذا الطائر هدهدًا مثلاً، أو سحلية ضخمة، أو دمية زاهية الألوان، أو تمثالاً لرجل متجهم صفيق الوجه، أو برسم على الباب ربما لرجل معلق من عضوه الذكري الطويل.

والفم، مدخل الطعام والهواء وآلة الكلام، نقطة دخول خطرة. ولذلك يضع الناس أيديهم أمام أفواههم عندما يتثاءبون حتى لا يدخل شيطان من طريق الفم.

الأرواح والجن

عندما يفقد إنسان حياته بشكل عنيف، فإنه عفريته يخرج من دمه المسفوك. في الموقع الأثري في [كوبتوس] وأيضًا في الصحراء القريبة ينقب الناس هناك عن الملح الصخري وهو عبارة عن تربة ثرية يستخدمونها كسماد للغيطان. وعلى مدى الزمان مات كثيرون أو قُتِلوا في أثناء تلك المهمة، ودُفنوا في تلك التربة عندما كانت تنهار عليهم جدران الحفر.

لقد رأى السنوسي الكبير عفريتًا في هذه المنطقة، مرتين. كان في ذلك الوقت غلامًا يافعًا. ذات يوم كان يمر عبر الخرابات حوالي منتصف الليل. رأى عفريتًا واقفًا على قطعة كبيرة من الحطام. وكان يشبه قطعة قماش بيضاء، طوله لا يصل إلى المتر. وفجأة راح يرتفع في الهواء حتى أصبح أعلى من كل الأطلال التي كانت أعلى من طول رجلين يقف أحدهما فوق الآخر. وعندما

يزداد العفريت في الطول إلى حد مسرف فإنه يبدأ في الانحناء ويقبض على الرجل ويتناوله بين يديه ويعصره حتى تخرج روحه التي بين جنبيه، وأقل ما يُقال في هذا الرجل الضحية أنه وُلِد تحت نجم كله شؤم ويُقال إن (نجمه خفيف). وبينما يمعن العفريت في الطول يصدرصوتًا يشبه «تو تو تو تو». ولم يكن من الممكن معرفة وجه العفريت أو أي علامة تدل على هيئته الجسدية؛ كل ما يراه الرائي شيئًا طويلاً وأبيض ومرئيًا وذلك الصوت الذي كان مسموعًا. وهكذا نطق سنوسي بالبسملة: بسم الله الرحمن الرحيم، ومضى في طريقه؛ عندئذٍ تضاءل العفريت واختفى في الحال في باطن الأرض. وعندئذٍ سمع سنوسي صوتًا يشبه طرطقة أو جلجلة كالتي نسمعها من كسر الفخار، لولولولو.

بعد ذلك بعام رأى سنوسي عفريتًا آخر في تلك البقعة نفسها. عفريتًا يشبه الكلب أو القط. وفي الظلام يصعب تحديد معالمه بدقة. لم يفكر سنوسي في شيء، ظنه حيوانًا من تلك الحيوانات الأليفة، قال لـه «روح يا شيخ». عندئذٍ خاطبه العفريت بصوت كأنه يرن في جوف قبو، مكررًا ما قاله سنوسي: «روح يا شيخ». وهنا استولى الخوف على سنوسي، وعلى الفور نطق بالبسملة. وفي الحال اختفى الشبح من جديد. ولاحظ سنوسي أن قدماء المصريين كانوا يرسمون صورًا للعفاريت. أخذ صورة صغيرة من تلك الصور المنتشرة للإله «بس» منحوتة على الصخر، وقال في نفسه: «لابد أن رجلاً ما رأى هذا العفريت ورسمه على هذه الصخرة».

وعلى مسافة نصف ساعة من نجع الحجيري في الصحراء هناك بعض الأطلال أيضًا. ومنذ جيل مضى كانت هناك منازل قائمة كان يعمل فيها

علماء الآثار الأوروبيون. وقريبًا من تلك الأطلال تنتشر الأرض ذات الملح الصخري النافع، ولذا تجد المنطقة كلها مليئة بالحفر العميقة. وهناك دُفِن اثنا عشرة رجلاً أحياء بجوار الجبل. كثيرون رأوا أشباحهم، أشباح لها أرجل حمير وسيقان حمير.

لقد كان أبو عبد الراضي نفسه يرى تلك الأشباح بنفس تلك الهيئات البغيضة، ومنذ سنوات عندما كان في نحو الثلاثين من عمره كان يجمع السماد في أطلال «قفط». وكان الوقت ليلاً، حوالي الثانية فجرًا. اضطجع على الأرض بعض الوقت. وفجأة وقعت بصره على سبعة عفاريت لها أرجل حمير وعيون تعلو أعلى الجبهة. جلس العفريت فوق حماره. وفي تلك اللحظة جاء العامل الذي يعمل معه وفجأة اختفت كتيبة العفاريت التي ظهرت.

ورجل من نجع الحجيري ذهب إلى الإسماعيلية ليعمل في حفر قناة السويس، كما فعل كثيرون من نفس المنطقة. وذات يوم كان ذلك الرجل يمشي على ضفة القنال. كانت الأشجار كثيرة، وفجأة قفز عفريت على ظهره، وكان عفريتًا فظيعًا شاذًا ففعل بالرجل ما يُفعل بالنساء. في تلك الأثناء لم يستطع الرجل النطق بالكلام؛ فقط القدرة على الكلام، وفي الصباح التالي لم يستطع إلا أن يتمتم أو يثرثر كما يفعل الأطفال. وهنا تم استدعاء عالم، وراح ذلك العالم يتلو الكلمات التي تُتلى فيها الرقعات الشرعية، آيات قوية من القرآن الكريم وقطع نثرية مفعمة بالتقوى والورع. وعندئذٍ اختفى الشر، وعاد إلى الرجل نطقه.

رجل آخر من نفس القرية رأى عفريتًا، وكان يعمل في الساقية خلال الليل. وكانت الساقية يجرها جمل، ولاحظ أن الجمل مسبوق بشبح أو كائن

يدور معه حيث يدور. تناول الرجل سكينًا، ولوح بها بشيء من الشجاعة ناحية الشبح وقال له: «ارحل من هنا أيها الشيطان»، وعندئذٍ اختفى الشبح، فيُقال إن الأرواح تخشى الحديد.

إن دم الرجل الذي يموت موتًا عنيفًا يمكن أن يتسبب في ظهور مثل هذه الأرواح. أحيانًا يستطيع المرء أن يسمع الناس يقولون مباشرة: «من يموت موتًا عنيفًا يصبح عفريتًا».

هذه الأشباح متصلة الوشائج إذن بالشخص اتصالاً قويًا، كأنها انبثقت منه مباشرة، كأن روحه هي التي انقسمت وتحول جزء منها إلى عفريت فاضطرت فجأة وعلى حين غرة أن تمضي إلى العالم الآخر بسبب موت ذلك الشخص المفاجئ. ولكن هناك أرواحًا أخرى، مستقلة عن البشر، تنمو وتزدهر من جذورها الخاصة بها، لتسكن العالم كما يسكنه أبناء الإنس. والمكان الطبيعي لسكنى هذه الأشباح هو باطن الأرض. والناس يسمونهم الجن، والجن اسم مفرد ويصح أن يكون جمعًا أيضًا. وأحيانًا يسميهم الناس «السفليون أو التحتانيون». فهم مستقرون تحت الأرض ينتظرون الفرصة لسرقة البشر والسطو عليهم. وقوتهم الوحيدة تكمن في التدليس والتحايل والغش.

اثنان من الفلاحين كانوا يحصدون الذرة، كانا واقفين على الأرض التي يحصدون منها في الحقول. وكان الوقت ليلاً. أحدهما مضى إلى حال سبيله. والآخر راح يسرق من المحصول الذي لم يُقسم بينهما بعد. ولكن من خلال غشه وتدليسه أعطى الفرصة للسفليين للتدخل. وحين خلد الرجل إلى النوم، خرج السفليون وسرقوا بعض الحبوب في المقابل. وعندما عاد الفلاح الأول

رأى مخلوقات عجيبة كثيرة ترتدي الطراطير ذات الحواف النحيفة، وكانوا يعبثون بالذرة التي أخذوها من صاحبه وشريكه. وراح ينطق بالبسملة مرتين على الأقل، واختفت المخلوقات. وأيقظ صاحبه محمد سليمان وقال له: «أينا كان المدلس والغشاش؟ لقد رأيت السفليين وهم يعبثون بالمحصول». وأنكر الرجل أنه سرق من المحصول أي شيء. عندئذٍ اختفى المحصول كله - لقد أستولى عليه السفليون وأخذوه لأنفسهم.

إن السفليين يستمدون قوتهم من الغش والتدليس والخداع الذي يمارسه الشخص. فعندما يسرق أحدهم، حتى عندما تسرق امرأة في المنزل، كأن تضع كسرة خبز خلف شخص لكي تخفيها، فإن ساكني باطن الأرض يأتون ويسرقون عشرة أضعاف ما سرقت المرأة. وبعد هذا الفعل يعودون إلى حيث يسكنون.

وفلاح آخر كان يعمل مع ثمانية آخرين. وكان أمينًا وتقيًا. ولكي يحرث الغيط راح يستخدم شادوفًا وبئرًا. وكل فلاح من أولئك الفلاحين كان عليه أن يشارك في تكاليف الحصاد. وبعد أن تم الحصاد، وجاء ميعاد تقسيم الغلة، كان عليهم حساب تكاليف الشادوف، عندئذٍ جلس الفلاحون معًا. ورفع الرجل الأمين صوته بتلاوة الفاتحة. ثم راح يحسب التكاليف، وفي النهاية قال: يتبقى مليمٌ واحد». وفيما كان يقول ذلك سمعوا صوتًا مفعمًا بالحزن يقول: «ها أنتم قد أصبحتم يتامى يا أولادي». وكان ذلك صوت السفليين، والذين كانوا ينتظرون أن يحتفظ الرجل الأمين بالمليم لنفسه زورًا وبهتانًا. وبهذه الطريقة يمنحهم الفرصة لإمكانية سرقة بعض المحصول لأنفسهم. وأجاب الرجل الأمين ذلك الصوت السفلي: «نحن تسعة فلتكن أنت العاشر

إن تركت المحصول دون أن تسرق منه». وأجاب صوت السفلي: «وهو كذلك». عندئذٍ بدأ الفلاحون في تقسيم الغلة بالمكاييل ليأخذ كلٌّ نصيبه، اتجه الرجل الأمين إلى ناحية السفليين وسألهم: «وأين نضع نصيبكم؟» فأجاب كبيرهم: «ضعه في المنتصف واتركه هناك». ثم أخذ كل واحد من التسعة نصيبه، وتركوا نصيبًا في المنتصف، وذهبوا. التفت أحدهم وألقى نظرة، ورأى كيف أن السفلي كان واقفًا بالقرب من نصيبه، ثم حمله وغاص في باطن الأرض.

وشعوب الجن مثل شعوب الإنس، منهم المسلم ومنهم المسيحي. وفي «قفط» رجل طلبت منه جنية مسيحية أن تتزوجه. ولكن الرجل رفض بسبب اختلاف العقيدة، ولكن بدلًا من ذلك استخدمها خادمة لـه. كانت تقوم بشراء كل ما يحتاج إليه من السوق وغير السوق، على سبيل المثال كانت تحضر له قمع سكر من الدكان. لم يرها أحد، لا هانز الكسندر فينكلر ولا درويش يمني كان موجودًا، فجأة اختفى قمع السكر ولكن ثمنه ظل موجودًا في صندوق النقود. وحيث كان يوجد شخص غير أمين، ربما صبي المحل أو خادم في منزل، تبدأ هي في السرقة من هذا الدكان أو المنزل. ثم تسلم البضاعة المسروقة لصديقها، الرجل الذي تخدم عنده. والجنية أيضًا لديها قدرة على التنبؤ في منزل ذلك الرجل الصديق. فالناس يأتون ليسألوها عن أمور. يكون الزبائن في حجرة، والجنية في حجرة أخرى. ويستطيع الناس سماع صوتها، ويستطيعون أيضًا رؤية ذراعها. فإذا أعطاها رجل هدية تختفي تحت الأرض لتكون وسط أهلها وناسها.

ويتذكر سنوسي العجوز تلك القصص من أيام طفولته. في قرية الجزيرية بالقرب من أبنود كان يعيش فلاح عجوز، كان اسمه «حداد». وكانوا يستدعونه

عندما كان يمرض أي شخص. وحدث ذلك مرة عندما كان سنوسي شابًا. وطلب الرجل حوضًا مليئًا بالمياه، وجلس القرفصاء، ووضع الحوض أمامه مباشرة. ثم نشر شالاً كبيرًا، أشبه بالشيلان التي كانت ترتديها النساء، غطى بها نفسه والحوض المليء بالماء. وبعد فترة قصيرة سمعوه يتحدث مع أهل باطن الأرض، السفليين، فقد ظهروا له داخل الماء أو فوق الماء. وكان المرء يستطيع أن يميز بين صوته وأصوات السفليين النحيفة. أحيانًا كانت أصوات السفليين تبدو أشبه بالمناقشات. ثم أمرهم المشعوذ بقوله: «بلاش كلام، أريد أن أشفي هذه المرأة من مرضها وكفى»، وأعطاه السفليون علاجًا لمرض السيدة، وطفق الرجل يصفه لها ولأهلها. وكانت البخور تملأ المكان أيضًا في أثناء الشعوذة. ولكن سنوسي لم يستطع أن يتذكر أية تفاصيل أخرى عندما سألناه متى حدث ذلك وكيف.

والريس خليفة صاحب قبضة اليد المشهورة، الثقيلة كأنها كتلة من الرصاص. والناس يعرفون أن لديه قوة خارقة، فهو يستطيع ثني قضبان السكة الحديد، وخلع أغصان أشجار الأثلة دون مجهود، ويكسر العملات المعدنية كما يكسر رغيف الخبز، ويحمل الأحمال التي تحتاج إلى ستة رجال يحملونها. وروى أنه وهو طفل كان يذهب إلى حفني، رجل آخر خارق القوة، وطلب منه أن يصبح قويًا مثله. ويتهامس الناس بأنه حين كان طفلاً سرق حمل جمل بحاله من الحبوب وذهب به إلى أمه. ولم يكن قادرًا على أن يحمل ذلك الحمل. ثم سمع صوتًا يقول «خد»، وكأن قوة مجهولة غريبة رفعت الزكيبة على عاتقيه. ومنذ ذلك الحين أصبح لديه تلك القوة الغريبة الخارقة، يستعين بها أنى شاء.

عفاريت أخرى تهاجم رجلاً وينتهي به الأمر إلى العجز عن المشي، ومثل هذا الرجل لا يعيش طويلاً في الغالب. أو تقوم هذه العفاريت بلي عنق رجل فلا يستطيع يحرك رقبته إلا في اتجاه واحد. مثل هذا المرض لا ينفع لعلاجه إلا العنبر الخام.

ومنذ عدة سنوات أصاب المس رجلاً في مدينة «قوص» المجاورة، مسه جني. فقد ذهب ذلك الرجل إلى حمام أحد المساجد وأشعل سيجارة، وفي تلك اللحظة سمع صوت تصفيق حاد يشبه الرعد. وخاف الرجل خوفًا شديدًا، وفي تلك اللحظة دخل فيه الجن. وأولئك الجن حاضرون دائمًا، وهم يجدون الفرصة حين يستولي الخوف على شخص فتكون اللحظة المناسبة لدخولهم إلى أعماقه، وغالبًا عن طريق الفم. فإذا سألت الرجل: كيف دخل الجن في جوف هذا الرجل، فإنه لا يجيب، كل ما قاله إنه أصبح مريضًا وضعيفًا. زاره عدد كبير من المشايخ، وتلوا عليه القرآن الكريم وبعض مصطلحات الرقية الشرعية لطرد الضيف الشرير، وكل ذلك ذهب أدراج الرياح. في نفس الوقت وذات يوم راح الجن يشرح من خلال فم الرجل الممسوس أنه كان مستعدًا للرحيل عن الرجل شرط حضور الشيخ حفني من «كيمان». وبعضهم كان يريد الذهاب للبحث عن العالِم. ولكن الجني قال: «قف مكانك، الشيخ حفني في قنا الآن (وهي عاصمة المحافظة)، ولكنه سوف يأتي اليوم من تلقاء نفسه». والحقيقة أن الشيخ حفني جاء بعد صلاة العصر تلبية لنداء مريض بالمس. وحياه الجني من خلال فم الرجل قائلاً له: «كنت زميلك في الدراسة، ودرست معك في الأزهر الشريف في القاهرة». ثم راح الجني يصف يومًا بعينه، والمكان الذي كان يقف فيه حفني في ذلك اليوم: «كنت جالسًا في المكان الفلاني قريبًا منك، ربما لم تكن تراني لأنكم

يا معشر بني آدم لا ترونا من حيث نراكم». ثم راح الجني يتلو من آيات القرآن الكريم، وقال إنه مضطر إلى المغادرة الآن، وطلب من حفني أن يبقى مع المريض لساعتين أخريين، لأن هناك خطرًا من أن يأتي جني آخر بعد مغادرته ويدخل الجسد المهجور. ثم خرج الجني، وفي الحال استرد الرجل صحته السابقة، ولم يعد يعاني من الجن بعد اليوم. لقد ظل الجن في داخله أسبوعين بالتمام والكمال.

وهناك طائفة من الجن مختصة بتهديد النساء خاصة، وتلك هي أرواح الزار، وأصلها أجنبي. فقد شرح لي عبد (من السود) في نجع الحجيري يقول: «الزار أصله من السودان، كان يمارسه البرابرة، أو النوبيون. ولم ينتشر الزار في البلاد إلا بعد مجيء الأوروبيين، وبدأ يسكن بنات العرب. وذلك النوع من الأرواح كانوا يسمونه «زار»، وأصبح في مصر «الزار» لأول مرة. فإذا حدقت امرأة في نفسها في المرآة لفترة طويلة وبإعجاب وتزينت وتبهرجت، فإن شبح الزار يستغل هذه الفرصة ويقفز في داخلها، وتصبح هي مأواه». ومن ناحية أخرى قالت لي سيدة عجوز: «عفريت الزار لا يسكن المرأة إلا إذا كانت مهمومة جدًا، لديها هموم كثيرة أو أحزان كثيرة، حينئذ يكون لعفريت الزار عليها سلطان، مثلاً إذا حزنت المرأة حزنًا شديدًا لموت زوجها أو ابنها، أو إذا جاء من يهدد حياتها بالشقاء والهموم». وعندما يدخل عفريت الزار في المرأة، فإنها تمرض وتعاني من ضف البصر وآلام في المفاصل وشيء من الصمم أو بشيء من الإسهال - بواحدٍ من هذه الأمراض أو أكثر - ونظرًا لضيق الحال فإنها لا تقدر على الكثير. والزار يمكن أن يمس الرجل، ولكن ذلك فيما ندر. ومن أجل طرد هذه الروح من الجسد، فإن واحدًا منهم يدعو

إلى حفلة الزار؛ فيجتمع جميع الممسوسات والممسوسين، ويأخذون في الطبل والغناء وتلاوة أسماء عفاريت الزار الواحد بعد الآخر، ولهم أسماء مثل لولبية ومغربية وموج البحر والولاد وأم الغلام وصافينا وماما أو مرومة. كل شيء يكون مرتبًا بشكل احتفالي من أجل طرد الزار العفريت. وبالإضافة إلى الموسيقى هناك أيضًا ما لذ وطاب من الطعام؛ وأما الضيوف، وخاصة الممسوسون بعفاريت الزار فيرتدون أفخر الثياب، ويلبسون أجمل الحُلي. وبسبب هذا الصخب وذلك المهرجان فإن عفاريت الزار تنزع إلى المغادرة من تلقاء نفسها. وكل عفريت منها له نغمته الخاصة: وعندما يسمع نغمته فإنه يجيب في الحال من خلال فم الممسوس ويطلب شيئًا لضحيته المبتلاة، عادة ما يطلب فستانًا أو رداءً أو قطعة مجوهرات. وعندما يُلبى طلبه، يشفى المريض من مرضه، ويتخلص من آلامه. ولكن عفريت الزار يظل داخلها أو قريبًا منها.

وأحيانًا يدخل عفريت الزار في علاقة عشق مع النساء. وتعجب رجلٌ ذات مرة من زوجته لماذا تتزين وتتبهرج كل مساء يوم سبت وأحد، بينما باقي أيام الأسبوع ترتدي ملابس قرية أبنود الكئيبة. وراح يراقب زوجته فترة من الزمن. في ليلة من ليالي أيام السبت قرر أن يقضي الليلة معها. ولكنها طلبت منه أن يتركها وحدها. وسألها الرجل عن السبب في إعراضها عنه. قالت له: «إن عفريت الزار يزورني في هاتين الليلتين». وغضب الرجل غضبًا شديدًا وأخذ زوجته إلى القاضي. وهناك قال للقاضي: «معي شريك في زوجتي، من الآن فصاعدًا سأدفع لزوجتي مصاريف نصف شهر فقط. وعلى عفريت الزار الذي تتحدث عنه أن يتكفل بنصف الشهر الثاني». ووافقت زوجته في الحال.

عندما تكون المرأة ممسوسة بعفريت الزار أو أي عفريت آخر يقول الناس إن عفريت الزار يلبسها؛ فيكون عفريت الزار للمرأة كالرجل في جلبابه. وأهلنا يقولون إن العفريت سكنها، وأنه يركب جسدها كما يركب متسلق الجبال الجبل.

وكثيرًا ما يرى الناس إعصارًا أو زوبعة (زعبولة) في الصحراء القريبة، أو على الطرقات التي تتخلل الحقول. والسبب يكون في الشيطان، الذي يكون مختبئًا هناك. والناس لا يعرفون كيف يحمون أنفسهم من هذه المخلوقات.

كثيرون يمكنهم التعامل مع العفاريت، إما لأنهم قادرون على طردهم أو لأنهم قادرون على اتخاذهم خدمًا لهم. وهذه القدرة تأتي من مصدرين، إما بفضل الله تعالي يفيض به على ما يشاء من عباده، وعندئذٍ يقول الناس: إن هذا الرجل عنده «سِر»، أو فضل. أو أن تلك القدرة يكون مصدرها الجن نفسه، وفي هذه الحالة يصفها الناس بأن هذا الرجل مثلاً عنده «اسم»، أو بمعنى آخر يكون عارفًا بأسماء الجن والعفاريت السحرية. ومثل هذا الرجل صاحب «الاسم» يستطيع أن يحطم الزجاج، أو يقتلع الأشجار، أو ذلك الذي يصاحب جنية تقول الحقيقة وتكون رهن إشارة منه. أو ذلك الرجل الذي يظفر بجنية تجلب لـه المال السحري والذي يتحول بعد فترة وجيزة إلى قطع من الخزف المكسور، كل هؤلاء يُقال إن لهم «اسمًا». ولكن هناك رجالاً أتقياء، ورعين يقال إن لديهم «سر».

والشيخ مصري، أخو سنوسي، واحد من هؤلاء، أصحاب الأسماء، يعرف أسماء الجن والعفاريت. فعندما تظهر روح شريرة، سواء استدعاها عفريت أو جن، في أي مكان وتقذف بالطوب على الناس وهم في منازلهم،

أو ترش روث الحيوان على وجوه الناس، فإن الشيخ مصري يكون مطلوبًا. يقوم الشيخ مصري حينئذٍ بالقبض على العفريت المشاغب في البيت. فإذا ظفر بإكراميته، فإنه يقوم بطرد الروح الشريرة في الحال. ولكن إن لم يحظ بإكراميته ويُعط أتعابه، فإنه يطلق هذه الروح الشريرة بعد أسبوع. لقد حصل «مصري» على علومه السحرية من الكتب التي تتعامل مع القوة السحرية الكامنة في أسماء الله الحسنى، ومن أجزاء معينة في القرآن الكريم، الأجزاء التي تذكر أسماء العفاريت وأقوالهم. هذا هو الذي يسمونه «الاسم».

كنت حاضرًا هناك ذات مرة عندما استُدعي الشيخ «مصري» للاستشارة. كان يجلس القرفصاء على حصيرة أمام الباب. وعلى هذا الباب نُقِشت سبع صور نقشًا يدويًا في صف واحد - وكانت علامة اليد بالأصابع المفرودة كأنها تدفع عن البيت أذى الجن والعفاريت. وبعد فترة وجيزة جاءت امرأة فقيرة وأعطت الشيخ طاقية ابنها المريض ليتعرف على «ريحته»، وقد طوت قرشًا في الطاقية بوصفه الإكرامية. اقترب الشيخ مصري من المرأة، وتناول الطاقية، وأخذ القرش، ثم قال: «الشاب كان في الناحية البحرية؟» وأجابت المرأة موافقة. «هل كان يسعل؟»، أجابت المرأة بنعم. وهنالك راح الشيخ مصري يتفحص القرش وسألها: «ما هذا المبلغ، هذا قليل؟ الولد عنده مرض خطير وصعب. لو ذهبت به إلى الطبيب ستدفعين الكثير»، وهنا قالت المرأة إنها ستذهب وتجلب له المزيد من المال إن هو استطاع شفاء ابنها، ورد صحته إليه.

أخذ الشيخ مصري قصاصة ورق وقلم حبر ومحبرة ثم راح يسأل: «ما اسم الشاب؟» أجابته: «سليمان». وراح يسجل المعادل القيمي لحروف

الاسم. ثم راح يتحدث برقم آخر مشتق من الرقم الأول. ولم أستطع متابعته، ولكن اليوم كان يوم جمعة، وكان لذلك دور، فإلى جانب هذا الرقم راح يكتب بخط مضطرب سطرين بالعربي، ثم ترك مسافة وكتب الأختام السبعة التي ترمز إلى أسماء الله الحسنى، وأضاف إليها سطرين من حروف الهجاء العربية، ثم ترك مسافة أخرى وكتب أسطرًا أخرى كثيرة بالحروف الأبجدية العربية. ثم مزق الورقة وقسمها إلى ثلاثة أقسام وبعدها ثلاثة أقسام أخرى منفصلة. وأعطى الأقسام الثلاثة الأولى للمرأة وقال لها: «ضعي بذور كراوية في سمن بقري بلدي ثم انثري السمن على ابنك مع هذه الورقة. ثم خذي الأقسام الأخرى واحرقيها مع مية البخور من ورق الاصطرك (شجرة اللبني) وادهني بها جسم الولد». راح الشيخ مصري يطوي الورق الممزق طية واحدة، ورسم على كل وجه منها نجمة نحاسية، وقال لها: «يضع الولد هذه اللفة في طاقيته. ثم تعالي به إلى هنا، حتى أستطيع أن أتابع الموضوع. هذا مرض صعب، وهاتي فلوس».

السحر والمحن

كثيرٌ من الرقى القديمة تعمل عملها بشكل مستقل، دون عون من الأرواح.

فإذا أقدم غراب أو حدأة من تلك الحدآت التي تجول الفضاء فوق القرية على سرقة حمامة، فإن الواجب يحتم إلقاء القبض على هذا اللص وتثبيته بالمسامير بشكل يراه الجميع على سقف أو جدار في البيت لتخويف أي طائر أو كائن تحدثه نفسه بالسطو في المستقبل.

والتأثير السحري لما سنتلوه عليكم مضمون: إذا تم اكتشاف سرقة شيء ما، وشك صاحب الشيء في لص معين، فإنك تشتري قربة جديدة، وتذكر اسم اللص المفترض مع أسماء أبيه وأمه، ثم تنفخ في القربة، وتربطها ربطة بحيث تغلقها إغلاقًا محكمًا. ثم تذهب إلى هذا اللص الذي تشك فيه. فإن كان هو اللص، فسوف ترى أن جسمه كله ينتفخ. فتقول له: «أعد الحاجات التي سرقتها»، وربما يجيبك: «لم أسرق شيئًا». عندئذٍ تعود لتنفخ القربة من جديد وتزيد في النفخ. ثم تعود إلى اللص وتقول له: «أعد الحاجات التي سرقتها». فإذا أعطاك الأشياء التي سرقها، تفرغ القربة من الهواء فيستيعد اللص صحته مرة أخرى. فإذا أصر على الكذب، ما عليك إلا أن تضرب القربة المنفوخة بالعصي. فإذا استمر في الكذب قل له: «سوف تموت، سلم الأشياء التي سرقتها». فإذا لم ينفع كل ذلك، فإنك تضع سكينًا في القربة فيموت اللص في الحال. فإذا ظهر أن شكك لم يكن في محله، فإن الرقية السحرية لن تعمل. وهنا تعرف أنه لم يكن المذنب.

وشكل آخر من أشكال التحقيق في السرقات في الواقع يكون نوع من أنواع المحن. ففي قرية «القلعة» القريبة كان يعيش رجل عجوز اسمه حسن. تستطيع أن تلجأ إليه إذا كنت تريد أن تتعرف على اللص. عندئذٍ يمشي حسن في الربع الذي حدثت فيه السرقة، وحيث يمكن البحث عن اللص. يمشي حسن الهوينى ويغني ببعض الأقوال التي لم أعرف معناها رغم أني حاولت، ثم يستدعي جميع المشبته فيهم، ويطلب منهم الاجتماع بهم في اليوم التالي في وقت معين يحدده هو. ثم يسخن بلطة فلاحي معتبرة حتى تحمر من شدة النار، ثم يدعو كل واحد من المشتبه فيهم ليلحس البلطة الساخنة إذا كان بريئًا. وهو يؤكد لهم أن الحرارة لن تؤذي البريء. والذي يرفض هو اللص.

التعاويذ السحرية والاعتقاد في الأرواح يجتمع في المحنة التالية التي سنرويها لكم، حدثني بها سنوسي العجوز. هناك كتاب يضم جميع العلاجات في العالم مدونة ومكتوبة. والكتاب يسمونه «البخاري». فإذا اتُهم عدد كبير من الناس بارتكاب عمل شرير، فإنه يُطلب منهم الواحد تلو الآخر أن يضعوا أيديهم على البخاري، ويحلفوا، على سبيل المثال في حالة السرقة يقول: «لم أسرق كذا، أو لم آخذ كذا». فإذا حلف أحدهم يمينًا كذبًا على البخاري، فإنه لن يكمل عامه هذا إلا ويكون في القبر، فالبخاري لن يتركه». الأعجب من ذلك أن زوجته وأبناءه يموتون الواحد تلو الآخر؛ فالبخاري يجتث العائلة كلها.

الطب الشعبي

عادة ما يحتفظ الفلاح ببعض الأدوية التي يستطب بها في البيت. إنه يشتريها من السوق أو من البائع المتجول؛ فالدكاكين قليلة في القرية، والشارون والبائعون يطوفون من قرية إلى قرية، وصيحاتهم في الشوارع جزء من موسيقى كل يوم، إلى جانب أصوات رجال ونساء وخاصة أطفال، وإلى جانب نباح الكلاب، ونقنقة الدجاج وخوار البقر وكركرة الجِمال الغاضبة، ونهيق الحمار البغيض، وصرير الساقية. إنه يسير عبر الأزقة ويغني بصوت عالٍ: «الكراوية والشمر والكسبرة والشيح في البيت المليح».

والكراوية التي يثني عليها نوعان، الكراوية البيضاء التي هي من توابل المطبخ، والكراوية السوداء التي تحمي من جميع أنواع السحر والشعوذة. فإذا تعرض طفل مثلاً لعين حسود، أو مسه جن، فإن الكراوية السوداء تُطحن فيما يقال له «الهون»، ويُخلط المسحوق بالسمن النقي، ويُمسح به على جسم

الطفل. فإذا تعرض رجل لتهديد من هذا السحر، يضع بعضًا من الكراوية السوداء على رأسه ويغطيها تمامًا، بينما تقوم المرأة التي تتعرض لمضايقة الجن والأرواح بربط الكراوية السوداء في خصلات شعرها.

وأما الشمر فيُستخدم لعلاج السعال، ولكنه يُستخدم أيضًا لعلاج تقلصات المعدة وآلام المفاصل. فما عليك إلا أن تعد المزيج وتشربه.

و«الكوسبرة» تُستخدم في عمل البخور، فإذا مرض شخص، فإنه يبحث عن «الكوسبرة» ويحرق قرص «الجلة» الناشف، وهو المادة الموجودة في البيت القابلة للاحتراق. وعندما تشتعل فيها النار، يبدأ هذا الشخص في رش «الكوسبرة» عليها، ويجثم فوقها.

والشيح، يرش منه الفلاح أمام البيت ليطرد الحشرات والهوام.

والليمون، معروف أيضًا بقدرته على العلاج، ويفيد في التعامل مع جميع الأمراض. ويُستخدم أيضًا في «تبريد الدم»، ولذا لا يتناوله الرجال وهم مقدمون إلى زوجاتهم ليلاً.

وبائع متجول آخر يحمل دواءً لجميع أمراض الصدر، وينادي على البنات «الفايح يا بنات الكوحل يا بنات الصابون يا بنات الفلفل يا بنات الزنجار يا بنات الفلالي يا بنات المستكا يا ينات المحلب يا بنات القرنفل يا بنات».

والبائع المتجول يضغط على المقطع الثاني مما يُظهر البنات «بنوت». وكثير من نداءات البائعين المتجولين يطولون في المقاطع بهذا الشكل، وفي أحيان كثيرة تتحول الألف إلى واو.

تلك الروائع التي يعلن عنها الصيدلي المتجول تعالج ولكنها تعالج بشكل جزئي.

الفايح عطر على شكل مسحوق. تمزجه النساء في سمن بلدي وترشه على أجسادها. ويرشه الرجال على أي ملابس يرتدونها.

الكوحل مسحوق مشهور من الأنتيمون، أفضل شيء للعيون. يضعونه على الحواجب. ويُستخدم أيضًا بدل «المكياج».

والصابون معروف، والفلفل يقصد به الفلفل الحار.

الزنجار يُستخدم للعينين. خاصة عندما يكون الطفل يعاني من صديد في عينيه، فإن العينين يُدهنان به، فإذا كان الصديد في الأذنين، بعض القطرات تُوضع في الأذن - «إنها تقتل الديدان»، ومثل تلك الالتهابات يُقال إن الديدان هي التي تسببها. وأحيانًا تأتي امرأة إلى السوق وتدهن عيون الأطفال بكف يدها، وهنا تسقط الديدان كما تتساقط حبات المطر. ولسوء الحظ لم يحدث أن ظفرت برؤية هذه السيدة.

الفلاية (جمعها فلالي) هي المشط الخشبي الذي يُستخدم في الغالب لإزالة القمل من الشعر.

المستكة تُستخدم أيضًا للبخور وبه يمكن أن تجعل رائحة الحجرة طيبة.

المحلب أو الكرز البري (كرز القديسة لوسي) يُقال إن من ثمار شجرة أجنبية ومنه يمكن للفلاح أن يستفيد من أغصانها في استخدامها كعصا قوية جدًا (شومة)، بذورها يمكن أن تطحن في «الهون» وتضاف إلى خبيز الجمعة،

وتستخدمه النساء أيضًا كمسحوق، يضعنه في سمن مصفى، كدهان للجسم. إنهن أيضًا يمضغن بذور المحلب. وأحيانًا يدهن أجسادهن ووجوههن بعصير اللعاب كنوع من العطر. وكان سنوسي العجوز الذي يروي هذه الحكايات يضع يده تحت إبطه.

القرنفل نوع من التوابل المعروف بفائدته كمعطر وأشياء أخرى.

وعلاج آخر يمكنك أن تلتسمه عند الاختصاصي: فإذا أُصِبت بمزقة تحت جلدك، عليك أن تمسح المنطقة بقطعة قطن ودهن ثعبان. بذلك يبدأ المزق في التعافي في ظرف يومين أو ثلاثة أيام. وهناك رجل من الجيران يُقال لـه «دفادف» يحتفظ بدهن الثعابين هذا على الدوام. فهو يسلخ الثعابين الميتة ويزيل دهنها ويبيعه بأثمان عالية.

فإذا أُصِيب حمارٌ بجرح من ثقل الأحمال التي يحملها، فإنك تحرق نعل جزمة قديمة وتنشر الرماد الناتج على الجرح. هنالك يشفى الحمار من جرحه في بحر أسبوع.

والفلاح بائس قليل الحيلة في التعامل مع عضات الثعابين ولسعات العقارب، ولكن هناك ناس لديهم القدرة على التعامل، ويساعدون. منهم الحاج إبراهيم الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب. ولكن الثعابين والعقارب تنصاع له. فإذا وُجدت حية في أي مكان في منزل ما أو حتى في مرتبة مصنوعة من القش، مثلاً، أو حتى هناك شك في وجود حية هناك، فإن الناس ينادون على إبراهيم. فيأتي إبراهيم ويصفر ويهز رأسه يمينًا وشمالاً وفي كل اتجاه، ثم يقول: «تعالى». وهنا يأتي إليه الثعبان، ويأخذه.

وأما بالنسبة للعقرب فإنه لا يصفر؛ وإنما يومئ له بإصبعه وينادي عليه: «تعالى». وهنا يسرع العقرب. وإبراهيم لا يؤذي الحيوانات - وهو يغذي الثعبان بالبيض حسب قدرته. فإذا امتلأت زكيبته بمثل هذه المخلوقات، فإنه يسافر بها إلى القاهرة، ويسلمها لحديقة الحيوانات. وآخرون يقولون إنه يطلقها في الصحراء. ذات مرة استقل القطار إلى القاهرة ومعه الزكيبة. وجاء الكمساري، لم يكن مع إبراهيم تذكرة. وأمره الكمساري أن ينزل من القطار. وهنا فتح إبراهيم الزكيبة المليئة بالمخلوقات السامة، وراحت العقارب والحيات تزحف في كل مكان في العربات. وهنا طلب منه الكمساري والركاب الآخرون أن يغلق الزكيبة عليهم مرة أخرى، وبذلك أكمل إبراهيم رحلته دون تذكرة. كانت أمه متضايقة لأنه كان دائمًا يحضر هذه المخلوقات السامة إلى البيت. وفي إحدى المرات أحضر عقربًا ضخمًا، وراحت توبخه لذلك. وهنا أخبر إبراهيم أمه قائلاً: «اليوم سوف يلسعك هذا العقرب». ثم خرج، وسرعان ما جرى الناس في إثره ليقولوا له: «العقرب لسع أمك يا إبراهيم». وراحت أمه تصرخ وتولول من شدة الألم. قام إبراهيم بمسح الجرح بيده، واختفى الألم. ومنذ ذلك الحين لم تنبس أمه ببنت شفة فيما يخص العقارب والحيات. بعضهم يقول إن الحاج إبراهيم لديه نفحة بركة من الله؛ وآخرون يقولون إنه يعلم أسماء العفاريت الذين يساعدونه. وإبراهيم خير من يُستدعى أيضًا عندما تبلع جاموسة أو بقرة شوكة أو ما شابه، وتلتصق بحنجرتها. يمضي إبراهيم إليها ويمسح على الموضع المصاب ويستخرج الشوكة.

المشايخ: الشيخ المقدس والشيخ المتوفى

المشايخ وتقديس المشايخ له مساحة كبيرة ومهمة جدًا في الدين الشعبي في صعيد مصر. نريد هنا أن ندرس استخدمات كلمة «شيخ» وجمعها مشايخ، حسبما يتطلب هذا البحث. الترجمة الأقرب هنا هو الرجل الفخم أو المبجل أو الموقر.

١- أولاً كلمة الشيخ صيغة يستخدمها البدو لإطلاقها على الرجل الموقر وهو الرجل الكبير في قومه، أو حتى عند البدو المستقرين في الأرض، وحتى الرجل الذي أصبح فلاحًا مدة طويلة جدًا وهو من أصول بدوية.

٢- والشيخ لقب يُمنح لشخص يختاره الناس كبيرهم في قرية صغيرة من القرى، أو حتى في نجع من نجوع القرية، وهو أقل مرتبة من العمدة. وطبعًا يمكن لرئيس أية جماعة من البدو القاطنين على تخوم الصحراء أن يُلقب بالشيخ.

٣- وكلمة الشيخ يمكن أن تُستخدم للسخرية بوصفها صيغة تعبر عن الغضب عن مخاطبة شخص ما. على سبيل المثال يمكن لأب أن يخاطب ابنه بـ «روح يا شيخ»، وهو يعني بها «اغرب عن وجهي». وفي المثال الذي ذكرناه عن اللقاء مع الكلب العفريت، سمعنا سنوسي يستخدم نفس التعبير ليصرف الكلب العفريت الذي ظهر لـه.

٤- الشيخ أيضًا لقب يُمنح لرجل عالم بالقرآن الكريم والحديث الشريف، وحتى لأي شخص يعرف القراءة والكتابة، ربما معرفة متواضعة.

٥- وكلمة شيخ تشير إلى الأتقياء من الناس الذين خدموا الإسلام، من الرجال البارزين الذين لديهم قدرات خاصة في العهود المنصرمة. وبين هؤلاء بالأخص أولئك الذين أسسوا لطريقة صوفية أو لفرع لطريقة صوفية.

٦- وكلمة الشيخ يمكن أن تعني احيانًا المختبل أو الطائش، وأن طيشه بسبب علاقته بالله، وهو المجذوب، وللمجذوب حالات، يمكن أن يكون صاحب وقار متجرد، وقدرة على التنبؤ بالأحداث الآتية، وصاحب دعوات مستجابة، أو مجرد لقب يشير إلى أن أولئك الذين لا يوقرون المجذوبين ربما يواجهون صعوبات في حياتهم، أو حوادث تضرهم.

٧- الناس يطلقون لقب الشيخ عندما يريدون تمييز أنفسهم بقوة خاصة، على سبيل المثال، الحواة أو السحرة يلقبون أنفسهم بالمشايخ.

٨- ومعروف أن المرأة أو الرجل الذي يلبسه / يلبسها عفريت لشخص ميت، يصبح / تصبح من الممسوسين. فإذا أعلن العفريت عن نفسه بهذه الطريقة فإن الناس يُطلقون عليه لقب شيخ.

٩- والشيخ لقب يُطلق على الرجل (المرأة شيخة) الذي يظهر فيه الشبح، أو الذي يلبسه الجن.

١٠- والشيخ أخيرًا يشير إلى القبر المدفون فيه شخص من الأولياء الصالحين، عالم أو شخص ولي كان ممسوسًا في الماضي.

من هنا نستطيع أن نميز بين الشيخ المتدين والشيخ المشكوك في أمره، ونحن هنا نركز على المتدينين، أولياء الله.

والمشايخ - بدءًا من العلماء الدينيين إلى متصوفة الماضي ووصولاً إلى مشايخ القرية أهل الله المجذوبين - يبدون كأنهم من أهل الحدود بين العالم الضيق الأفق، عالم الحياة اليومية المليئ بالمتاعب، إلى عالم الحزن والحاجات واللامرئي المتصل بالله والأشباح والأرواح.

والفلاح يوقر المجذوبين، الذين يجلبون البركة على الدوام. وهو يقدم لهم واجب الضيافة ويسمح لهم بالنوم في منزله، ويرجو بذلك رضى الله ومغفرته، ويرجو أيضًا أن يظفر بالبركات والنفحات. والفلاح يرتجف خوفًا عندما يظهر الشبح على الشخص الممسوس، ويحاول تهدئته وخطب وده، وهو يفعل ذلك في الأغلب من خلال بناء قبر كبير أو مقام للشخص الممسوس الذي كشف عنه الحجاب. وتلك المقامات تصبح من ثم نقاط مركزية في الحياة الدينية للقرية. لقد أظهر هذا الشبح قوته الروحية من خلال ظهوره المباشر. مثل ذلك الشبح يُظهر قوته من ظهوره. والفلاح يقدم الوعود وينذر النذور عند قبره، ليفي بها عند مقامه، وهو المكان الذي تُستوفى عنده النذور، وتُقدم القرابين. وتتكرر الحوادث، ويستدعيه المرض إلى ضريح الشيخ ومقامه. فالمرض من الله، ولكن ليس غريبًا أن يكون من الله عبر شيخ من الشيوخ، ولذا فأفضل طريقة للتعامل معه هي اللجوء إلى شيخ من أولئك القريبين من الله، والذين يستمدون قوتهم من الله تعالى.

بعض أرواح الميتين أو أشباحهم أكثر شهرة من آخرين مثلهم، ولذا تجد الناس يأتون من مسافات بعيدة جدًا بحثًا عن البركات المحيطة بالمكان. ولكن في بعض الأحيان يحدث أن يفقد المكان رونقه وجاذبيته، بينما تزدهر مقامات مشايخ آخرين، ويتسع مدى قوتهم. هنا تصبح أضرحة الآفلين كأنها

الأطلال المنهدمة، ولا يهتم الناس به اهتمامهم في السنين الخوالي، حين كان المكان محط الآمال والطموحات، وغاية الحاجات والالتماسات، وحين كانت القرابين تُجلب، وما نُذِر من أضحيات يُذبح. ومن بين تلك الأمكنة العبادية على اختلافها، يبرز عددٌ قليل من الأضرحة من الزمن الغابر، سواء كان أصلها روح كشفت عن نفسها ومواطن قوتها وأسرار ديمومتها، أو أنه المحطة الأخيرة لرجل من الأولياء الصالحين من الماضي الأسطوري لم يكشف عن نفسه من خلال وسيط. ومعروف أن أولياء الله الصالحين لا يكشفون أنفسهم من خلال النزول في شيخ أو السكن فيه، لأنهم نجوا بأنفسهم بالفعل من سخافات البشر، وعوالم الدنيا المادية – فهم في معية الله في حلهم وترحالهم. وفي تلك الأمكنة المعلومة تُشيد المساجد وتُقام المدارس. والناس يؤوون إليهم لإقامة جلسات الذكر، وهي طقوس احتفالية، يذكر فيها الناس الله ذكرًا كثيرًا، ويسعون إلى تسليم الإرادة لـه، وعقاب البدن بترك كل ما يتعلق بالدنيا وراء ظهورهم، بغية النزول إلى مقام العبودية، والوصول إلى مقام الألوهية – الله.

لقد نُسجت الأساطير حول كثير من أولئك الأولياء الصالحين، خاصة أكثرهم شهرة وعظمة ونبلاً، ظلوا أحياء في الذاكرة الشعبية. لنتوفر الآن على الوقوف على الأنواع المختلفة للمشايخ، ونسمع رواياتهم وقصصهم، وما أتوا به من صنوف المعجزات وضروب الكرامات.

ولنبدأ بالمجذوبين، أو من يسمونهم بالمخابيل، أو مضطربي الأحوال، وهم ضرب من المشايخ أيضًا. وهم لا يُمنحون هذا اللقب إلا بعد أن تتجلى لهم كرامة أو تظهر لهم علامة. ومن تلك الكرامات أن يضربهم شخص ما

فتتورم يده في الحال، أو عند موت المجذوب يرى الناس نورًا ساطعًا في مكان دفنه أو عند قبره. وفي «كيمان» ظهر اثنان من أولئك المخابيل، ولكن الناس لم يعتبروهما من المشايخ. فقد كان أحدهما في صحة جيدة، ومتزوجًا ولديه أبناء. وبعد ذلك أصبح مخبولاً، فأصبح لم يصلح لأي شيء. واضطرت أمه إلى القيام بكل شيء يخصه، تطعمه، وتنظف أنفه، فقد كانت أنفه تسيل على الدوام، ويسقط اللعاب من فمه. وبقي على تلك الحال عشرة أعوام كاملة. حتى تمنى الناس موته. والمخبول الآخر يُدعى «قدامة». وكان اسمه الحقيقي شحات. كان أبوه سجانًا أو حارسًا من حراس السجن، وكان يتولى تعذيب المساجين. في تلك الأيام لم يكن المسجونون يُقيدون بالسلاسل، وإنما كانوا يُوضعون في آلات التعذيب. وكان صاحبنا يشد قيودهم في تلك الآلات، فإن منحوه مالاً كان يخفف عنهم. وكان العاجز عن الدفع يلقى العذاب الذي يريده السجان. والناس يقولون إن ما حدث لابنه نتيجة دعاء المساجين عليه. ولقد رأيت هذا الولد بنفسي. كان يطوف القرية يتسول من الناس. يقول الناس عنه إنه الطفل المبدول، أي الذي استُبدل به غيره، أو الوحش في ثياب طفل في الخمسين من عمره. وجهه مخيف بغيض، أقرب إلى وجوه الشياطين، فيه من القبح ما لا تطيقه الأعين، وصوته يلقي الرعب في القلوب، صوت جاف شديد الحدة. وبطبيعة الحال لم يكن ذلك الرجل من الشيوخ.

وأما المجذوب متولي فهو من فئة المشايخ. كان ضخم الجثة بشارب رمادي. وكان ينادي على الجميع باسم «محمد». وكانت له نظرات خاصة نافذة مفعمة بالمرح وشيء من الألم في آن، وهو يحدق في عيون الناس

مباشرة. فإن أنت قدمت له بضعة قروش، فلن يقبل إلا العملات المعدنية المخرومة من فئة المليم والمليمين والخمس مليمات، وحتى هذه العملات أحيانًا يكون فيها من الزاهدين.

والشيخ متولي لديه القدرة على التنبؤ، فيمكن أن ينبئ شخصًا ما متى يموت، ثم يظل يطوف حول منزل الشخص الذي قال إنه سوف يتوفى. فإذا سألته: «ماذا تفعل هنا، وماذا تريد؟» فإنه يجيبك بشيء من النعومة والهمس: «إن فلانًا بن فلان سوف يموت قريبًا». ثم لا يمضي وقت طويل حتى تسمع صرخات النسوة على الميت تنتشر في فضاء القرية. ويحمل متولي «الكَرَب» الثقيل من القرافة الموجودة عند حافة الصحراء ذلك الطريق الطويل من هناك إلى القرية وحده على كتفيه، ولن يسمح لأي شخص أن يساعده في ذلك. هذا الشيخ متولي شُوهِد في السويس والمدينة المنورة، رغم أنه لم يغادر مدينة «قفط» ولا جوارها قط.

وفتاة في حوالي العشرين من العمر اسمها فاطمة، تجلس قريبًا من الطريق المفضي إلى السوق في «قفط». الفتاة عرجاء، ساقاها ليس فيهما عضلات تقريبًا. وفي جو الصباح البارد حملها أحدهم وأخرجها من مسكنها البائس، حيث كانت تعيش مع أمها الكفيفة، ووضعها في الشمس. وعندما اعتلت السماء كبد السماء وبدأت ترسل أشعتها الحارقة، حمل الشخص الفتاة إلى الظل. كانت خفيفة العقل، على باب الله. كان شعرها مقصوصًا، من الذي قصه؟ ولماذا؟ ليبقى نظيفًا؟! كانت قليلة الكلام ولسانها ثقيل، كانت مبتهجة دائمًا، وتنشر الابتسامات بشيء من اليسر، فعدّوها علامة على حصول البركة. كان الناس يحبونها، و يترددون إليها بسبب هذه البركة،

ولكنهم كانوا أيضًا يخشون إغضابها، أو التسبب في إزعاجها، فربما يؤدي ذلك إلى حصول مرض. وكلما تقدمت في العمر، زادت بركاتها. دعواتها كانت نافذة، وكثيرٌ من الذاهبين إلى السوق أو العائدين منه كانوا يعطونها الهدايا البسيطة ويقولون لها: «ادعِ لنا». وقد استمر ضابط كلما مر من هناك أيام السوق يعطيها عملة فضية ويطلب منها الدعاء. ولقد رآها مرتين في أحلامه ومنذ ذلك الحين أصبح يؤمن في بركاتها. ولقد راقبتها بنفسي. كانت عيناها الواسعتان تحتفظان بجمال لا يُقاوم، جمال غير عادي، فيهما تشعر أن الفتاة مرت بتجربة فريدة من نوعها، تجربة لا تصدق، والتجربة ظلت حاضرة في أعماق روحها.

وشيخة أخرى اسمها الشيخة «لبيبة» في كيمان. كانت أيضًا من فئة المخبولين أو المخبولات. كانت تجلس في بيت أبيها ميسورالحال. فإذا خرج أبوها لبعض شأنه، وهو رجل أعمال، كان يقول لها: «ادعي لي يا لبيبة»، وكانت لبيبة تدعو له، وكان يُوفق في عمله.

وحدثني رجلٌ متقدم جدًا في السن في «كيمان» عن اثنين من المجذوبين في الأزمنة الغابرة. أحدهما كان يُدعى «خليل» من عائلة «البوابة». وكانت فيه عادة أن يبسط ذراعيه في الهواء ويبتسم كثيرًا. وكان يلعن العشيرة التي منها جاء بقوله: «في داهية يا بوابة». والواقع لم يبق من هذه العائلة عددٌ كبير، أغلبهم مات. والله استجاب لدعوات خليل. وكان معاصرًا لخليل مجذوب آخر اسمه «سليم». وكان سليم هذا ضخم الجثة، لحيمًا إلى أبعد حد، وكان يطوف القرية عاريًا تمامًا. وكان يحيي زميله المجذوب الآخر بقوله «السلطان خليل».

وكان العجوز سنوسي يروي قصصًا عن مجذوبين آخرين. الشيخ أحمد محمود كان يعيش منذ سنوات قلائل في «كيمان». ثم ترك «كيمان» وهام على وجهه في الدنيا الواسعة. وقد رزقه الله من القوة ذروتها، ولكنه لم يكن يحسن الكلام، فكان يقول مثلا: «هات نحمة» بدلاً من «هات لحمة». فإذا أعطيته اللحمة نيئة يأكلها نيئة. وأحيانًا كان يذهب إلى بعض الناس ويقول لهم: «اعطوني عيش قمح»، فإذا قال له أحدهم «ليس عندنا عيش»، بينما الحقيقة أن عندهم عيش ولو رغيف واحد، فإنه يدخل مباشرة إلى البيت، ويجد مكان الرغيف بالضبط، ويأكل جزءًا منه. وعندما كان الأطفال يضايقونه، كان يرميهم بقطعٍ كبيرة من الطين، حتى يتركونه في حاله. وفي الليل كان أحيانًا يتسلق بعض جدران سور البيت الشاهقة الضيقة بخطى واثقة وأيضًا بالمقلوب، وكان الناس يمسكون أنفسهم من شدة الذعر. كان الجميع يقولون إنه سوف يسقط ولكنه لم يكن يسقط أبدًا. وذات يوم سقط في جوف بئر ساقية، وظن الناس أنه قد مات، ولكنهم سمعوه وهو يقول: «ساعدوني أخرجوني». لم يكن ذلك يؤذيه على الإطلاق. وفي القرافة بالقرب من قبر الشيخ «آده» رأى مرة ثعبانًا يزحف نحو الحفرة. جلس الغلام القرفصاء يومين أمام الحفرة يريد أن يمسك بالثعبان. وظهر الثعبان فعلاً بعد يومين، وأمسك الغلام به بكلتا يديه. ولكن الثعبان عضه في خده، ولكنه أخذ قضمة من الثعبان وأكلها، ومات الثعبان، ولكن عضة الثعبان لم تؤذِ الغلام. ولذلك استحق لقب الشيخ. وشُوهد الشيخ أحمد يوم الجمعة في «كيمان» يصلي في المسجد، ولكن في نفس الوقت شاهده رجلٌ آخر في مدينة «قوص». وشاهده شخص ثالث في مكة المكرمة، رغم أنه لم يبرح «كيمان».

ورأى سنوسي رجل كرامات آخر منذ عقدين في «كيمان»، واستضافه في منزله لبضعة أيام. وكان رجلاً أسمر البشرة وشعره رمادي. قال لسنوسي إنه قادم من السودان وكان يسافر في كل مكان. كان يمسك في يده عكازًا من جريد النخل، وقد ثبت على حافتيه حوافر حمار. كان يقول إنه بهذا العكاز يقيس العالم. وقال له حرفيًا: «لقد قست العالم بالفعل ووجدت أن عرضه بالضبط مثل طوله». وكان يهتف بين الفترة والفترة «ليهـــا .. هـــا». وكان يأكل الحصى، وكان يضرب على بطنه بقوة حتى أنك كنت تسمع الحصى وهو يصلصل داخل معدته.

يلعب مثل أولئك المجذوبون المقدسون دورًا صغيرًا في الحياة الدينية التي يحياها الفلاحون طوال حياتهم. فإذا بلغ واحد منهم شهرة واسعة، فإن ضربًا من العبادة أو المذهب يظهر في المكان الذي دُفن فيه، أي عند قبره. وغالبًا ما يظهر مثل هذا الاعتقاد عندما يتحدث الشخص الميت، سواء كان مجذوبًا في حياته أم لم يكن، من العالم الآخر إلى الأحياء. مثل أولئك الأشباح يكشفون عن أنفسهم من خلال دخولهم في شخص حي، وحينئذٍ يعلنون عن رغباتهم وأخبارهم من خلال فم هذا الشخص الحي.

ومن أولئك المجاذيب الذين عاشوا في عهود أقرب يُذكر الشيخ «علي» في نجع الحجيري. عاش الشيخ علي منذ جيلين أي منذ خمسين عامًا تقريبًا، وكان من المجاذيب، كان يدمدم ويهمهم بجميع أنواع الأصوات التي خلقها الله. كان متزوجًا ولكن لم يُرزق بالذرية. كان جالسًا ذات يوم تحت نخلة، ثم وهو جالس قذف بحجر كبير إلى حيث البلح مما أسقط الكثير من الرطب؛ وكانت تلك من الأعاجيب، فلم يحدث أن رمى أحد بحجر وهو وجالس

ليُسقط بلحًا من نخلة عالية، وحتى وهو واقف. مات الرجل شابًا في أثناء وباء ضرب البلاد وتسبب في موت الكثيرين. والشيخ علي ما يزال موضع احترام أهل قريته.

وشيخ آخر أكثر شهرة هو الشيخ سليم من قرية «الهُو» التي تقع شمال قنا عند انحناءة حادة على النيل. يقول سنوسي العجوز إنه رأى «سليمًا» هذا مرة، عندما كان يمشي في «كيمان». كان من المجاذيب أيضًا وثقيل اللسان، وكان يدمدم وهو يضحك. كان لحيمًا إلى أبعد حد - كان فخذاه ضخمين لدرجة أنه كان يمشي بساقين مفلطحين. وكان يطوف القرية عاريًا دائمًا. وذات يوم ألقى رجل مسيحي عليه بثوب - أو رداء من تلك التي تلبسه النساء. عندئذٍ راح يصرخ: «النار، النار»، إلى أن تحرر من الرداء. وكان لسليم ذاك أخوان يتمتعان بصحة عقلية سليمة. وعندما مات أبوهم بدأوا في تقسيم الميراث وبدأ الشجار بينهما. فقال الأخ الأكبر: «الميراث كل قسم والشيخ سليم القسم الآخر. أنت تأخذ الشيخ سليم». ولم يشترك معهما سليم في التقسيم منذ البداية، فلم يكن يفهم شيئًا عن الميراث وقيمته وأسعاره. ولكنه سألهما: «هل انتهيتما من التقسيم؟» فأجابا: «لقد انتهينا». وقال الأخ الأصغر «لقد اخترتك نصيبي في الميراث». فراح الشيخ يهمهم مثل الثور. وأجاب الأخ الأصغر بقوله: «آثرت الظفر ببركتك، وهذا يكفيني». وتمر الأيام والسنون، ويصبح الأخ الأصغر بفضل تلك البركة أفضل حالاً من الأخ الأكبر الذي استحوذ على الميراث كله. وقبر سليم اليوم معروف في قرية «الهُو». فعندما يمر عليه المراكبية فإنهم يقرأون الفاتحة للشيخ سليم، لعلهم يظفرون ببركته. ويُقال إن المقام يأوي الكثير من القطط.

ومنذ أعوام قليلة كان يعيش في «قفط» صياد اسمه «أمين» من عائلة «النصراب». وذات ليلة ذهب مع صيادين آخرين عند فتحة هويس للصيد دون أخذ إذن حارس البوابة. وبعد أن ألقى الصيادون شباكهم في المياه، أتى حارس البوابة بسيارته بكل هدوء دون أن يضيء مصابيح السيارة. وعندما اقترب فتح نور السيارة الأمامي. عندئذٍ قفز الصيادون وهربوا. ولكن أمين سقط في المياه وغرق. وحمل التيار جثته إلى مكان قريب من قبلي مسجد «كيمان». راحت أمه تصرخ دون أن يأبه بها أحد. وتورمت عيناها والتهبتا. ولذا أقدم الناس على ترتيب حفلة زار ورقية لها، وتزينت بالذهب والفضة، ولكنها كانت خالية من أي زار. ثم إنها ذهبت إلى سيدة ملبوسة، كان قد لبسها عفريت يظهر عليها في أوقات معينة، وكان يتحدث من خلالها، وكان يتنبأ بالغيب. وعندما ذهبت لها أم أمين، ظهرت روح ابنها نفسه في المنتصف، وقال: «لا تبكي عليّ كثيرًا، فإني أتعب كثيرًا عندما تبكين يا أمي. ولقد أرسلت إليك بالالتهاب حتى لا تبكين مرة أخرى من أجلي. فإن واصلتِ البكاء عليّ فسوف أسبب لك العمى». عندئذٍ عادت المرأة إلى منزلها وتوقفت عن البكاء. وسرعان ما مرض أخٌ أمين، وذهبوا مرة أخرى إلى المرأة الملبوسة وظهرت لهم الروح تطلب أن يُبنى له قبة، مقام له قبة محاط بسور، في القرافة الكبيرة. وتم له ما أراد، وشُفي الأخ.

وفي أثناء فيضان النيل منذ عقدين من الزمان، غرق صبي في الثانية عشرة من عمره يُسمى محمود من «كيمان». وبعد هذه الحادثة سقط الأب مريضًا طريح الفراش. وذهب إلى شخص ملبوس من أحد الشيوخ. وأيضًا ظهرت روح الصبي من خلال الوسيط، وطلب من الأب طلبات، طلب منه أن يُبنى

له مقام محاط بسور، وأن يُوضع فيه تابوت [1]، ثم بعد ذلك سوف يشفى (الأب). وقد نفذ الأب أوامر الصبي وشفي في الحال.

وطفل آخر أيضًا من «كيمان» أظهر نفسه من عالم الموتى وأصبح «شيخًا». وكان معروفًا باسم الشيخ «جهلان» أو «الشيخ الصغير». لقد مرض هذا الصبي عندما كان في السابعة من عمره، واستمر مرضه تسعة وعشرين يومًا. أشار بعض الناس على أهله أن يعطوا الطفل كأسًا من الخمر. وفعلاً ذهبوا لجلب كأس من الخمر من أحد الأقباط، وشربه الطفل وما لبث أن مات. وعند مرور ذكراه بنى الأب له شيئًا يشبه الدوار الصغير، ولكن ما لبث أن مرض الأب أيضًا، وعجز عن التحكم في بوله. وبحث عن امرأة في «قفط» كان قد لبسها شيخ. فقد لبس شبح الصبي نفسه هذه المرأة وأمر الأب أن يبني له مقامًا جميلاً لـه قبة يراها الناس من مسافة بعيدة، وأشار إلى المكان الذي يريد أن يُبنى له المقام فيه. وعندما بُني المقام استعاد الأب صحته. ولكن سرعان مرض أخُ الصبي، وعادوا إلى المرأة الممسوسة بالشيخ. ونزلت روح الصبي مرة أخرى وطلبت تابوتًا في القبر يُغطى بقماش جميل. وفي أيام الأعياد عندما كانت تلك التوابيت يُحتفل بها في المواكب، كانت تابوته موضع الاحترام، وجزءًا من الاحتفال أيضًا. وإذا لم تُلبَ تلك الرغبات فإن صحة الأخ لن تتحسن أبدًا. ولقد تم لـه ما أراد، وتحسنت صحة الأخ فعلاً.

والأضرحة التي تنشأ بهذه الطريقة أضرحة عائلية؛ والغرباء يكون لهم دور صغير. ولكن في كل قرية يوجد أولياء الله الصالحين من عهود أقدم،

---

(١) والتابوت صندوق خشبي يغطي القبر داخل الهيكل التذكاري، أو يمثل قبرًا موجودًا في مكان آخر (انظر ص ٩). ويرتفع التابوت إلى حتى صدر الإنسان، وغالبًا ما يكون مزينًا أو مزخرفًا، ويكون محط الاهتمام بالنذور والقرابين.

ولا يوجد تاريخ ينبئنا متى جاؤا وكيف أصبحوا. فإذا حظي الضريح بالحب والتوقير وكثر زواره الطائفون به، فإن أساطير الكرامات والقوة السحرية تنشأ حول الولي وحول المكان الذي فيه استقر جثمانه.

وفي مدينة أبنود القريبة يوقر الناس الشيخ غزالي توقيرًا كبيرًا، وللشيخ غزالي مقام جميل لـه قبة في السوق. لم يكن يتسامح مع الكذب. فإذا سُرق شيئًا فإن الضحية يقول للسارق أو للشخص المتهم بالسرقة «تعالى عند الشيخ غزالي». وذات يوم في داخل المقام كان على المشتبه به أن يقول إنه لم يرتكب جريمة السرقة. ثم جاء الضحية والشيخ «إده أو «عويضه من نجع الحجيري والمشتبه به وكان آخرون حاضرين يقرأون الفاتحة. فإذا كذب المشتبه به، فإن الشيخ غزالي سوف يسبب له المرض وفي النهاية يموت. فإذا أقسم المشتبه به كذبًا ثم بعد ذلك ندم، فإن عليه أن يعيد الشيء المسروق، ويغسل جسمه باللبن، ثم يذهب إلى الضريح ويطلب من الشيخ العفو.

وفي الضريح المقدس للشيخ يوسف في كيمان لا يستطيع المجرم الدخول؛ سوف يجد الطريق مسدودًا أمامه.

والشيخ «عويضة» معروف اختصارًا بـ «إده»، ولي محترم من أولياء الله الصالحين. ومقامه ذو القبة في قبره موجود على ناصية الجبانة الكبيرة في «قفط» وقراها. واليوم يزعم بدو العزايزة من تخوم الصحراء أن الشيخ منهم. ولكن الناس الكبيرة في السن يعرفون أن قبر الشيخ «عويضه» كان موجودًا عندما قدِم العزايزة إلى هناك.

والناس يروون بعض كراماته. انطلق مرة بالجمل إلى بلاده، بلاد الحجاز. ركب إلى القصير على البحر الأحمر، حيث أخذ سلطانيته الخشب،

التي يحملها كل بدوي، ووضعها على الماء، وأبحر عليها، كأنها القارب يشق به البحر. وعاد بنفس الوسيلة، وركب جمله، وعاد إلى أهله في العزايزة، على تخوم الصحراء. ولتلك السلطانية كرامات في مواقف أخرى، فعندما يكون لدى «عويضه» ضيوف، كان يستخدمها في تقديم الطعام لهم. والكرامة هي أن السلطانية لم تكن تخلو من الطعام قط. وذات يوم أقدم واحدٌ من أولئك الذين لا يصدقون في الكرامات، بشكل سري على وضع حفنة تلو الحفنة من الطعام في زكيبته حتى امتلأت الزكيبة لآخرها بالطعام، ولكن السلطانية ظلت عامرة بالطعام أيضًا. هنالك اقتنع الرجل بالكرامة، وحفظ للشيخ «عويضه» وقاره واحترامه.

اليوم عندما يُسرق شخص، فإنه يمضي إلى قبر الشيخ «عويضه» ، ويطلب منه العون، وينذر له نذرًا، أن يذبح له خروفًا مثلاً كقربان. فنجد أن الشيخ «عويضه» راح يعمل على ضمير اللص حتى يقتنع برد الشيء المسروق إلى صاحبه. ولكن إذا لم يفي الشخص المسروق بوعده ونذره، فإن الشيخ يبتليه بالألم والمرض. ومن ثم يتذكر المسروق وعده ونذره، ويحضر قربانه، ويفي بوعده.

وكان رجلٌ من «كيمان» يبطن الجزء الأسفل من قاع بئر الماء. ولسوء الحظ انهارت جوانب البئر، وسقطت الأحجار والتراب في قاع البئر. وأسرع الناس إلى والد ذلك الرجل وقالوا له: «ابنك مات». ولكن عندما اشتد البلاء على الرجل الساقط في البئر، راح ينادي على الولي بقوله: «يا شيخ إده». فما كان من الشيخ إلا أن رفعه إلى أعلى البئر، ولم يصبه أذى. وشكرًا وامتنانًا للشيخ، ذُبح عجل بقرة إكرامًا للشيخ «إده» أي عويضة.

وعندما تحرن بقرة في القرية، وتمتنع عن حلب اللبن، كانت تُؤخذ للشيخ «إده في منتصف الليل يقتادها رجلان. وعندما يقتربا من قبر الشيخ، يقدم أحدهما على خلع ملابسه حتى يصبح كما ولدته أمه ويعطي ملابسه للرجل الآخر. ثم بعدئذٍ يأخذ البقرة من الرسول ويجعلها تمشي خلفه، دون أن ينبس ببنت شفة، ودون أن يلتفت وراءه ويطوف حول مقام الشيخ «عويضه» ثلاث أو خمس أو سبع مرات، من اليمين إلى الشمال، عكس عقارب الساعة. والحق أن كثيرًا من الناس يطوفون لا حول مقام الشيخ عوضه فقط، وإنما يشمل طوافهم أحيانًا المقبرة كلها.

جنوب شرق «قفط» تقع قرية الشيخية. ويُقال إنه في الأيام الخوالي كانت أبعد من ناحية الغرب، وكانت تقع على النيل مباشرة. ولكن المياه بدأت تزحف وتقترب من البيوت، فقرر الفلاحون الانتقال بالبيوت إلى حيث تستقر القرية اليوم. وعندما اجتاح الفيضان القرية كلها، لم تمس قبر الشيخ الحاج علي. وكانت تلك علامة على كرامة من كرامات الشيخ. ولذا قرر الناس نبش قبره ليأخذوا جثمانه معهم. وعندما فتحوا القبر وجدوا الجسد سليمًا معافى، لم يتحلل رغم طول المدة التي بقي فيها مدفونًا. وتلك كانت علامة أخرى على كرامته. وأحضر الناس كفنًا جديدًا ليضعوه على الجسد، ودفنوه في القرية الجديدة بالقرب من المسجد وبنوا عليه ضريحًا. ثم فيما بعد عندما كانت باخرة الباشا مسافرة عبر النيل، ووصلت إلى موازاة قرية الشيخية القديمة، لم تستطع مواصلة المسير، وإنما راحت تدور حول نفسها في دوائر لا تنتهي. وفي الحال خالج الباشا الشك أن يكون ذلك من عمل ولي من أولياء الله الصالحين، وبدأ في التحقيق. ثم إن أهل قرية الشيخية حفروا

مرة أخرى في مكان قريب من قبر الحاج علي، ووجدوا الجسد الخاص بابنة الشيخ سليمًا أيضًا لم يتحلل. أخذوه وأعادوا دفنه في الشيخية الجديدة قريبًا من أبيها. ومضت الأيام وإذا باحترام الشيخ وتوقيره هو وابنته يقل. فقد تعود الناس إضاءة ضريح الشيخ في أيام معينة. ولكن الحيرة استبدت عندما وجدوا أن المصابيح التي كانوا يعيدون تزويدها بالزيت لم تكن تستمر طويلاً وسرعان ما كانت تنفد. ثم اكتشفوا أن هناك ثعلبًا كان يتسلل إلى داخل الضريح ويلعق الزيت من المصباح. ولذا غضب الناس من الشيخ الذي لم يستطع أن يدفع أن نفسه مكر الثعلب. وبدأ كثيرون في إضمار الازدراء للشيخ. ولكن عندما جاء الثعلب مرة أخرى ليلعق الزيت، حبسه الشيخ هناك، وتركه معلقًا من لسانه كأنه دخل في فخ. ووجد الناس الثعلب مقبوضًا عليه هكذا عندما جاؤا في الصباح. وأوسعوه ضربًا حتى الموت. وهكذا أثبت الشيخ قوة كراماته من جديد، وعادت له هيبته الضائعة. ومعروف أن أضرحة المشايخ يُعهد بها إلى شخص، وهذا المتعهد يسمونه النقيب وجمعها نقباء. وكان والد النقيب الحالي هو الذي يتولى العناية بالأضرحة. وكانت كرامة الشيخ تتجلى من خلاله. وعندما مات، كما يموت سائر الناس، وضعوا جثمانه في المسجد للصلاة عليه صلاة الجنازة. وعندما أراد الناس حمل «الكرب» بعد ذلك على أكتافهم إلى القبر، عجزوا عن تحريك الجثمان من مكانه. هنالك راح المحتشدون يتلون سورة الفاتحة التي فعلت فعلها، واستطاعوا رفع «الكرب» على أكتافهم والسير به إلى القبر. ولكن حدثت المفاجأة الأخرى، كان من المستحيل إنزال الجثمان على الأرض. وطلب من حاملي جسده أن يعودوا به إلى القرية، ليطوف حول ضريح الحاج «علي» سبع مرات، وأخيرًا سمح لهم أن ينزلوه أمام باب الضريح. ولم يستطع أحد

بعد ذلك أن يحركه من مكانه، ولذا دفنوه في حجرة الانتظار في الضريح، وصُنع له تابوت مخصوص.

وحجرة الانتظار تلك هي المكان الذي يحضرون فيه الذبائح التي تُنذر للشيخ. وتُحفظ فيها أدوات للذبح عبارة عن سكينين وحلتين ضخمتين للطبخ ومغرفة خشبية وخطاف مزدوج لتعليق الذبيحة (للسلخ والتقطيع)، وميزان خشبي بكفتين مصنوعتين من سعف النخل المضفور. الأهم من ذلك كله، يمكنك هنا رؤية المصباح الزيتي المشهور، مصباح قديم علاه الصدأ مغلق من فوق. وليس من الممكن أبدًا لحس الزيت منه - وإلا شرب منه الثعلب كما يشرب من قنينة. ولكن ذلك لم يهم أي أحد. هنا أيضًا تُعلق القرابين المنذورة المختلفة، وقطع من القماش، وخرق مليئة بالعقد من سيدات يبحثن عن زوج أو متزوجات ينشدن الذرية من خلال بركات الشيخ.

وقريبًا من البيت الذي كنت أعيش فيه في «كيمان» كان هناك ضريحان مدمَران تمامًا يقومان على كومة من الأطلال. أحدهما ينتمي إلى الشيخ أبو شهبة، والآخر للشيخ عبيد الله.

وأبو شهبة هذا شيخ من الأزمنة الغابرة يُقال إنه قدِم من الشرق. وحكى لي رجل عجوز من «كيمان» هذه القصة التي سأرويها لكم. ذات مرة وصلت مياه الفيضان إلى بيته حتى أنها هددته بالدمار. فأخذ فأسه وذهب به إلى ضريح أبو شهبة، وهو ضريح صغير الحجم يبحث عن تراب ليبني سدًا. ولكن الناس حذروه. ولكنه ضحك منهم ساخرًا وهازئًا، وقال: «هذا الشيخ لا يعني لي شيئًا، ماذا يعني؟» وبدأ في عزق الأرض واستخراج التراب، ولكن الفأس قفز من بين يديه وانقض على ساقه من نفسه. وبحث عنه أهله وناسه،

واضطر إلى المكث في البيت أسبوعين. وعندما كان راقدًا في سريره دخل عليه تنين ضخم للغاية [1]، وفتح فكيه، والتقم رأسه ووضعها بين أسنانه، ورفعه كله فبدت ساقاه معلقتين في الهواء. ثم بعد ذلك تحول التنين إلى جمل ذكر صغير السن ويهمهم مثل الجمل وحاول أن يدوسه تحت قدميه. وأدرك الرجل أن ذلك كله بسبب إهانة الشيخ أبو شهبة. وبمجرد أن استطاع الحركة من جديد، ذهب إلى ضريح الشيخ، وقال «سامحني يا شيخ، تبت إلى الله». وعندئذٍ تحسنت أحواله كلها بسرعة ملحوظة. ونذر نذرًا للشيخ المعروف للجميع وهو: «سيدي عبد الرحيم القناوي» أنه سيزوره في وقت مولده عندما يُشفى تمامًا. وفعلاً شُفي وزار ذلك الولي.

في الأزمنة الغابرة كان أبو شهبة هذا موقرًا غاية التوقير. وكان يقوم على ضريحه نقيبًا له اسم طريف: «بخيت الزراط». ولأبي شهبة مولد يقام له كل عام يُقال له مولد أبو شهبة، وتخصص له ليلة يقال لها: ليلة أبو شهبة. وفي ذات ليلة من ليالي مولد أبي شهبة حدث أن طرح أحد راكبي الخيل فتاة أرضًا، وتسبب الحصان في جرح قاتل للفتاة. وأخذ بخيت الفتاة ودفنها. وتلك الحادثة كانت النهاية لهذا المولد، وخلال العام التالي لم يكن هناك مولد الشيخ أبي شهبة، ولم يُعقد له مولد مرة أخرى.

وأما جار هذا الولي فكان الشيخ «عبيد الله»، والذي لم يبق من ضريحه إلا الأسوار الأولى. ومع ذلك ظهرت له كرامة عظيمة ذات مرة. فقد نذر رجل لعبيد الله كبشًا إن هو أعاد لابنه صحته. وفعلاً شُفي الولد، وأحضر الأب الكبش ليذبحه قربانًا للشيخ. ولكن في تلك الأثناء سُرِق الكبش. وراح

(١) عندما يكبر الثعبان ينبت له جناحان، ويصبح «آفًا» وجمعها «إيفان». ومن ثم تطير إلى سيدي أحمد الرفاعي في أرض الخراب.

الرجل يبحث في كل مكان، ولكن دون جدوى. وأخيرًا ذهب إلى جار لـه، كان يعتقد أنه الذي سرق الكبش وسأله: «هل الكبش هنا؟» وأجاب الجار: «لا»، ولكن الواقع أنه سرق الكبش وذبحه ووضعه في القدر. وفجأة صدر صوت من القدر يقول: ماء ماء. وبذلك أُلقِي القبض على اللص. أما قطع اللحم التي تصيح هكذا فإنها من كرامات الشيخ عبيد الله. وفي مرة أخرى من المرات أحضر رجل للشيخ عبيد الله كبشًا كأضحية للضريح. وقرص النقيبة في عجيزتها. فاستشاطت غضبًا وقالت لـه: «أجئت لي أم للشيخ؟» في قرية كيمان. وألقت باللحم على الأرض، وذهبت وامتزجت بالمحتفلين الذين احتشدوا بالفعل ومنهم الطبالون والزمارون.

يمكننا القول إن أولئك المشايخ على اختلافهم مشايخ عائلية، أو أولياء الله على مقاس القرية. ودائرة احترامهم وتوقيرهم صغيرة، ومذاهبهم أو الاعتقاد فيهم يستمر لجيل أو جيلين، وفي حالات نادرة يستمر التواصل معهم ومع حالتهم لقرنين من الزمان. وهؤلاء المشايخ ملتصقون بالمجتمع، منه وفيه، وبعضهم يكشف عن نفسه من خلال وسيط في كثير من الأحيان. ولكن هناك مستوى آخر من المشايخ أعلى من أولئك المشايخ القروية أو العائلية، وهم أولياء الله الصالحين في المدينة، وعددهم قليل، ولايتهم مستقرة منذ زمن بعيد. ومكانتهم سامية في دنيا الأولياء من سائر القديسين والروحانيين، وهؤلاء لا ينزلون إلى التحدث مع الناس من خلال وسيط.

من هؤلاء الشيخ الأنصاري، ينطقه الناس هناك «النُصاري». وللشيخ الأنصاري مقام معروف في «قفط»، وساحة نظيفة للصلاة وإقامة الأذكار بجوار قبة المقام، وكل ذلك محاط بسور عالي تحفه الأشجار من جميع

الجهات. ويُقال إن الأنصاري خاض معركة حربية في مكان ما من تلك الأمكنة البعيدة. وكان يقاتل في معركة ضد الكفار، وقُطِعت رأسه. وبعد ذلك جاءت الكرامة: فقد أمسك برأسه المقطوعة بكلتا يديه ووضعها على عاتقه وراح يزأر كالأسد في الهواء بما يشبه الطائرة. وفي النهاية هبط هنا في «قفط» ومات. وقام الناس بدفنه وبنوا عليه ضريحًا.

والشيخ الآخر المهم جدًا الذي يوقره الناس توقيرًا شديدًا في «قفط» هو حامل الراية. وهذا الشيخ أيضًا خاض حروبًا مقدسة، وهاجم صفوف العدو بالراية الحمراء ممسكًا بها في يده. ويُقال إنه كان من صحابة النبي محمد، ولكنهم يقولون أيضًا إن هذا الولي جاء من مدينة قوص المجاورة. لقد جُرح حامل الراية في المعركة، ومات بالقرب من «قفط». ولقد دفنه الناس وبنوا على قبره ضريحًا. ومنذ سنوات كثيرة مضت احتاج الضريح إلى تجديد، وعندما راحوا يحفرون ما لبث الناس أن لاحظوا رائحة جميلة أخاذة كأنها قادمة من السماء. ووجدوا أن الجثمان كما هو لم يصبه أي عطب. وإلى جوار الولي جثمان أخيه كما هو أيضًا لم يصبه عطب. ووجدوا قصاصة ورق تحت رأس الولي يستطيع المرء أن يعرف منها متى جاء حامل الراية إلى «قفط». حدث ذلك منذ ما يزيد على ألف عام.

وأما ولي المحافظة كلها، سيدي عبد الرحيم القناوي، فإن مقامه أعلى حتى من جميع أولياء الله في المدن في عالم الأولياء والروحانيين.

وعلى نفس المستوى يضع أعضاء الطرق الصوفية مؤسسيها. ومن الأولياء المحترمين في نجع الحجيري وكيمان سيدي محمد الدندراوي. ويُقال إنه تُوفي منذ ست وثلاثين عامًا. وكان الدندراوي يقوم على خدمة

الشيخ الكبير ومؤسس الطريقة الدندراوية الشيخ إبراهيم الرشيدي. وكان الدندراوي سقاءً، وكان يحمل قربته إلى مقر الشيخ رشيدي ليروي بها ظمأ ضيوفه الكرام. وظل يخدم على ذلك النحو حتى طعن في السن. وذات يوم سقط على السلم بينما كان يحمل القربة. وقال الدراويش للرشيدي: «الدندراوي وقع على السلالم». وذهب الشيخ إلى هناك وسأله: «هل وصلت إلى الهدف» وأجابه الدندراوي: «أراد الله أن أصل إلى الهدف»، ومعنى ذلك أنه وصل إلى نهاية خدمته الطويلة. عندئذٍ قال الشيخ رشيدي: «مدة خدمتك انتهت». وأعلنه شيخًا ونائبًا لـه. وبعد موت الرشيدي تولى الدندراوي إمامة الطريقة.

ولقد رأى سنوسي العجوز الدندراوي في بيت أبيه التقي. وكان الدندراوي طويل القامة، نحيف الجسم، أبيض الشعر، وكان قليل الكلام. وذات يوم جلس في أثناء صلاة الجمعة في البيت، ومع ذلك في نفس الوقت رأوه يصلي في المسجد.

وقد دعاه الخديوي عباس لزيارته، وقال: «هل لك في التحدي؟» ولزم الدندراوي الصمت والنظر في الفراغ كأنه غاب في تأملاته. وكان الخديوي مهتمًا جدًا وبعد برهة سأله مرة أخرى: «هل لك في التحدي؟» ثم تكلم الدندراوي قائلاً: «سوف أتحدث فيما بعد. اتركني الآن وحدي. ففي مكان كذا وكذا، مات صديق لي». وأرسل الخديوي برقية على الفور يسأل فيها: «هل مات فلان الفلاني والدندراوي كان حاضرًا الجنازة؟» ثم حضرت الإجابة التي أكدت أن الرجل المقصود قد مات وأن الدندراوي كان من بين المعزين.

وكان للدندراوي ابنة متزوجة في سوريا، وابن اسمه أبو العباس، وكان له ابن أصغر اسمه عبد الوهاب. ولم تكن تلك الابنة تعرف أخاها أبا العباس. وعندما زار الدندراوي ابنته ذات مرة في سوريا، قالت لـه: «من سوف يخلفك يا أبي؟» قال لها الأب: «سيخلفني أبو العباس، وسوف تعرفينه». ثم أمعن الدندراوي في السفر، ومات. وتولى أبو العباس خلافة أبيه في رئاسة الطريقة. وذات يوم سافر إلى سوريا ليرى اخته. ووجدها، وقبل أن يخبرها من هي، هتفت بفرح شديد «هيا هيا هيا أبو العباس هيا هيا هيا». وبعد ذلك نظموا حفلاً كبيرًا. وطلب منه ناس كثيرون أن يقبلهم في الطريقة، وقبل كثيرين منهم.

والناس يروون كثيرًا من قصص كرامات الدندراوي. فقد كان له في مكة أو المدينة خادمًا وجارية اتخذها زوجة لـه. واقترفت هذه الجارية الزوجة فعلة شنعاء. عندئذٍ ذهب الخادم إلى سيده الدندراوي وأخبره القصة وطلب منه أن يجلدها بالسوط. قال الدندراوي: «خير لها أن تموت». وخلع عمامته ودعا الله أن يأخذها. ومن تلك اللحظة بدأت المرأة تشعر بالاختناق: «لقد خنقها الله». وراحت تتأوه وتتألم إلى أن فاضت روحها بعد يومين.

وذات مرة أراد الناس أن يختبروا الدندراوي ليروا إن كان حقًا من الواصلين ذوي الكرامات. فرقد رجل في نعش ادعاءً وكذبًا. وأخبر الناس الدندراوي أن يصلي عليه صلاة الجنازة. فقال الدندراوي: «أنزلوا الرجل». وأنزلوا الرجل وسألوا الدندراوي مرة أخرى: «صلي عليه صلاة الجنازة». وكذلك فعل. ثم بعد ذلك كشف الناس عن الرجل الراقد فإذا هو من الميتين بالفعل.

وقبل عشرين عامًا من وفاته، تنبأ الدندراوي بملك يحكم مصر، وأضف إلى ذلك، أنه تنبأ ببناء خط سكة حديد يربط بين «قفط» والقصير.

وذات يوم كان رجلٌ يصلي خلف الدندراوي الذي كان يؤم المصلين، وكان الرجل يربط قطعة لحم في طرف شاله. وبعد الصلاة ذهب الرجل إلى بيته وأراد أن يطبخ اللحم. وظلت في القدر الذي كان يغلي ويزبد ولكن اللحم لم تنضج قط، لقد ظلت نيئة وحمراء كأنها مذبوحة للتو. وراح الرجل يشعل النار تلو النار لعله ينجح في طبخها، ولكنها لم تتغير. ولذا ذهب إلى الدندراوي وأخبره بالقصة. قال لـه الدندراوي: «لقد كانت اللحمة خلفي في الصلاة، وليس للنار سلطان على كل من كان خلفي في الصلاة». ولذا أصبح الناس لا يخشون نار جهنم طالما كانوا يصلون خلف الدندراوي.

صورة العالم والإسلام

صورة العالم على الخريطة محدودة أساسًا بالشريط الضيق لوادي النيل، وفيها قرية الفلاح المصري التي فيها بيته. من ناحية الشرق والغرب تقف تلال الصحراء. والصحراء غريبة وعرة كالحة تصده صدًا، ولما كان عاجزًا عن زراعتها فإنه لا يأبه بها، ويقف منها موقف الحذر. ولذا نجد أن صورة العالم بالنسبة لـه محدودة. من ناحية الشمال هو يعرف القاهرة، ويعرف أنه يستطيع السفر شمالاً لمدة أيام، ويظل بين تلال الصحراء والغيطان المصرية المثمرة. وهو يألف الشمال ويعرفه. فكثير من الفلاحين سافروا إلى القاهرة، وبعضهم سافر إلى بحر المالح في الإسكندرية. ولكن الجنوب مختلف. فهو مجرد شريط ضيق ينتشر فيه الفلاحون المصريون مشغولون في الحقول. ويعرف أن بعده يأتي أصحاب البشرة السوداء من الأفارقة، يختلفون عنه في

المظهر واللغة والعادات. وعقله يقول له أن يضع في هذا الجنوب الأسطوري جميع القصص التي يرويها الناس عن المغامر والعجيب والخرافي. قصص علي والشيخ بخيت ونجع الحجيري. فالجنوب، إذا جاز التعبير، هو الفجوة الكائنة في صورته التي كونها للعالم بكثير من الحدة والصرامة. على سبيل المثال: في الجنوب تمارس النساء السحر. فإذا تزوج رجل من امرأة هناك، ولا يريد أن يستمر معها، فإنها تحوله إلى حيوان، كلب أو حمار أو ضبع، حسب رغبتها. فعندما يكون الرجل في البيت تجعله رجلاً، ولكن عندما يترك البيت فإنها تحوله إلى حيوان. ولذا يظل وجوده حسب الظروف.

وملاصقًا لـه وأقرب إليه من هذا العالم البشري الخطر في الجنوب العالم السفلي، عالم الأشباح. وأحيانًا تتعمد هذه الأشباح السفلية الظهور علنًا، أو الإعلان عن وجودها بطريقة يسيرة. ففي أيام النبي محمد نزل الإمام علي بأمر من الله إلى العالم الموجود أسفلنا، عالم الجن. وحاربهم. ثم قال الصحابة للنبي: «لقد ذهب الإمام علي إلى الجن». ولذا ذهب نبي الله إلى الحفرة التي نزل منها الإمام علي، ونادى عليه. وأجاب علي: «أجل .. أجل أنا بخير وأحارب الجن». ولذا علم النبي وصحبه أن عليًا كان بخير، وفي صحة جيدة. وفيما بعد صعد الإمام عائدًا إلى سطح الأرض.

صورة العالم لديهم تفتقر إلى عمق الزمن. فالحادثة الحاسمة في المساحة الزمنية كلها هي ظهور النبي محمد. ولكن هذه الحادثة ليست ثابتة في فترة ما من خلال الأعوام الفعلية في تاريخ البشرية التي استمرت لقرون، لأن الفلاح لا يحصي السنوات ولا القرون. وهو لا يأبه بمفهوم التاريخ وليس لـه إلا ما يكون في رأسه، ولذا فهو لا يستطيع رؤية النبي

محمد بوصفه ظهورًا تاريخيًا. فمحمد قريب إليه قربًا كأنه عاش بالأمس، وبعيد عنه بعدًا كأن الدنيا بدأت به. وحتى الحوادث الحقيقية والأسطورية التي حدثت في صدر الإسلام، والتي تُروى في المواويل والأناشيد، لا يربطها خيط واحد في تعاقب زمني تاريخي مطرد. فبين وفاة النبي وحفيده الحسين على الأقل نصف قرن. ولكن الناس يروونها كأن النبي حضر موت الحسين. فهم يروون أنه بينما كان الحسين يُقتل في المعركة وقطعه الأعداء إلى قطع كثيرة، عاد حصانه وحده. حينئذٍ قال النبي «جاء جسده». وعندئذٍ التأمت أجزاء جسد الحسين المنفصلة، وجاءت إلى النبي - وأشار الراوي بيده إلى كومة على شكل متعرج على الأرض. هذه الأجزاء تم جمعها ودفنها.

يمكن تقسيم البشرية في الوقت الحاضر إلى مسلمين ومسيحيين ووثنيين. والمسيحيون والوثنيون يُحسبون من المرشحين لدخول جهنم. ويمكن تقسيم المسلمين إلى خمسة مذاهب أو مدارس في التفسير، ولكن توجد أيضًا مدرسة خامسة أو مذهب خامس، وهو مذهب مستهجن، وأتباعه يعيشون في إيران، أو ما يُسمى بلاد فارس. وفي تراث هؤلاء الناس أن المرء يمكنه أن يتبول على الحجر الأسود المقدس في مكة. وعندما يذهب هؤلاء الناس في الحج إلى مكة ويريدون القيام بهذا العمل الشنيع، فإن المسلمين يقاتلونهم حتى تسيل الدماء، لا بالعصي، وإنما بنعال أحذيتهم. واحد من أولئك المنتمين لهذه الطائفة يُدعى «خمسي». و«خمسي» هذه أصبحت كلمة ثقيلة على اللسان من أسماء اللعنات عند فلاحي الصعيد في مصر.

ومثلما أصبح الماضي محصورًا في صورة النبي، فإن المستقبل أضحى محصورًا في صورة يوم القيامة. فنهاية العالم ويوم الدين يمكن التنبؤ بهما بعلامات مختلفة. ومن تلك العلامات ظهور المسيخ الدجال. فهو يعيش في العالم السفلي، وسوف يجيء من هناك عندما تقترب الساعة. يقول بعض الناس أن الدجال سوف يظهر في قرية تُسمى «الحُمر» بين الشيخية وقوص. ومع ذلك ليس لأهل قرية الحمر سمعة سيئة بسبب ذلك. ويقول آخرون أن الدجال سوف يأتي من قوص وعلى الأخص من حارة تجار زبل الحمام. أيضًا يعتقد كثيرون أن المهدي المنتظر سوف يظهر قبل نهاية العالم. وربما يُظهر أبو العباس بن الدندراوي نفسه بوصفه المهدي المنتظر.

وفي يوم البعث سوف ينبثق الناس من فقرات عصاعصهم كما تنبثق النباتات من البذور. ثم يجمع الجميع ليمروا من على الصراط إلى الآخرة، وأما المؤمنون فالصراط عندهم واسع رحب مثل الوادي في الصحراء، وأما بالنسبة لفاعلي الشر فإنه يصبح أقل حجمًا من شعرة الرأس. الصراط هو سيف الله ذو الحدين.

وقد رأينا كيف تقوم الأشباح بدور كبير في تلبية حاجات الفلاحين حين تكون سببًا وعونًا. وسوف نمعن في توضيح ذلك في هذا الكتاب.

ولكن المهم جدًا في هذا الصدد أن وراء عالم الأرواح والأشباح في الإسلام هناك الأعماق التي تُلتمس في معاني السرمدية، الأبدية بوصفها هدفًا يُلتمس لذاته. فكثيرٌ من الفلاحين قد ينذرون قرابين للمشايخ، ويضحون بالأضحيات عند مقابرهم، أو حتى يصلون بالقرب منهم وفي ساحاتهم، ولكن الصلاة نفسها موجهة إلى الله نفسه إله الدنيا والآخر، ورب العالمين

كما يقولون. إنه هذا المتجاوز لجميع حواجز الكون الذي يحيط بالأرواح والأشباح تعبر عنه تلك الحفلات الصوفية التعبدية التي يمارسها أصحاب الطريقة - وهو الذكر. وقد مارست هذه التدريبات مرات عديدة. وكان لها تأثير عميق عليّ. وأنا هنا أقدم روايتين في اللحظة التي أسجلهما مباشرة بعد حدوثهما في القرية، قرية «كيمان».

ولتكريم الشيخ علي من نجع الحجيري - هذا الرجل البسيط الذي ألقى بطوبة على بلح النخلة وهو جالس على الأرض - راح أخوه الحاج اسماعين يعد له حفلة ذكر. وتعهد بأن يفعل ذلك كلما ظهرت لـه الحاجة إلى ذلك.

حدث ذلك في الثامن والعشرين من فبراير من العام ١٩٣٤ الساعة التاسعة مساءً. بينما كنت أستعد للنوم، سمعت طرقًا على الباب: رجل من نجع الحجيري أتى ليقول لي إن هناك ذكر هذه الليلة في القرية، إيفاءً لنذر نذره الحاج اسماعين. وذهبت في الحال. وكان القمر بدرًا يضيء الحقول الصامتة.

تناهت إلى سمعي من منطقة الجبانات صوت أغنية غريبة، توجهنا إليها بآذاننا والأفواه فاغرة؛ لم يكن الأمر أكثر من دوران ساقية. وصلنا نجع الحجيري. كانت البيوت والجدران تتلألأ بالطلاء الأبيض. وكانت أشجار تمر الحنة في حديقة قريبة تنشر ظلالها الرحبة على الطريق. الآن بتنا نسمع أصوات أقدام الذاكرين المكتومة تدق الأرض تأتينا من مكان قريب. وجاء رسول الحاج اسماعين للقيانا في الشارع. واقتادني خلال الباب المنخفض المفضي إلى بيت الحاج اسماعين. وبعد المدخل على الناحية اليمين حجرة صغيرة. وكان صاحب البيت المهيب وسيده الحاج اسماعين يجلس هناك،

رجل ذو لحية بيضاء وهيئة مهندمة. وكنا نتخيل مثل هذه الشخصيات في قصص هارون الرشيد. كان جالسًا القرفصاء أمام مجمرة فحم، يدفئ يديه. وكانت الأرض مغطاة بالحصر. وهناك مصباح يعمل بالكيروسين مستقر في مشكاة في الحائط. وكان مفترضًا أن أجلس إلى جواره، ولكن رجال الذكر كانوا مجودين على اليسار من المدخل ولذا مضيت إلى هناك. كانت امرأتان تجلسان في الطُرقة يختلسان النظر إلى الراقصين في حلبة الذكر. وعندما جئت تراجعتا إلى الخلف، وبشيء من الحذر والتحفظ جذبتا نقابهما ليغطي وجهيهما، واكتفتا بالنظر من خلال خرق صغير بعينين مفعمتين بالفضول إلى الحدث الثاني في ذلك المساء، الأوروبي الغريب. أحضر شخص مقعدًا هزازًا، ووضعه متكئًا على الحائط، وجلست. ومن المشكاة العالية تسلل نور مصباح الكيروسين إلى الحجرة المغطاة بالتراب. هنالك كان اثنا عشر رجلاً شابًا واقفين عند الجدار تحت المصباح. كانوا يضربون الأرض، ويتمايلون يمينًا وشمالاً وإلى الأمام والخلف، يهتفون باسم الله.

قبالتهم على الجدار الثاني طابور آخر كان واقفًا: وكان مخصصًا للصبية الأصغر سنًا، الذين تتراوح أعمارهم من الثانية عشرة إلى السادسة عشرة، وعند الركن البعيد مجموعة من الأولاد، في أعمار السابعة والثامنة والعاشرة. كانوا أيضًا يتمايلون بشغف بأجسادهم، بينما كان الأصغر سنًا قد بدا عليه التعب، يجلس القرفصاء في ركن الحجرة، وينام. وفي المنتصف بين الصفين هناك الإمام، سليمان، كبير المنشدين. كان من «بير أنبار» التي تقع على طريق الصحراء المقابلة لمحافظة قنا، ولكنه لم يكن بدويًا. كان رجلاً عظيم الهيئة قصير القامة ضخم الجثة في أواخر العشرينيات، وله وجه

مائل إلى السمرة وشارب أسود. كان يرتدي جلبابًا أزرق غامق، وكان يرفع يده اليسرى بمحاذاة أذنه لكي يسمع صدى صوته الذي أضحى الآن عاليًا ورائقًا. كان يرج جسمه إقبالاً وإدبارًا، ويهز رأسه بما يشبه الإيماء. وكانت تعبيرات وجهه أقرب إلى التجهم. لم يعد الرجل الذي يغني، لقد تحول إلى أغنية خالصة. كانت تمايلات جسده ورأسه مع الموسيقى الإيقاعية تتناغم مع جسده الرشيق. هنالك تراجعت الأنغام والألحان، ما يبدو لآذاننا متواليات إيقاعية متراصة، وإنما هي أحوال مختلفة، ومع كل حال يتغير رقص الرجال. إنهم يستسلمون تمامًا للموسيقى، ويفضي بهم خضوع المنشد إلى أصوات لم أسمع مثلها من قبل. فأحيانًا كان يجتهد ليعلو بالنغمة الصادرة من الأعماق لتوافق الكلمات القادمة من خلف الحلق مرورًا على الأنف لإنتاج الغُنة، ثم لا يكون المنتج إلا قرقرة مهيبة، وذلك بالضبط ما كان يحث الذاكرين على الرقص. وكان يبدو لي كأن إخلاصه الكامل للغناء هو الذي خلق اندماج الآخرين العميق في الرقص والذكر. أحيانًا كان يستهل الأغنية، وفي نفس الوقت تواصل الأجساد التمايل والترنح، ممسكة بالإيقاع أو متحولة إلى إيقاع جديد. ثم كان يبدأ في التصفيق بيديه بلين حسب الإيقاع، في خفة خفقات أجنحة الخفاش، الذي أحيانًا ينقض على الهواء المفعم بالتراب. ولذلك طريقة مختلفة في الاستنهاض. وعند تلك الدعوة لزم الراقصون الصمت، الذين حتى الآن كانوا يصحبون حركتهم وأغنية المنشد بترديد كلمة «الله الله». الآن أصبحوا يؤرجحون أجسامهم بخفة ورشاقة ناحية الشمال وبشكل أقوى ناحية اليمين، وبدأوا في الهمس باسم الله - الله الله. ولكن الكلمة لم تعد كلمة تخرج من أفواههم، وإنما تحولت إلى ثلاث شهقات في نفس واحد، أو شهقتين قصيرتين مهيبتين في الشهيق كـ إه إه، ثم في

شهقة طويلة في الزفير أيضًا .. إهـ. ويجيء دورالمنشد الذي يضيف إلى التصفيق غناءً بهيجًا بصوت منخفض - «يا دندراوي»، وسمعت ذلك أكثر من مرة. ثم إن غناءه يزداد سرعة وحدة، ويتحول هو نفسه إلى نشوة، وتصبح حركات الراقصين أكثر وضوحًا، وقد تحولت أنفاسهم المطردة إلى لهاث. ولقد تخلى المنشد عن جميع الكلمات، ولم يعد يغني إلا: «دن دن دن دن ... «وكنت تسمع صوتًا يشبه صوت نقر الأصبع على حافة طبلة يد، كان يغني «دِل دِل دِل دِل ...». ثم يجد كلمات مرة أخرى فيقول: «دندراوي يا دندراوي»، وكما فعل من قبل كان يضغم الصوت فيأتي كأنه صوت الزمارة المصرية المعروفة، صوت المتيمين. ثم وعلى حين غرة يتوقف، وفي نفس اللحظة يتوقف الراقصون عن التمايل ويريحون أنفاسهم. توقف الجميع، لم يبق واحد مستمرٌ في الرقص. أحدهم أمسك بشاله ومسح وجهه وجبهته من العرق، وأما أهل الطريقة فجلسوا القرفصاء على الأرض، وفي الحال بدأ المنشد يملأ الصمت بأغنيته، وأغلب الظن أنه كان يرتجل ارتجالاً. كان يغني لدندراوي، لله ملك الملوك، وللنبي محمد، وللجنة. وكان أهل الطريقة برمقونه كلهم مفعمين بالحماس، سكارى بالكلمات، ويردون بشيء مثل: «معلوم .. معلوم»، كان يتغنى بجمال الفردوس وجلاله، وأنه ما من مسلم إلا واردها. وهناك كان المنشد يهتف: «يا عيني .. يا حبيبي» والحبيب هنا هو النبي محمد، وكان يطيل حرف الياء حتى كان وجهه يتحول إلى اللون الغامق وعروقه تتضخم حول رقبته. وكان أهل الطريقة يرددون معه أو بعده «الله الله».

وقد وقفت إجمالاً على ألوان من الرقص الصوفي أشرحه لكم هنا. فأهل الطريقة يقفون متراصين متقاربين، يسلمون أنفسهم للرقص بأبدان لينة

ورؤوس واهنة، وقد أُطلقت الشيلان كيفما اتُفق، ويبدأون في التمايل بشيء من الوهن جهة اليسار وبشيء القوة ناحية اليمين، ولكن مع ربع استدارة بالجسد كله، ينطقون أو يتنهدون بـ كلمة الله و «هه». ونفس التمرين مع دوران بالجسم نصف دورة، أو يجثون بحيث تكون ركبة واحدة مرفوعة، ويقوم الجسد بأداء ربع دورة في كل مرة. أو يقف إخوان الطريقة وقاماتهم مرفوعة، ويتركون أجسادهم تميل للأمام ميلاً كبيرًا، ثم للخلف ميلاً خفيفًا، ويضربون الأرض بأرجلهم. وأكثر ما انطبع في النفس استسلام المشاركين وتفانيهم التام. وأكثر ما ألفت نظري إحساسهم بالإيقاع. فإذا توقف المنشد، يتوقف الجميع في الحال، وإن انتقل إلى نغمة أخرى يتبعون في الحال أيضًا. إنهم يصلون بأنفسهم إلى شفا الجنون دون التخطي. ورأيت واحدًا منهم يحرك جسده باشتياق غريب، ويبكي بحرقة أثناء غناء المنشد وهو يقول: «الله الله الله». كان صوته أقرب إلى حزن الوجد الجميل. وآخر كان يصفق بيديه مع الإيقاعات، تماهى مع الإيقاعات والأنغام فظن أن ترنح جسده والنداء لا يكفيان. وكان يرافق المنشد في أغلب أناشيده «جوقة» من ثلاثة إلى ستة رجال وصبية يقفون بجواره.

وبعد أن شاهدت ذلك الاحتفال الديني المتوهج لنحو ساعتين، توقف المنشد في هدنة طويلة، وألقى بشال على رأسه وعاتقيه وراح يصدر تعليماته للغلام الذي كان يرتدي جلبابًا أبيض، وكان واقفًا بالقرب منه طوال الوقت، ليبدأ الغناء. ولقد كنت أرقب ذلك الشاب، كان في الرابعة عشرة من عمره، وكان قادمًا من العبابدة، من قريتهم الواقعة على تخوم الصحراء قِبلي نجع الحجيري. كان يتمتع بوجه طفولي أخّاذ، وكان كفيفًا؛ لم أستطع رؤيته إلا من

الجنب. وبدأ في الإنشاد بصوت محبب رشيق. في البداية حمد الله وأثنى عليه بقوله «يا رب»، ولكن كررها بنغمات متوالية كثيرة، صعودًا وهبوطًا، صعودًا وهبوطًا، وصعودًا كان يطول بعض الشيء. وكان وجه الشاب مبتسمًا، سعيدًا بالإنشاد، سعيدًا بالغناء لله، والجميع شاعر بنقاء سريرته، وصفاء قلبه. وراح إخوان الطريقة يحسنون الإصغاء، ويشنفون الآذان، ويتطلعون إلى الشاب بملء العيون، ويرددون النداء بحماس مفرط، والشاب يواصل الغناء، وضوء مصباح الكيروسين يعكس عينيه المكفوفتين وأسنانه البيضاء. راح يغني لرب العالمين، وللقرآن الكريم، ولمحمد سيد النبيين. وبين الحين والحين كان يصل بالغناء إلى إيقاع الذكر ويصفق بيديه برشاقة النسيم. وعندما كان أحد أناشيده يصل إلى النهاية، وتتماهى المعاني مع مدح المقصود، الله ملك الملوك، كان يرفع سبابته اليمنى، وبيده يقود الموسيقى إلى ذروتها، وبيده يشير إلى السماء. ... وغادرت. وكان إخوان الطريقة يجلسون معًا بعض الوقت، يتناولون بعض التمر، ثم يهجعون وقلوبهم معلقة بالفردوس، والنعيم الذي أعده الله.

كان الذِكر الذي يمارسه مريدو دندراوي في نجع الحجيري يسير على نهج أتباع الطريقة الأحمدية. وفي مناسبة أخرى حضرت ذكر أتباع الطريقة الشاذلية. فاطمة البلهاء المعاقة، التي كانت تجلس على طريق سوق «قفط» كل يوم، كان لديها أخ واحد يعتني بها وبأمها الكفيفة. وكان اسمه عباس. وكان عباس هذا يأخذ حماره إلى الصحراء لكي يجلب زبل الحمام ويبيعه كسماد. وذات مرة وهو عائد كان مضطربًا أشد الاضطراب، وكأنه أُصيب بالجنون، وراح يصرخ بشكل بائس. وقال الناس إن ما حدث لعباس هو

أن عفريتًا لأحد الميتين لبسه. وقرر طبيب المستشفى الحكومي إرساله إلى خارج البلدة حيث الحجر الصحي الذي يضم العديد من أمثاله من المرضى. وقد رأيت عباس هناك، منظره يثير الشفقة، تقلص وجهه بتعاسة لا توصف، يرغي ويزبد من جانبي فمه، وعلى شفتيه تستقر بقايا خبز وتراب. وفي يديه كسرات خبز قدمها لي بعد أن عصرها عصرًا بيديه. لم يعد قادرًا على الكلام بشكل واضح. ومن حين إلى آخر أصبح جسده مشدودًا، وتعبيرات وجهه قاسية غاضبة، ثم كان يصيح بأعلى صوت: «محمود .. محمود». قال الناس إن محمود الذي ينادي عليه كان شيخًا، شبحًا لشخص ميت، لابد أنه العفريت الذي لبسه في الصحراء. وقد فعل الناس ما في وسعهم لإعادته إلى عقله، ولكنهم كانوا سعداء بعد أن أطلق طبيب الحكومة سراحه .. سعادة لا توصف.

سوف أحدثكم أكثر عن عباس فيما بعد، لدى ما هو أكثر عنه، ولكني الآن أصف لكم الذكر الذي قدمه أهل البلد لعلاج عباس، وهي ممارسات معروفة في مثل تلك الظروف والأحوال. فقد كان الناس يعتقدون أن عفريت المرحوم محمود بحث عن عباس ليتخذه وسيطًا، ويستطيع في المستقبل أن ينزل في جسده باطراد لأداء بعض المهام من خلاله. وكان الذكر يُعقد بجوار مقام الشيخ الأنصاري في «قفط»، وكان الهدف إقامة علاقات طيبة بين عباس والعفريت. واعتبر الناس أن عباسًا مخلص للشيخ أشد الإخلاص، فقد أصبح رجلاً يكرس حياته المستقبلية للوساطة بين الميت والحي، ولن يكون لـه أية مشاركة في حياة الناس العادية، ولن يكون قادرًا على الزواج وإنجاب الذرية. ولقد دُعيت إلى ذلك الذكر، دعاني إليه أقرباء عباس. ولما كنت في طريقي

إلى ذلك الحدث المسائي، وكنت ماشيًا ببطء على مشهد من أنوار القمر التي أضاءت خرابات «كوبتوس»، استمتع بمنظر السحب الصوفية أي التي اتخذت شكل الصوف، تناهى إلى سمعي طلقات رصاص، وضربات على الدفوف، إنه غناءُ قادم من القرية المجاورة. إنه عُرس. وذهبت إلى العُرس. جمع غفير من الرجال في جلابيبهم الاحتفالية الجميلة، كانوا يتواكبون عبر الحارات، كثيرٌ منهمم يحملون الشموع في أيديهم، وأحدهم كان يؤرجح مصباح الكيروسين. وكان العريس يتمختر في زيه البهيج في وسط زملائه وأصحابه، وقد أرسل على عاتقيه شالاً أبيض من الحرير. وكان الناس لا يكفون عن الغناء بنشيد العريس - «الورد كان شوك من عرق النبي فتح»؛ كان هناك رجلان من بين الحضور جميعًا، ربما كانا أخا العريس وخاله، لم يكونا يكرران النشيد بالشكل الذي يكفي، وكانا يرمقان العريس بوجهين مشرقين، كأنهما يحملان لـه رسالة جديدة مبهجة. كان الناس سعداء كالأطفال. وأحيانًا كان الموكب يتوقف تمامًا؛ وعلى كل حال كان تقدمه بطيئًا غاية البطء. ثم كان الرفاق يختارون رفيقًا منهم ويتعاونوا جميعًا في رفعه في الهواء. ولكن العريس لم يكن طرفًا في اللعب. كان العريس يمشي بجدية وقد امتلأ بفرح وقور - كأنه كان يدرك هيبة اللقاء السرمدي بين رجل وزوجة، وأن هذا يومه، يوم التقاء نصفي الكون، فكأنه حمل عبء الكون على عاتقه.

وبعد ذلك العرس ذهبت لعباس الذي اختاره عفريت وركبه وسلبه الرغبة في اتخاذ زوجة. وبجوار قبر الشيخ الأنصاري أُعد المكان للاحتفال، فضربت عليه خيمة ضخمة وفُرشت الحصر التي سكنتها عفاريت الوساطة القديمة، والمصابيح استقرت على الجدران ترسل أنوارها الباهرة. وجلس

أتباع الطريقة هناك في نصف دائرة، وكان عباس في وسطهم يرتدي جلبابًا أبيض. وأمام الأخ، في الوسط، جلس شيخٌ بلحية طويلة، وكان يقود الذكر. شرع الشيخ ينشد بشكل مهيب وقور، كأنهم يؤدون صلاة الجماعة. راح الأتباع يكررون: «الله الله». وبإشارة من يده اليمنى أمر الشيخ بزيادة الإيقاع وتخفيفه؛ كان يشير بكفة يده إلى أسفل. وكان الأتباع يكررون: «الله الله» بسرعة أكثر، ثم ينهضون، ويلتئمون داخل دائرة ويقولون: «هو هو» - ويعنون بها «الله» - ثم ينحنون بالجزء الأعلى من الجسد ناحية الأمام. ثم تزداد الأنغام سرعة على سرعة، هو هو هو. وكان أتباع الطريقة يمسكون بأيدي بعضهم بعضًا. ثم بعد ذلك يجلسون جميعًا في دائرة، وكان الشيخ ينشد بأقصى ما عنده من طاقة صوتية يتغنى برقة بأسماء الله الحسنى بأنغام شجية. وكان أتباع الطريقة يرددون الغناء مع تكرار اللازمة. وبذل عباس ما في وسعه ليحذو حذوهم. وعندما كان يصمت كبير المنشدين والجوقة، كنت تستطيع أن تسمع أنفاسه الثقيلة تتردد في جوفه. وكثيرًا ما كانت أنفاسه مضطرة متشنجة كأنها من أثر البكاء الطويل. واستمر الذكر إلى ساعة متأخرة من الليل. وطاف أقرباء عباس بأكواب الشي على الضيوف. والجميع اتفق على أن عباسًا أفضل حالاً الآن. ولكنه التعب كان قد بلغ به مبلغًا عظيمًا، فجلس وحده، يحدق في الجدار.

الباب الثاني

عبد الراضي

الفصل الثالث

أصول عبد الراضي

أتذكر أول مرة قابلت فيها عبد الراضي، كان ذلك في أوائل شهر ديسمبر من العام ١٩٣٣، حين جئت لثاني مرة إلى «كيمان» واستقر بي المقام في بيت سنوسي. وسمعت أن في قرية نجع الحجيري المجاورة، قبل ذلك بستة أشهر، رجلاً قد أصابه مسٌ من شيخ، عفريت عمه بخيت، وأن ذلك العفريت / الشبح كان يعرف كيف يزود الرجل بمعلومات تنضح بالمعجزات. وذهبت مع مساعدي «مهدي»، أكبر أبناء سنوسي، إلى تلك القرية التي تُدعى نجع الحجيري. وقريبًا من طرف القرية الغربي كنت ترى منزل عبد الراضي، وإلى جواره كانت قبة المقام المنحدرة ناصعة البياض، وأمام المقام قامت في رحبة صغيرة شتلة شجرة جميز، وأمام ذلك، في الشارع، حوض سقاية للماشية والدواب العابرة، ونافورة ماء للبشر. وكان رجلٌ عجوز يجلس القرفصاء أمام المنزل، وقفز من مكانه مأخوذًا بالدهشة عندما سألناه عن عبد الراضي. ذلك كان أبوه. قال لنا إن ابنه سوف يأتي حالاً. وأنه ذهب إلى المسجد ليصلي العصر. وجلست. وبعد فترة لم تطل حضر رجلان. أحدهما شد انتباهي في الحال بوجهه الشاحب، ونظراته الحيية المتأملة، وعلى جبينه كان ما يزال يحتفظ بعلامة الصلاة، قال مهدي: «هذا هو الشيخ». وبادرته بالتحية. وجلسنا معًا، يحيط بنا الأقرباء والجيران، وتحدثنا عن الفلاحين والزراعة، وعن بلادي ألمانيا البعيدة، وعن الحرب. ولكن سرعان ما اقتادني

عبد الراضي خلال مدخل منخفض يفضي إلى داخل بيت ريفي. هناك كنا وحدنا، مع أبيه ومساعدي مهدي، ولم يبق إلا أبوه ومساعدي مهدي. سألني عبد الراضي: «هل جئت من أجل الشيخ، هل سوف ينزل؟» قلت: «إن أمكن دعه ينزل لنا». وقال عبد الراضي: «هذا ليس واحدًا من الأيام التي ينزل فيها الشيخ، ولكن ربما ينزل من أجلك». واقتادني عبر باب إلى داخل رحبة صغيرة قريبة جدًا من المكان الذي فيه يعيش. كان هناك ركن مليء بالحُصُر المفروشة ومغطى بسقف من القش. كانت تلك هي الخلوة. وهناك اعتاد عبد الراضي أن يجلس عندما كان ينتظر الشبح، وهنا يجلس حوله طلاب المشورة. ولأن نزول حلول العفريت لا يتم إلا بإرادة الله، فإن هذه الخلوة تُعد من البقاع المقدسة، ولذلك كنا مضطرين لخلع نعالنا - يفعل ذلك كل من يجلس هنا، كما يفعلون عند دخول المساجد سواء بسواء. كان عبد الراضي يجلس متكئًا على الحائط وطلب من أخيه الأصغر أن يعد لـه آنية البخور. وفي دقائق معدودة حضرت السلطانية المستديرة.

وانتظرت بأقصى الشوق «نزول الشيخ، روح المرحوم». وكل من يريد معلومة من الشيخ عليه أن يعطي وسيطه، وكان الوسيط عبد الراضي عندئذٍ، وفي حالة المس، علامة - أي ريحة - من الشخص الذي يريد لـه تلك المعلومة، فإن أردت مثلاً مشورة بخصوص طفل مريض فعليك أن تحضر طاقية الطفل، وإن أردت علاج بقرة أو جاموسة، فعليك أن تحضر شعيرات من ذيل البقرة أو الجاموسة، وإن أردت أية أخبار عن شخص يعيش في الغربة أو بعيد عنك، فعليك بإحضار شيء يخص هذا الشخص. هذه الأشياء توضع في يد الممسوس. فإذا أردت أخبارًا عن أحوالك الخاصة بك، فعليك أن

تعطي الشيخ منديلك أو طاقيتك أو حزامك أو تكتفي بمد يدك إلى الشيخ. وتلك العلامات ينبغي أن تكون مصحوبة بعطية، أو هدية صغيرة، مبلغًا من المال. وقد وضعت في منديلي قرشين صاغ، وأملي أن أسمع أخبارًا عن أقربائي، أو على الأقل عن أسرتي. وكان عبد الراضي يجلس هناك في هدوء تام وعينيه نصف مغمضتين. ومن وقت إلى آخر كان يؤرجح جسده يمينًا وشمالاً. وكان يرمي حبات قليلة من البخور في الجمر المتقد، فيصعد خيط نحيف من الدخان. ولابد للدخان أن يدخل أنفه. ونهض بخفة من وضع القرفصاء إلى الركوع، وأمسك بسلطانية البخور، وقربها من فمه واستنشق الدخان بشيء من الشره، كأنه يزدرده إزدرادًا بملء الفم. ثم يلقي بالسلطانية كيفما اتفق على الحصيرة، حيث ستتناولها روح المرحوم أبيه حامد وتضعها في الوضع السليم. لقد أصبح عبد الراضي الآن شخصًا آخر مختلفًا غاية الاختلاف. وقف منتصب القامة مفعمًا بالنشاط. ولكن عضلات فمه بدت مرتخية تمامًا، وأضحت أنفاسه ثقيلة وسريعة، ولسانه يتمتم عند الشهيق، وكانت شفتاه خاملتين وتنشران اللعاب عند الزفير. وأما عينيه فقد أغلقهما أو كاد. كان يتحدث بصوت عالٍ وفي نوبات متقطعة من الصراخ. كان في البداية ينطق بعض الجمل الدينية - وكانت الكلمات مضطربة، والأصوات نفسها خافتة حيية. وكان الممسوس يبسط يده إليّ. أعطيته منديلي. طوى فيه العملات المالية ودسه تحت الحصير الذي كان يجلس عليه. راح يعصر منديلي ويطويه قليلاً في يده. ثم بعد ذلك راح يتحدث بشيء من المشقة وامتلأت عيناه بالإيماء. ثم بعد ذلك راح يتنبأ برحلة قريبة - «بف بف بف» نطق بهذه الحروف ليعني القطار، وأشار بيده ناحية الجهة القبلية، وصفق بيديه مرتين. وكان ذلك يعني أن الرحلة ستحدث في غضون عشرين يومًا،

حسب تفسير حمد العجوز. وفي أثناء ذلك كله كان الممسوس أحيانًا يضحك بشكل كريه. وقال لي إن لدي ابنين، وأشار بيده أنه يعرف أن أحدهما كبير والآخر أصغر. وبإشارة من إصبعين قال إنهما اثنان. ثم قال: «الزوجة»، وهنا رفع يديه كلتيهما بمحاذاة وجهه إشارة إلى أن شعرها طويل، ومسح على جلبابه ليقول إنها حسنة الهندام. ثم قال عبارة: «كله تمام». ثم قال إن أحد الابنين يلعب الكرة، والآخر يعزف على الناي، أعلن ذلك من خلال الكلمات والإيماءات. وفجأة وقع على الأرض تمامًا، وقع على ظهره حتى أن ظهره ورأسه ارتطما بالحائط الذي كان خلفه. ثم عاد إلى نفسه، واستردت عيناه الحياة من جديد. وحيانا بصوت ناعم متردد «مرحبًا». وبعد توقف لم يطل سأل إن كان الشيخ بخيت قد قال شيئًا أغضبنا. وقلنا له: «لا». وبدا عبد الراضي مرهقًا. فالتناقض بين الصوت الناعم والجسد الرشيق الآن، وبين الصوت العالي والجسد المضطرب فيما سبق كان صارخًا. استطعت أن أدرس عبد الراضي لنحو أربعة أشهر، شاركته خلالها في جلسات لا تُحصى، بعد أن كسبت ثقته، محاولاً فهمه وإدراك تأثير ذلك على الفلاحين.

من جهة أبيه ينحدر عبد الراضي من قبيلة كبيرة تُدعى «النصراب»، ومن جهة أمه ينحدر من عائلة «الطويل». والأسرتان كلتاهما تزعمان انتسابهما إلى أصول عربية، واثقتان من ذلك أشد الثقة، رغم أنهم اليوم قد اختلطت دماءهم بدماء فلاحي الصعيد. وإليك شجرة نسب عبد الراضي:

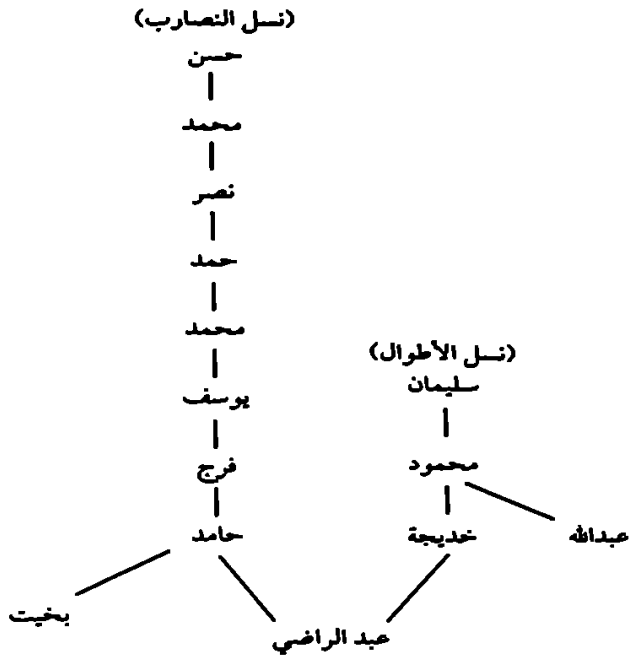

كان عبد الراضي أكبر إخوته. كان لديه خمسة إخوة أصغر منه. وكان أبوه بين الستين والسبعين. وكان يقول إن عمره أكثر من مائة وعشرة أعوام. فعندما تسأل فلاحًا من الصعيد عن عمره فإنه يفضل الزعم أن عمره قد تجاوز العشرينيات، أو أنه في الثلاثينيات ولم يصل إلى الأربعين بعد، حتى بعد وصوله إلى الأربعين بكثير. ولكن عندما يصل إلى السن الذي لا يستطيع معه إنكار الأربعين وما بعدها، فإنه يفضل أن يقدم نفسه شيخًا كبيرًا. كانت أم عبد الراضي سيدة ضامرة الجسم كيفيفة البصر بين الخمسين والستين.

ومن المهم جدًا أن ندرك أن الغرائب الروحية تلك ظهرت في أسرتي عبد الراضي من ناحية الأب والأم.

وأهم شخص في العائلة «بخيت»، وهو أخو والد عبد الراضي. وقد مات بخيت هذا في الواقع منذ أكثر من ثلاثين عامًا. ولم يكن عبد الراضي يعرفه أو

رآه. وكان من طائفة المخابيل (المجذوبين). لم يكن وجهه مثل وجوه سائر الناس. فقد كان اللعاب ينزل من شفتيه ويسيل على ذقنه. وكان أغلب الوقت يحرك فكي فمه كما يفعل الجمل: بو بو بو بو بو. وكان دائم الأكل قليل الشبع ضخم الجثة لحيمًا. لم يكن ينفع في عمل. فإن استُدعي لعمل شيء لا تظفر منه بشيء. وكان قليل الكلام ولا يضحك أبدًا. كان أغلب الوقت يطوف في الشوارع في القرية المجاورة. وكان يقضي الليالي الطوال خارج الحارات والغيطان، وكان يحب التجوال في الصحراء البعيدة. وكان يخاطب الناس جميعًا باسم واحد هو «محمد». وكان كلامه غريبًا طوال الوقت. وما زال الناس يتذكرون أسلوبه في نطق الكلمات، فكان ينطق اسم قرية «براهما» مثلاً «براهاما»، وقرية «الشيخية» ينطقها «عشية». وكانت هناك سيدة تُدعى «مِسكا» كان ينطقها «سمكة». وعندما كان غلامًا سرق بعض الرمان من جنينة عمه حسن، وأعطاهم للأطفال. وضربه عمه لهذا، ولكن اليد التي ضربه بها ورِمت. ومن ذلك عرف أن بخيتًا شيخٌ أو ولي. وعندئذٍ قال لـه: «سامحني». وأجابه بخيت: «سامحتك». وبعد ذلك شُفيت يده. وفي مرة أخرى ضربه أخوه حامد بسبب بطنته وإقباله المسرف على الطعام، ضربه وهو يقول لـه: «كل حياتك أكل في أكل، الأكل المستمر». عندئذٍ بكى بخيت، وخرج، وهام على وجهه عدة أيام في القرى المجاورة. ولكن يد حامد ورِمت أيضًا بسبب كرامات بخيت.

لابد أن بخيتًا كان في العشرينيات من عمره. وذات مرة كان، كالعادة، يهيم على وجهه، وفي عز الليل كان في قرية «الخريشية» القريبة من أبنود في بيت العمدة الذي كان اسمه «مُلا». ولم تظهر على بخيت أية علامة

على مرض معين في تلك الأيام، ولكنه مات فجأة وعلى غير توقع في بيت ذلك العمدة. لم يكن ذلك العمدة في تلك الأيام غنيًا، وإنما كان أقرب إلى الفقر. ولكنه أصر على إحضار كفن لبخيت الذي كان مقيمًا عنده عندما وافاه الأجل، واعتنى أيضًا بمراسم دفنه، رغم أن حامد وصل إلى تلك القرية عندما سمع أخبار وفاة بخيت، وأحضر معه كفنًا. ولكن العمدة «مُلا» لم يقبله، وأصر على أن يتكفل بمصاريف الجنازة والدفن. ورد بخيت الجميل. فقد ازدهرت تجارة «مُلا» بعد ذلك، وأصبح غنيًا بالمال والجاه. ودُفن بخيت في مقابر أبنود. وأصبح وليًا، ولتخليد ذكراه بنى له حامد دوارًا بجوار بيته.

إن روح بخيت هي التي سكنت عبد الراضي الآن وتتحدث من خلاله إلى الناس.

من ناحية أبيه كان عبد الراضي ينتسب لعمه بخيت المختبل، وفي المقابل من جهة أمه كان له خال مضطرب عقليًا أيضًا اسمه عبد الله. وكان أبا عبد الله ويُدعى «محمود» هو جد عبد الراضي، وكان مضطربًا أيضًا. فإذا ما أهانه أحد كان يستقبل الإهانة بنفس راضية، وبسلام نفسي ولا يرد على أي شتيمة أو سب. وكان عبد الله أكثر غرابة في الأطوار من محمود: فقد كان يبدو كأنه قطعة من أبيه. كان الناس يسمونه «عبد الله الطويل»، أو عبد الله المخبول. كان يعمل فلاحًا في «كيمان»، هذا إن كان يعمل شيئًا من الأساس. كان أسمر البشرة ضخم الجثة جبار التقاسيم. كانت عيناه واسعتين بشكل ملفت للنظر، وكان يكاد أن يكون دائم الصمت. وعندما كان أحدٌ يهينه في أثناء غضب كأنه يقول له مثلاً: «ينعل أبوك»، كان يستقبل الإهانة بهدوء ولا يجيب مباشرة كما يفعل الناس عادة. وعندما مات أبوه محمود، ووصل موكب الجنازة إلى

المقبرة كان عبد الله، على النقيض من جميع الناس، سعيدًا غاية السعادة، وكان يقول لجميع الناس: «كلوا كلوا .. الشيلة شيلتي والهم همي». وهذه الكلمات لم يبتدعها عبد الله. وإنما قالها قبله قريب لزم عندما كانوا يدفنون كبير العائلة. ولكن عندما قالها عبد الله المخبول كان لها تأثير خاص على الناس. ومات عبد الله منذ زمن بعيد، ربما من ثلاثين عامًا أو أكثر، مات من مرض ألم به. ونزل عفريته مرات كثيرة في وسطاء كثيرين، على سبيل المثال نزل في امرأتين من منطقة «قفط»، واللتان ماتتا أيضًا. ومؤخرًا طفق يظهر بين الحين والآخر من خلال عبد الراضي. وقد بنى له أقرباؤه ضريحًا في «كيمان». وأما أم عبد الراضي، خديجة، فلم تكن تعيش مع زوجها حامد في نجع الحجيري، ولكنها أقامت هنا نقيبة في ضريح أخيها. وفي الضريح يوجد صندوق خشبي للشيخ مغطى بقماش جميل؛ وعلى طول الحجرة يمتد حبل تُعلق عليه جميع أنواع النذور - مثل ثمار الدوم، وأقمشة ملونة، وراية الشيخ. وتقوم أم عبد الراضي الكفيفة، النقيبة، بالعناية بنظافة الضريح والحُصُر والمصابيح، وتقوم أيضًا بالاحتفاظ بالمفتاح. كانت تستقبل هدايا بسبطة من الزوار، خاصة من أولئك الذين نذروا للشيخ نذرًا، وكذلك لها نصيب في الأضحيات والقرابين.

الفصل الرابع

حياة عبد الراضي قبل المرض الكبير

في عام ١٩٣٣ كان عبد الراضي في الثانية والثلاثين أو الثالثة والثلاثين من عمره. وقد قضى طفولته وشبابه في نجع الحجيري. واستمرت الحياة بين لعب في الطفولة والصبا، وعمل في الغيط فلاحًا كأي شاب فلاح، دون أن تظهر عليه كرامة أو علامة أو شيء استثنائي. وعندما وصل إلى العشرين تزوج من فاطمة من عائلة الشودي. وكانت عائلة الشودي على علاقة طيبة بعائلة أم عبد الراضي، عائلة «الطويل». وظلت فاطمة زوجة عبد الهادي الوحيدة حتى الآن. وكانت العلاقة الزوجية بين الاثنين على ما يرام واستمرت على تلك الحال. وكان ذلك ظاهرًا حتى للغريب الذي يظفر بلمحة عن أهل البيت. وقد ولدت له فاطمة أربعة أبناء، مات الاثنان الكبيران عندما كانا في الثانية من عمريهما. وبقى الاثنان الأصغر حتى اليوم - ولد في الرابعة أو الخامسة من عمره، وبنت في نحو الثالثة في نهاية عام ١٩٣٣ (انظر الشكل رقم ١).

لم يتعلم عبد الراضي القراءة ولا الكتابة، ولم يكن مكترسًا بالأمور الدينية. كان مسلمًا صالحًا وكفى كسائر الفلاحين. ولم يكن يزيد عن كونه مشاهدًا عاديًا من مشاهدي الأذكار الصوفية. ولم يسبق أن زار شيخًا لبسه شبح أو روح. على النقيض من ذلك، عندما كان يأتي الناس على ذكر ذلك كان من اشد المتشككين. وكان يقول دائمًا: «مفيش مشايخ» (بمعنى المشايخ

الذين يُصابون بمس الأرواح). ولم يكن شكه ذاك يمثل موقفًا مائزًا، فقد كان كثيرٌ من النساء والرجال يشكون في الأرواح والمس.

وبعد أن كان عبد الراضي يعمل فلاحًا في نجع الحجيري، اقتنص الفرصة، كما يفعل كثيرٌ من أهل قريته، فظفر بوظيفة عامل بناء يتقاضى المرتب المغري في ذلك الوقت وهو ثلاثة جنيهات في مدينة الاسماعيلية في قناة السويس. ففي خلال السنوات السبع التي سبقت مرضه، كان عبد الراضي يغيب لأشهر في الإسماعيلية ويعمل في مجال البناء المرهق. وكانت فترات إقامته هناك تمتد من أربعة إلى تسعة أشهر. وقبل أن يُصاب عبد الراضي بالمرض مكث هناك أطول فترة وهي تسعة أشهر بعيدًا عن البلد. وعند نهاية هذه الفترة في الإسماعيلية، بدأ المرض يستولي عليه. بدأ هناك بالحمى والرجفة.

وقد سألت عبد الراضي إن كان في السابق في حالة الإصابة بجروح أو مغص أو صداع أو سعال أو ما إلى ذلك تملكه خوف من أن يكون ذلك مرضًا خطيرًا يفضي إلى الموت. أنكر ذلك بشدة. فعندما كان يصيبه شيء في السابق كهذا أو نحوه، لم يكن يأخذه بتلك الجدية الزائدة.

سألته أيضًا إن كان قد تنبأ أو حضره توجس أو تحذير بسبب أحداث ما سواء في اليقظة أو في الأحلام. ولكنه أنكر ذلك تمامًا.

الفصل الخامس

من المرض الكبير إلى النداء

يمكن تقسيم مرض عبد الراضي إلى جزئين. وعبد الراضي نفسه يشعر أنهما مرضان منفصلان. وهو يعني أن المرض الذي أصابه في الإسماعيلية كان نتيجة العمل الشاق، ثم أُصيب بقشعريرة بعد ذلك كله. وعلى المرء أن يأخذ في حسابه أن ذلك الرجل الضعيف ظل يعمل ذلك العمل الشاق لمدة تسعة أشهر في الاسماعيلية. عاد إلى منزله مرهقًا ومتعبًا، عادة مصابًا بالحُمى ونوبات القشعريرة، ثم جاءت الآلام، خاصة في الرأس، وفيما بعد اشتد به الألم في داخل القفص الصدري وفي الساقين. وعندما كانت الآلام تشتد عليه أكثر كان عبد الراضي يشعر بألم الضربات السريعة التي يشعر بها في جمجمته. لم يكن يسعل. الأهم من ذلك كله أن نوبات خطيرة ومتكررة من القيء كانت تجتاحه. وكان عبد الراضي ينسب نقصان وزنه إلى هذا القيء. وفي الليل كانت تجتاحه فترات ثقيلة ينزل فيها العرق غزيرًا، حتى أنك كنت تستطيع أن تعصر قميصه عصرًا. واستمر هذا المرض سبعة أشهر، وكانت الشهور الثلاثة الأولى هي الأقسى. وكان عبد الراضي يشعر أن مرضه طبيعي.

بعد ذلك شعر عبد الراضي أن صحته عادت إليه من جديد، وفي غضون شهرين عاد إلى الغيط والزراعة. طبعًا كان مجهدًا غاية الإجهاد، حتى أنه لم يكن يقدر على العمل الشاق، وإنما على العمل الخفيف، مثلاً كان يغربل القمح بعد درسه على الأرض.

وبعد هذان الشهران شعر عبد الراضي بالمرض مرة أخرى، شعر أن هذا المرض لم يكن طبيعيًا، وإنما هو من عند الله، من الشيخ. لم يكن يعاني من حمى، ولم يعد يستفرغ. كان جسده كله مشلولاً، ولم يكن يستطيع أن يمسك شيئًا بيده. كان يشعر بآلام مبرحة في كل مكان من جسده، وخاصة في الجانب الأيمن. لقد شعر أن الله يمسكه من اليمين والشيطان من الشمال. واستمر هذا المرض ثلاثة أشهر. وطوال الوقت كان عبد الراضي يجلس وكانت ركبتاه مرفوعتين في موضع واحد، ورأسه معلقة على الجانب الأيمن. وكانت عيناه مغلقتين. لم يكن يرى أو يسمع شيئًا مما كان يدور حوله. وزوجته الطيبة فاطمة كانت ترعاه، تصب الماء واللبن في فمه، وتعينه على قضاء حاجته. ورغم أنه لم يكن يأكل كثيرًا، «وقد كان ممتلئ البطن؛ لأن الله أطعمه وأسقاه». وفي أثناء هذا المرض بدأت عظامه تظهر من تحت الجلد، وبعد ما يقرب نصف العام من هذا المرض أصبحت ساقه اليمنى أكثر نحافة بشكل ملحوظ، والجهاز العضلي أكثر ضعفًا من الجهة اليسرى.

١. عبد الراضي مع طفليه. وعلى اليمين مدخل البيت المنخفض.

٢. عبد الراضي في حالة المس. على يمينه يمسك طاقية طفل، أعطتها له إحدى السيدات كـ «ريحة».

٣. عبد الراضي في المس.

٤. عبد الراضي في حالة المس، هنا يصف رحلة، يمد يده أمامه على الخريطة ويقول: بف بف بف.

٥. عبد الراضي في حالة المس، وهذه الضحكة ليست هي الضحكة المبحوحة المعروفة عنه.

٦. عبد الراضي في حالة المس، وطريقته في التنفس أثناء الذكر

٧. عبد الراضي يستيقظ من حالة المس. لقد تهاوى فجأة، وهو يضرب ظهره ورأسه في الحائط خلفه، ويفتح عينيه شيئًا فشيئًا.

٨. قبة ضريح بخيت، متصلة من على اليمين بمنزل عبد الراضي ومدخله المنخفض لا يكاد يظهر. وأمام الضريح سور من القش لحماية شتلات الجميز، وفي الأمام، عند أسفل الجدار الحوض. والواقف هو حامد، والد عبد الراضي مع اثنين من أبنائه.

٩. المدخل الأمامي لضريح بخيت.

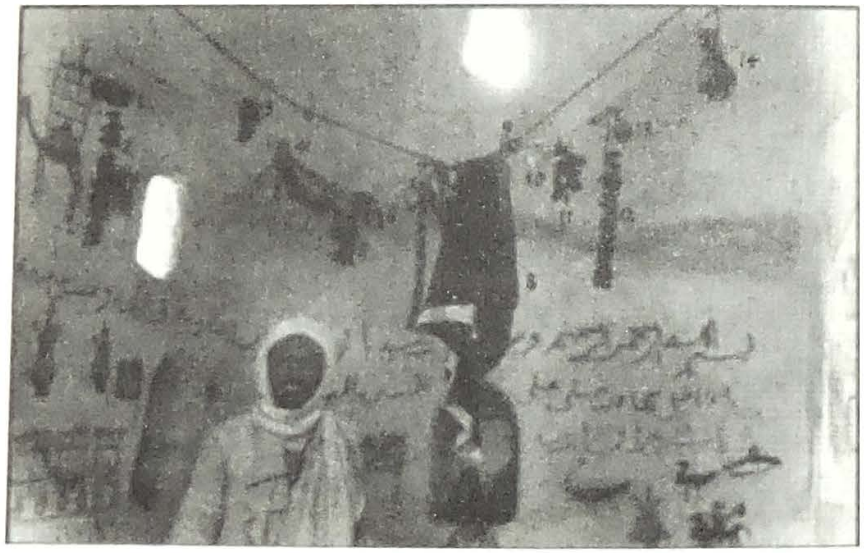

١٠. داخل ضريح بخيت. والنذور معلقة على الحبل.

١١. باب الضريح بين نجع الحجيري وكيمان. صورة حامل الراية ربما أثرت في حلم النداء الذي حلم به عبد الراضي.

الفصل السادس

النداء ونوبات المس غير المنتظمة في الفترة الأولى

بعد ثلاثة أشهر خف المرض بعض الشيء، وأصبح عبد الراضي قادرًا على الحركة بشيء من اليسر، وربما في تلك الفترة كان يشارك في حلقات الذكر بين والحين والآخر. كان يذهب إلى حلقات الذكر يحرك فيها جسده برفق ويهتف باسم الله، أو يكتفي بتكرار الحرفين اللذين يخرجان مع الزفير: «إهـ .. إهـ»، ولهما نفس المعنى. كان أقرباء عبد الراضي يروون ذلك، وعبد الراضي نفسه كان يحتفظ في ذاكرته ببعض هذه الأمور، ذكرى غائمة ومشوشة في ذهنه. وربما كانت حشرجة الهواء والنهيج في صدر عبد الراضي عندما غابت عنه روح المرحوم فيما كان جالسًا القرفصاء هناك هي التي حسبها أقرباؤه ضربًا من الذكر.

وفي منتصف نهار أحد الأيام كان عبد الراضي نائمًا على المصطبة في مدخل بيت الغيط الذي تظله أفرع الشجر. كان أبوه جالسًا بالقرب منه. وعندما استيقظ عبد الراضي، شعر أن عند جهة يده اليمنى بالضبط - وهنا وهو يروي ذلك أشار عبد الراضي إلى وسط جبينه - ثم عند جهة ذراعه الأيمن وساقه اليمنى ماءً يتدفق تررررر. وفهم عبد الراضي أن ذلك من عند الله. كنت تستطيع أن ترى الماء على الأرض، كالماء الذي يتبقى بعد أن تغتسل. وأشار عبد الراضي إلى بركة في حجم قبضة يده. سأله أبوه: «ما هذا الماء»؟ وأجاب عبد الراضي: «وهل أعرف؟» هنالك استولى عليه الشيخ

فجأة، بعبارة أخرى: من تلك اللحظة لم يعد عبد الراضي يعرف عن نفسه والدنيا شيئًا. راح يتجول في الصحراء المليئة بالتلال حتى غروب الشمس. ولكنه وتلك الحال لم تبرحه، ودخل باحة بيته وألقى بنفسه على ركبتيه، «فقد قال لـه الشيخ «يخخخ»، و «يخخخ» هذه تلخص النداء الذي يطلقه الجَمَّال للجمل ليأمره أن يبرك. وفيما بعد رقد عبد الراضي يلتمس النوم، رغم أنه لم يعد قط إلى حالته العادية.

وفي هذه الليلة حلُم عبد الراضي حلمًا غير مجرى حياته تمامًا. فقد رأى شبحًا يرتدي قميصًا أبيض وبنطلونًا أبيض، ويضع على رأسه شالاً، ووجهه منبسط الأسارير، وكانت عيناه واسعتين، ولـه لحية سوداء داكنة السواد، طولها كذراع تنطلق إلى الأمام. وكان ذلك الشبح يحمل قصبة خضراء تلتحق بها راية بيضاء. وتقول الروح «خد»، وأخذ عبد الراضي الراية من يده. وتكلم الشبح: «أنا عمك بخيت، وأنت قاعودي». ثم جلس الشبح على كتفي عبد الراضي.

بتلك الطريقة وقع الاختيار على عبد الراضي، اختاره عمه بخيت وناداه. وبعد تلك الليلة بيومين، وفي يوم جمعة، لبسه الشيخ، وأصبح عبد الراضي ملبوسًا من شبح الشيخ.

ووضع الحُلم نهاية لمرض عبد الراضي المؤلم الطويل. لقد مهد المرض لاختراق وعي عبد الراضي. في المستقبل لن تجد عبد الراضي هو عبد الراضي الأول، ولكنه سيكون عبد الراضي التابع للشبح الذي يسيطر عليه تمامًا، ويستخدمه استخدامًا، ويمتطيه كما يمتطي الراكب دابته، سوف يكون عبد الراضي خادمًا للشبح الشيخ بخيت. وأخبرني عبد الراضي أن

الشبح لم يتحدث إليه مرة أخرى، رغم أنه كان يراه كثيرًا في الأحلام. وقد جاءه النداء قبل ستة أشهر تقريبًا قبل أن أبدأ أنا في بحثي في ديسمبر عام ١٩٣٣. والفلاحون لا يسجلون الأحداث بالترتيب التاريخي، وعبد الراضي الذي يستضيف شخصين أو أكثر ليس لديه بالتأكيد حس تاريخي. وإنما حفظ مضمون حلم النداء بما انطبع في ذاكرته واستقر بسبب قوة الحُلم نفسه. ولكن كثيرًا من التفاصيل الأخرى جاءت فيما بعد تخص بخيت والتحقت بتلك الحادثة الفارقة، حادثة الحُلم النداء، بعضها ربما جاء من أحلام أخرى. وربما جاء الجزء الأكبر منها من الروح الساكنة نفسها - رغبات ومعلومات من بخيت وصلت لعبد الراضي من خلال أقربائه بعد أن استيقظ من المس، أي بعد رحيل بخيت. وسعى عبد الراضي إلى الاستفادة من تدخل بخيت في روحه في الحُلم / النداء. واليوم نجد أن كثيرًا من وصفات بخيت تنطلق من الحُلم النداء، حتى ليبدو أن تلك المعلومات والأمور الكثيرة لا يمكن أن تصدر من حُلم واحد. وأنا هنا أريد أن أؤكد أن جوهر الحُلم / النداء إزاء تلك الإضافات التي أضيفت فيما بعد يبدو محدودًا للغاية. دعونا الآن نمعن النظر فيما استطعنا جمعه حول الحُلم / النداء.

وقد رأينا مما رويناه أعلاه حول الأولياء والميتين في منطقة «قفط» أن روحًا تسكن شخصًا ما وتظهر من خلاله بعد أن تجعل منه وسيطًا، ثم تطلب من أقربائه أن يبنوا له ضريحًا تذكاريًا أو مقامًا. وهذا أيضًا أول شيء طلبه بخيت عندما تجلى بنفسه من خلال عبد الراضي. فبعد أن أستيقظ عبد الراضي من حلمه راح يناقش هذا الطلب مع أهل بخيت وأقربائه. وقد سمع عبد الراضي - وهو الذي لم يتذكر ما قاله بخيت من خلاله عندما سكنه -

عن هذا الطلب، وأصبح هذا الطلب من المفردات الأساسية في مضمون الحُلم / النداء. وهو أن يُبنى له ضريح باسمه بجوار البيت، وأن تُزرع شتلة شجرة جميز أمام الضريح حتى يمكن لهذه الشجرة في المستقبل أن تُظل الضريح وبه يمكن أن تنعش المار وتهدئ من روع عابري السبيل. والطلب الأخير أن تنشأ نافورة مياه أمام شجرة الجميز على ناصية الشارع مباشرة، نافورة عامة أو «سبيل».

وسرعان ما انشغل عبد الراضي بما يمكن أن يحدث لـه ولأولاده بسبب هذا المس، فقد أصبح من الواضح أنه لم يعد لديه القوة العادية التي عند الفلاحين، ولن يكون في مقدوره استعادة قوته في قابل الأيام، فقد أصبح رجلاً مسكونًا بالروح. ولكن وجد العزاء في قوة الروح بعد الحُلم / النداء وقد أخبره الشيخ بخيت حين آنس منه خوفًا على مستقبله: «أنا أديلك من زرق الله».

واكتشف عبد الراضي أنه على الرغم من القوة التي كانت تعود إليه بالتدريج كان عاجزًا عن أن يغشى زوجته كما كان يفعل في الماضي. وهنا تدخل الشيخ بخيت أيضًا وشرح لـه. وقد دخل ذلك أيضًا في الحُلم / النداء. قال لـه: «حلول روح الشيخ فيك كرامة من الكرامات، أو بركة من البركات، ونعمة من نعم الله عليك». فمن وقع عليه الاختيار لاستقبال هذه النعمة عليه أن يهجر لذات الزوجة والأبناء».

وما لبث أن حظي أقرباء الشيخ بحظهم من الأحلام، فقد أصبح الشيخ يظهر في أيام معينة وفي أوقات بعينها. وكان عبد الراضي أيضًا يفهم أن هذا الاطراد قد تحدث عنه في الحلم / النداء.

وقد أصبح المس يسيرًا باستنشاق البخور، والتي يسرت أيضًا الانتقال إلى حالة المس. ويُفترض أيضًا أن بخيت قال في الحُلم / النداء أن بخور «الجاوي» بالذات هي المحببة لـه.

فالمس بالروح حادث ديني. ومعروف أن استعداد عبد الراضي وحماسه في الأيام التي كان يتوقع فيها نزول الروح في جسده، كانت تبدأ قبل حلول الروح بساعتين بالصوم، بعبارة أخرى، كان يتجنب الأكل والشرب. وبعد الصلاة يُعد الصوم من أركان الإسلام المهمة جدًا عند المسلمين، ولذا يصبح بالتأكيد من الخيارات الواضحة. ويُقال أيضًا إن الشيخ بخيت نفسه قد أمر بالصوم في يوم الحُلم / النداء.

ونحن نعرف عن بخيت التاريخي الذي كان يحب الطواف حول تلال الصحراء. ففي أثناء المس يتحدث بخيت من خلال عبد الراضي، وكان ينطق بين الحين والحين بأبيات من الشعر الصوفي المتصلة بالصحراء والأولياء. وربما نشأت تلك الأبيات في حلقة من حلقات الذكر، أو وردت في قصيدة من قصائد الأذكار. وربما نطق بها بخيت نفسه في الحُلم النداء، وقد سمعت تلك الأبيات مرتين على الأقل من عبد الراضي بينما كان في حالة المس. ومن الطبيعي، وبسبب ذلك التكرار، أن أصبحت أيضًا معروفة لأقارب عبد الراضي بوصفها من صميم التفكير. وذات يوم عندما كان عبد الراضي يزورني وكنا جالسين على المصطبة وبيننا حوار حميم، سألته مرة أخرى عن تلك الأبيات. وقال عبد الراضي إن الشيخ بخيت كان يحب تلك الأبيات لأنه كان يحب الوحدة. ثم راح يمليهم عليّ كلمة بعد كلمة، بطريقة من يريد توصيل معلومات سرية ومغرية للغاية لصديق حميم. كان صوته رفيقًا خاضعًا

ومفعمًا بالعاطفة. وبعد أن سجلتها وقرأتها مرة أخرى قال لي: «شيء جميل جدًا»، وإليكم الأبيات:

ياما في الجبل سواح

الشوك واللحلاح

حِلي ليهم

جوا المقام

راخيين أدابيهم

برا يا خالي برا

لسيبلك بلاويهم

يا بو منطال

... مالي منين

من مزاينهم

لا سلبة ولا منطال

القطب زايرهم

هذه أبيات مجتزآت، ولا نستطيع فهمها بوصفها نصًا متسقًا، وإنما هي صور أُلحق بعضها ببعض، وأغلب الظن أنها صور لا معنى لها، أو هي أقرب إلى الإسكتشات التعبيرية. ولا نجد لها معنى إلا في تفسيرات عبد الراضي والمشايخ والأرواح. فهي تتحدث عن ناس يتجولون في الصحراء، ويأكلون ثمارها المرة، وتبدو لهم حلوة. وهذا ما ينشده المنشدون في حلقات الذكر، أن الثمار المرة مثل اللحلاح أو العلقم تصبح حلوة في أفواه أرواح الزار.[1] والمقام هو مقام القداسة أوالمكان المقدس الذي يقوم فيه ضريح الشيخ، وتسكنه الأرواح، والخالي هو ذلك الشخص الذي لا ينتمهي للمشايخ، وعلامته إرخاء العمامة والشال. فهو متطفل على الأماكن المقدسة، ومن حق سكان المكان طرده. وأما الرجل صاحب «المنطال» فموجود، لأن المنطال في الأساس إناء مليء بالمعجزات والكرامات. الزير إناء كبير يضع فيه الفلاحون الماء حتى يبرد، يضعه الفلاح أمام بيته، يشرب منه حتى عابرو السبيل. وأما الإشارة هنا فلزير الشيخ. والقطب فهو الحامل الكوني اللغز للمعرفة الإلهية في كل عهد حسب تعاليم المتصوفة المسلمين.

تلك هي الأوصاف التي رسمت الحياة الجديدة لعبد الراضي، ولم تأتِ كلها في حُلم واحد عن لـه، وإنما جاءت بالتدريج في الأيام الأولى للمس.

---

(١) واضح أن المستشرق فينكلر لم يفهم الشعر العامي الصعيدي الذي يُنشد في الموالد، وظنها صورًا لا معنى لها!! ولكن الأبيات تتحدث عن المجذوبين من أولياء الله الصالحين الذين يطوفون أغلب الوقت في الصحراء، وأن ثمار العلقم المرة حلوة في أفواههم لأنهم يختلفون عن سائر الناس، وأنهم أناس لا يدل مظهرهم على جوهرهم، فهم مؤدبون في حضرة الولي، فوضويون عندما يبتعدون عن المقام، والمتكلم هنا يستغرب من صاحب المنطال (وهو إناء من الفخار يضع فيه الناس في الصعيد السمن البلدي غالبًا) الذي يجد مليئًا على الدوام دون معين يملأ منه، ولكن سرعان ما أرجع ذلك إلى الولي الذي يجود عليهم بالنُعم. [المترجم]

ومن ثم ألحقها عبد الراضي دون وعي منه للحلم / النداء لأنه وجد فيها تجسيدًا للعلاج النهائي والقوة الناتجة.

ونحن مضطرون مرة أخرى إلى أن نضع أنفسنا في الحاضر، في اللحظة التي جاءت مباشرة بعد النداء، لكي نرى كيف أن نمط حياة عبد الراضي الجديدة قد تغير تغيرًا تامًا.

أولاً أن أقارب عبد الراضي لم يكونوا قط سعداءً بأن عبد الراضي أصبح ممسوسًا من قِبل الشيخ. فمن ناحية كانوا يشكون بشكل عام في الموضوع؛ ومن ناحية أخرى أن الشيخ جاء بطلبات غالية لا قِبل لعبد الراضي بها. فأول طلبات بخيت هو أن يُقام لـه مقام، وأن تُزرع له شجرة جميز، وأن تُنشأ له نافورة مياه أو سبيل أو حنفية عمومية. ومن أجل التكفل بكل هذه الطلبات أخبر بخيت حامدًا، أخاه: «ادفع ثمن الكفن». ونحن نتذكر أن عمدة قرية الخريشية، الذي مات بخيت في بيته، هو الذي تكفل بثمن الكفن الذي دُفِن فيه بخيت، وثم أُعفي حامد من المصاريف. ومعروف أنه لم يكن يحب هذه الذكريات الخاصة بالدَّين الذي مر عليه أكثر من جيل. على كل حال أحضر حامد عشرة قروش صاغ وسلمهم لعبد الراضي الذي كان عندئذٍ يجسد الشيخ بخيت. وعندئذٍ غضب الشيخ: «ماذا؟ عشرة قروش؟ أضف إليهم ريالاً كاملاً، أو عشرين قرشًا». وغضب حامد لأنه لم يكن يمتلك ريالاً. عندئذٍ حدثت المعجزة المؤلمة، فقد حامد النطق. ولم يُشف من خرسه إلا بعد أن أحضر الريال. وبعد أن حضرت هذه الأموال بدأ تشييد المقام.

وما انتشرت أخبار الشيخ الجديد الذي ظهر في نجع الحجيري حتى جاء الناس يلتمسون المشورات والبركات. ومن يريد المشورة يحضر معه

«الريحة»، أو شيئًا يستخدمه الشخص الذي يريدون المشورة من أجله، والريحة مصحوبة بمبلغ من المال أعطية للشيخ. والآن يريد الأب (حامد) أن يأخذ النقود من ابنه بعد أن استيقظ من مسه، فهو يقول: «إن الشيخ بخيت في النهاية أخي». وهنا غضب بخيت ورفض النزول. وكان عبد الراضي راضيًا بذلك. ومرت أيام ليست بالقليلة لم ينزل فيها الشيخ. وبدأ عبد الراضي يعمل في الحقول بعض الشيء. ثم بعد ذلك بأسبوع بينما كان في الحقول وكان يحمل الفأس، أخذه الشيخ فجأة. سقط عبد الراضي في المس وراح يضرب نفسه بعنف بيديه، على وجهه وجسمه وساقيه. وراح يقول: «الشيخ يضربني». ثم وهو في هذه الحالة من المس راح يعدو إلى البيت وجلس هناك في المكان الذي اعتاد أن يجلس فيه في الباحة. ومنذ ذلك الحين أصبحت إقامته في البيت والشيخ ينزل إليه بانتظام.

أصبح الناس اليوم ينظرون إلى موضوع «مس» عبد الراضي بشيء من التعاطف. ولو أنهم ما يزالون يشكون أن روح بخيت هي السبب. وظنوا أن السبب هم أهل العالم السفلي، أو الجن، أو أن شيطانًا منهم هو الذي لبسه مختفيًا في صورة بخيت. ولذا أستدعى أقرباء عبد الراضي عالمًا ليرى الموضوع، ويطمئنهم. وراح العالِم يقرص عبد الراضي في لحمة أذنه أثناء المس، ويتلو آيات من القرآن الكريم، من سورة العرش بشكل خاص، يتلوها عند أذنه مباشرة، وهو يطلق عبارات التهديد لهذا الشيطان، لعله يخرج. ولكن في تلك الأثناء تحدث بخيت على لسان عبد الراضي قائلاً: «لست من الجن، أنا بخيت. لعبد الراضي أن يغتبط بوجودي فيه، ولكم جميعًا أن تفرحوا لهذه الكرامة». ثم أراد الشيخ أن يبرهن على صدق ما يقول فراح

يسرد ذكرياته، وكيف كان ذات يوم في ظروف كذا وكذا يسرق الرمان من جنينة عمه ويرميها، وكيف تعرض للضرب بسبب ذلك. وراح يذكر حامد كيف ضربه ذات مرة لأنه أسرف في الأكل، وكيف أنه، أي بخيت، مضى غاضبًا يبكي. وهكذا أثبت بخيت المخبول الساذج أن ذاكرته لا بأس بها، وأن القوم شهودٌ على ذلك، فعرفوا الآن على وجه التحقيق أنه حاضر فعلاً داخل عبد الراضي. وقد قوي هذا اليقين لأن الشبح أصبح يعود بين الوقت والآخر، وأنه لم يقتل عبد الراضي كما تفعل الشياطين التي تلبس الناس في العادة.

الفصل السابع

أحاديث المس المطردة

الزمان والمكان

كان الشيخ بخيت يظهر في عبد الراضي يوم الاثنين وحتى صلاة العصر، ويوم الأربعاء بعد صلاة العصر، وطوال يوم الخميس، ويوم الجمعة حتى صلاة الظهر. وفي تلك الأوقات كان عبد الراضي ينسحب إلى الخلوة، تلك الباحة التي صنعها في البيت والتي تُعتبر مكانًا مقدسًا، حيث الحُصُر المفروشة، والسقف القش الذي يظلها. وكان الزبائن يأتون إلى هناك. وكان هناك فصل بين الجنسين. كان النساء عادة يأتين أولاً؛ وعندما يفرغن يدخل الرجال. وفي المكان الأوسع أمام باحة الخلوة يمكن للزوار أن ينتظروا؛ هناك يجدون مصاطب من الطين تظللها الأشجار، وحبل مشدود على الأرض يمكن استخدامه في ربط الحمير. وكان عبد الراضي يذهب بانتظام إلى خلوته في الوقت الذي يتوقع أن ينزل فيه الشيخ. وكان واثقًا من أن الشيخ يأتي في الوقت الموعود تحت أية ظروف، بصرف النظر عن المكان. ولكنه كان يقلق من غضب الشيخ، أو أن يظهر مهمومًا إن لم يجده، يجد عبد الراضي، في مكانه المعتاد. وظهور الشيخ لا علاقة لـه بوجود زبائن من عدمه. ولكن في نفس الوقت لا تستمر فترة المس طويلاً إن لم تكن هناك أسئلة للشيخ.

بداية تثاؤب المس ونهايته

في الأيام التي ينزل فيها الشيخ يتثاءب عبد الراضي بشكل متصل، ومرات كثيرة جدًا، تبدأ نوبات التثاؤب لديه قبل دخوله في المس بساعتين. ويتثاءب أيضًا في أثناء الفترات الفاصلة بين نوبتي مس مثلاً. وذات مرة، ولأن حادثة المس نفسها كانت تأتي ببطء شديد، رحت أحصي مرات تثاؤب عبد الراضي، وجدت أنه تثاءب ثلاثين مرة في ربع ساعة. فاستقر لديّ انطباع أن عبد الراضي لم يكن قادرًا على التثاؤب بالكمية التي ترضيه.

حرق البخور واستهلال المس

وحرق البخور معروف في مصر ومحبوب، طريقة لتحسين المزاج والحالة النفسية. فأنت تجد حارقي البخور في الحارات والمقاهي، فقراء شبه متسولون يؤرجحون آنية البخور لعلهم يظفرون ببقشيش بسيط لقاء تحسينهم أمزجة الجالسين. وللبخور فائدة أيضًا لا تُنكر في علاج الأمراض، أمراض البشر والدواب. كما أنه يُستخدم في المساجد، ولكن الصدق أقول إني لم أطلع على استخدامه في المناطق الريفية القريبة حول «قفط»، وفي أي المناسبات يستخدمونه. وحين يستخدم عبد الراضي البخور فإنه لا يأتي بجديد. ولكن تأثير البخور على عبد الراضي يعنيني جدًا شخصيًا، وأعُده من الأمور المهمة للغاية.

وآنية البخور التي يستخدمها عبد الراضي عبارة عن جرة كروية من الصلصال لها يد (انظر الصورة). نصفها الأسفل يوضع فيه العنبر، بينما لا يُغلق الجزء الأعلى، بل له ثلاثة أضلاع كل ضلع يمكن أن يكون المقبض.

ثم تجتمع تلك الأضلاع في النهاية لتكون كأنها طبقٌ صغير أعلى الإناء. وفي هذا الطبق الصغير تستقر بذور البخور. ويستخدم عبد الراضي بخور الجاوي، لأن رائحتها حلوة للغاية، وقد عرفنا من عبد الراضي حب الشيخ لهذا النوع من البخور.

فيمكنك أن تأخذ بذرتين من الطبق الصغير وتلقي بهما في العنبر، فتجد على الفور خيطًا نحيفًا من الدخان يخرج ويتحرك إلى أعلى.

قال عبد الراضي: «إن الشيخ بخيت يحب البخور، فإذا أتى ولم يجد البخور فإنه يغضب ويضربني»، بمعنى آخر أن المس يبدأ بشكل عنيف، وجسد عبد الراضي يهتز بقوة، ويقشعر بشدة. لهذا السبب يستخدم عبد الراضي البخور ليستهل به أول نوبة مس في اليوم عندما يتوقع قدوم الشيخ. فإذا استيقظ عبد الراضي من المس بعد عشر دقائق، أو ربع أو نصف ساعة، أو حتى ساعة كاملة - الوقت يتغير بشكل كبير - فإن النوبة الثانية أو الثالثة من المس تبدأ بوضع بذور جديدة من البخور، ولكن تلك الحوادث المتأخرة من

المس أحيانًا تأتي دون إعداد. أيضًا عندما يريد عبد الراضي التحريض على نوبة مس بعيدًا عن الأوقات المتفق عليها، فإن البخور يعينه على ذلك - ليس بالضرورة، ولكنها القاعدة.

وقد ذكرت قبل حين كيف واجه عبد الراضي ذات مرة صعوبة في الدخول إلى حالة المس، وكيف كان خلال فترة الانتظار التي طالت يتثاءب المرة تلو المرة. فلعبد الراضي أخٌ أصغر منه في نحو الثامنة عشرة، غالبًا يعتني بهذه الأمور، كإضاءة الجمرات في إناء البخور وإلقاء بذرتي بخور عليه. ويكون عبد الراضي مقعيًا على الأرض، في نصف وعيه تقريبًا. وما إن تصل البخور إلى أنفه، فإن المس يأتي فجأة وبحدة. حينئذٍ يسقط عبد الراضي على ركبتيه، ويلتقط الإناء، ويقربه من وجهه، ويزدرد الأبخرة ازدرادًا من خلال فتحتي أنفه وفمه وبرغبة ملؤها الإحساس الصريح. يمكنك أن ترى «بخيتًا» وهو يستنشق البخار بشيء من الشوق والنهم. وكثيرًا ما يكون العبق الأول كافيًا لحضور روح الشيخ، ولم يكن يحدث ذلك الاستنشاق العميق في كل مرة. على سبيل المثال، ذات مرة كان عبد الراضي جالسًا القرفصاء ينتظر بداية المس. وراحت تعبيرات وجهه تتقلص شيئًا فشيئًا بشكل ملحوظ. وهنالك راح يهز جذعه بشكل رشيق جدًا من جهة إلى أخرى. ولذا فعندما كان بخار البخور يصل إلى وجهه، فإنه كان يبدأ في القشعريرة بشكل خفيف. لقد تحقق المراد وبدأ المس.

قصر النفس

ذلك الاستنشاق للبخور وتأثيره على عبد الراضي يلفت انتباهنا إلى معنى النفس والتنفس لحالة المس. ونحن نستطيع أن نتذكر التثاؤب الذي

يحدث قبل المس. ودائمًا ما كان لدى الانطباع بأنه، عند انطلاق المس، كان عبد الراضي يبدو كأنه يستعد لموجة عاتية تجتاحه - فقد كانت أنفاسه تتسارع وبشكل تشنجي، كأنه على شفا الغرق. وكانت الكلمات التي يريد أن ينطقها في البداية - مختصرة ناعمة بشيء من الشهيق الخفيف، تبدوا أقرب إلى نداء بطلب النجدة يطلقه شخص يغوص في الماء. وبعد هذا «الغرق» الذي يسببه اقتحام الشيخ، يستعيد عبد الراضي أنفاسه، ويبدأ صوته رويدًا رويدًا في العودة إلى سمته الراسخ والقوي.

النهاية

سوف نصف ظهور بخيت والأرواح الأخرى التي كشفت عن نفسها في الممسوسين بعد أن نفرغ أولاً من وصف كيف تنتهي نوبات المس. إن نهاية المس نهاية درامية مثل البداية تمامًا (انظر اللوحة ٧).

فأثناء المس كنت أشعر طوال الوقت أن شخصًا آخر، مثل بخيت، أو أشخاصًا آخرين، أرواحًا أو أشباحًا أخرى، ظهرت فعلاً في عبد الراضي وتحدثت. طبعًا الأداء الصامت والتغيرات الصوتية من الممكن أن تكون داخلة في قدرات عبد الراضي الطبيعية. ولكن كانت لكل روح أو شبح خصائصه الفردية التي يتفرد بها وتميزه عن سائر الأرواح والأشباح الأخرى، وبطبيعة الحال تميزه عن عبد الراضي نفسه. فما إن يبدأ المس دون وساطة، فإنه ينتهي بنفس الطريقة. غالبًا ما يبدو الأمر مفاجئًا تمامًا، في وسط إعلان كنت ترى وجه عبد الراضي المتشنج ينهار. وتجد جذعه المستقيم في العادة، والواقف على ركبتيه، يسقط إلى الخلف على عقبيه، وظهره يتشنج ويصطدم بالحائط التي يجلس أمامها عبد الراضي، وحتى الرأس تصطدم برشاقة بتلك

الحائط. فيبدو كأن جسدًا لشخص ما كان مستقيمًا وواقفًا بعون من يد أخرى تتخلى عنه تلك اليد فيتهاوى فجأة كأنه سقط من شاهق، جسد لم تعد تعينه إرادة فيتهافت كما تتهافت أجساد النائمين. وكانت عينا عبد الراضي في أثناء المس إما مغلقة تمام الإغلاق، أو أن الجفنين يقعان على الحدقتين؛ نادرًا ما كانت العينان مفتوحتين على اتساعهما، ولذا توارت النظرات.

وبعد القيام من نوبة المس، والعودة إلى الطبيعة، يفتح عبد الراضي عينيه رويدًا رويدًا، وإن كان مرهقًا، تعود نظراته إلى حدتها الطبيعية، وتُظهر تعبيرات الوجه معاناة شديدة، ويبدو الصوت حيًا ضعيفًا. وفي البداية يكون في نصف استيقاظ، وهنا كان عبد الراضي يتلو على الحضور شهادة الإسلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله». ثم يطوف عبد الراضي ببصره فيمن حوله، من الجالسين معه، وغالبًا ما كان يحييهم، وقد أخذته الدهشة من وجوده في وسطهم.

ودور النَفَس غير منكور هنا. فقد كنت كثيرًا ما ألاحظ كيف كان عبد الراضي، في نهاية نوبة مس طويلة، يجذب بشكل متوتر أرنبة أنفه وجانبيه، ويضع أصابعه قليلاً في المنخرين، وذات مرة ضرب نفسه على الأنف. ومعنى هذه التصرفات أصبح واضحًا حين ضغط ذات مرة برشاقة على حافتي أنفه وقال: «رُوح». ولذا وضح أن عبد الراضي كان يستنشق الروح مع أنفاسه، ثم يطلقها مرة أخرى مع الزفير. وسوف نعود بعد حين، لنرى إن كان عبد الراضي، في ذلك المثال الأخير، بينما هو في حالة المس من بخيت، قد نهض فعلاً وحاول التخلص من الروح من أعمق أعماقه.

أرواح المس وبخيت

عرفنا أنه عندما كان بخيت على قيد الحياة كان رجلاً ساذجًا ضعيف العقل، عاجزًا عن القيام بأي عمل، ولكنه كان حاملاً لكرامات غامضة، منها الضار ومنها النافع. وبعد جيل[1] من وفاته ركز حبه في عبد الراضي واختاره ليكون جبله الذي يمتطيه، وحول هذا الفلاح إلى باب بين عالم البشر وعالم الأرواح، أرواح الأموات. لقد أصبح بخيت سيد عبد الراضي وراكبه، ولكن أرواح أناس آخرين راحلين كانت تمر أيضًا من خلال هذا الباب التماسًا للاتصال ببني البشر. وكل شبح له ملامحه وسماته الخاصة به والتي يُعرف بها.

لقد أخبر بخيت عبد الراضي في الحُلم / النداء: «سوف تكون جملي». والجمّال يقول للجمل: «يخ» فيبدأ الجمل في «النخ» أي الهبوط، يثني ركبتيه ببطء في البداية ثم ينزل بجسده الضخم على ركبتيه فيتهافت على الأرض بحكم الوزن، ويستقر على الأرض ببطنه ورأسه مرفوعة.

ذلك الركوع الطوعي الخاضع الذي يقوم به هذا الحيوان الجبار يترك انطباعًا في النفس. فعندما استولى الشيخ بخيت على عبد الراضي، يستطيع المرء أن يرى أن عبد الراضي تحول فعلاً إلى قاعود خاص بالشيخ بخيت، أي جمله الذي يمتطيه. وقد رأيت كيف جلس عبد الراضي القرفصاء في مكانه، واستعد لاستقبال المس. في هذه الحالة أصبح وجهه سلبيًا هاجعًا، وشعرت أن وعيه بدأ يغوص في المجهول، ثم فجأة نهض، ورفع رأسه، وأنهى وضع

(١) الجيل من ٢٠ إلى ٣٠ سنة [المترجم].

القرفصاء، واندفع بركبتيه كأنه يتسلق الهواء؛ لقد تهاوى الجمل على ركبتيه والراكب واقف مستعد. إن النهوض إلى وضع الركوع هي العلامة المائزة التي تشير إلى ظهور بخيت.

وقد سجلت أن دخول بخيت جعل عبد الراضي يمسك أنفاسه، وأن أنفاسه انطلقت فجأة في نفس الوقت، حتى إن المس عندئذٍ اجتاح عبد الراضي كأنه الموجة العاتية. وفي مرات كثيرة يبدأ عبد الراضي في الشهيق والزفير كأن عضلات فمه أصابها الشلل، فيتخبط اللسان في مكانه مع الشهيق متذبذبًا في الفم مخرجًا صوتًا أشبه بقرقرة الجمل، ثم تضرب أنفاس الزفير الشفاه المتثاقلة لفم شبه مغلق. وتتأرجح الشفاه كما يحدث لها حين نقلد شخير حصان. ويستطيع الجمل/ الرجل أن يُخرج صوت قرقرة خاصة من صدره، بينما تندفع رغوة حلقية أمام فمه. وليس غريبًا ولا صعبًا أن تكون قرقرة عبد الراضي وشخيره في بداية مسه من قِبل بخيت تجسيدًا للجمل الجاثم. ونحن نتذكر أيضًا أن الشيخ بخيت حين كان على قيد الحياة يُقال إنه كان يهرف بأصوات مائزة تخرج من شفتيه: بوبو بوبو.

وفي أوقات غير قليلة عند نوبة المس من الشيخ بخيت نلاحظ وجود أشياء لها صلة بالذكر، وعادة ما تجيء مباشرة بعد القرقرة والشخير، وأحيانًا في وسط الرسالة التي يريد توصيلها. عندئذٍ كنت أرى عبد الراضي يقف منتصبًا على ساقيه، ويؤرجح جسده كله ببطء يمينًا ويسارًا من الأمام إلى الخلف، ورأسه قد مالت قليلاً إلى الخلف ووجهه اكتسى بتعبيرات فيها وقار وهموم، وتصبح أنفاسه قصيرة مقتضبة، يتنفس مرتين أو ثلاث مرات بينما

كان يطلق من قاع فمه حروف الـ هـه هـه هـه، ثم يطلق الزفير بخفقة طويلة هـ هـ، ثم يواصل التكرار بإيقاع سريع [انظر اللوحة رقم ٦].

وكان بخيت يستخدم التعبيرات الدينية في بداية مسه باطراد كبير. مثلما كان يفعل عبد الراضي عندما كان يستجمع شتات نفسه أو يستيقظ من المس، فإنه يكرر الشهادتين في البداية، وهكذا كان يفعل بخيت حين يستخدم تلك التعبيرات ليقدم نفسه بوصفه الروح المؤمن وليس الروح الكافر. وكثيرًا ما كان الصوت في بداية نوبة المس، وقد اختفى اللهاث، منخفضًا ورقيقًا. وكانت الكلمات تنطلق كأنها خائفة من شيء ما. وكثيرًا ما كان يقول: «المسلمون جميعًا يصلون على النبي». وأحيانًا يطلب من الزوار أن يرددوا معه الشهادتين. وأما نظام الصلاة على النبي عند بخيت فيكون وسط نوبته الربانية. ثم إن الشيخ بخيت يدعو أيضًا إلى قراءة الفاتحة من وقت لآخر، دون دافع من ناحية الزبائن.

تذكرنا هذه التعبيرات الدينية بالشعر الصوفي الذي يكتبه أولياء الله الصالحين الذين يطوفون الصحراء، والذين أشار إليهم بخيت في حلمه النداء، والذين كانت الروح تشير إليهم في أوقات المس من حين إلى حين، بوصفهم من المستويات السامية التي يصل إليها المزاج المقدس، والتي كانت الأشباح تحتفل بها بكثير من الإعجاب.

ولكن شبح بخيت لم يكن وقورًا ولا ساميًا على الإجمال، وإنما كان صاخبًا فظًا، وأحيانًا كان طفوليًا صبيانيًا. فما كان أسرعه إلى الضحك، وأحيانًا كان ضحكه سفيهًا شائنًا وقد يتحول إلى السوقية والابتذال.

ونحن نعرف أن بخيتًا التاريخي لم يكن يتحدث كثيرًا، وأنه حين كان يتحدث كان يحب كل طريف غريب في الكلام. أيضًا وجدنا أن حديث بخيت محمد الدندراوي الشبح له أيضًا غرائبه. فأولاً لا يحدث المس من خلال النطق بألفاظ كاملة أو جمل تامة، ولكنها كلمات مختصرة، وألفاظ مبتسرة في الغالب، وتأتي على لسانه جملاً مدهشة بطريقة واضحة تتصل بحالة الزبون اتصالاً مباشرًا. حتى عند هذه المرحلة غالبًا ما تمر المفردات بنقلات صوتية. وهذا يشبه ما يحدث عندما يحاول شاب بالغ تقليد كلام طفل في الثانية أو الثالثة من عمره. وقد يكون ذلك راجعًا إلى صورة بخيت الساذج المخبول، أو أحيانًا إلى عضلات الفم التي ضربها الشلل، فيكون الميل أيسر إلى تبسيط الأصوات الصعبة والحروف المجتمعة. عندئذٍ تُرسل الشفتان إلى الأمام كما يحدث مع أفواه الحيوان.

وهذه التغييرات في المفردات لا تحدث على الدوام، وإنما تحدث عادة، ونستطيع أن نضرب بعض الأمثلة:

فالصوائت المنطوقة تصبح غير منطوقة، فقد سمعت على سبيل المثال:

تبيحة بدلاً من > ذبيحة

أتيان > أديان

كته > كده

بسيادتة > بزيادة

أولات > أولاد

موش > موز

وأحيانًا يُستبدل حرف اللام بالراء:

لاس > راس

لُوح > رُوح

يا لبي > يا ربي

ألبعة والبعين > أربعة واربعين

آلف > عارف

بالا > بره

بلسيم > برسيم

ملحبا > مرحبا

اشلب > اشرب

أو السين تصبح شينًا مثل:

شلاة > صلاة

يشللي > يصلي

بشل > بصل

خلوش > خلاص

حتى حرف الـ «جيم» يتغير أحيانًا مثل:

تاموسة > جاموسة

تبل > جبل

دواب > جواب

دوزا > جوزه

مودود > موجود

ريكال > رجال

وينطق مجموعات الصوائت كأنها حرف متحرك منفصل، أو يحذف حرفًا صامتًا، مثلاً:

إتي > أنتِ

متوب > مكتوب

أباحي > أضاحي

إدنين أو دينين > اتنين

باتين > بعدين

سنه شوية > استنه شوية

دلباتي > دلوقتي

ومن بين الأمور الأخرى الغريبة لاحظت:

كارب أو خرب > غرب

ما بيش > ما فيش

حووما > حكومة

أفاتن > أبدًا

وأما المفردات التي كان الشيخ يحب بنوع خاص أن يمط حروفها ويكررها، مثلاً كلمة أسوان يقولها سوان أو سيوان، وعبارة يا محمد ينطقها: يا حمـــاد، وعبارة يا محمود ينطقها: يا حـــامـــيد (يا حسن، يا حسين)، يا محمد.

وأما الكلام غير الواضح والجمل المختصرة الغامضة فإنه يستكملها من خلال المحاكاة الصوتية أو الإيماءات. والأمثلة على المحاكاة الصوتية كثيرة منها أني لاحظت أنه يقول: بف بف بف (يقصد السكة الحديد والسفر)، تو تو تو (يقصد الطائرة أو رسالة بالبريد الجوي). وكان يقلد أصوات الماشية بحرفية شديدة، وكان يراعي الفروق بين الصوت الحاد الذي تصدره الجاموسة والصوت المنغم الذي تصدره البقرة، والصوت الخفيف الذي يصدره العجل. ولكنه لم يكن يتقن تقليد هديل الحمام بشكل كافٍ: كوكوكوكوكو، وأما ضحك الأطفال فيقوله: كررر كررر. وأما ما يلفت النظر حقًا فتمثيله المدهش لحياة الوحدة التي تعيشها الغربان في جبال الصحراء الجرانيتية بصوت يخرج من حلقه، ونغمة جوفاء مفعمة بالكآبة: هوو هووو. وكان سقوط الجلمود يقلده بصوت طويل يبدأ قويًا ويضعف شيئًا فشيئًا: دررممم.

وأما بالنسبة للإيماءات فقد لاحظت الأتي: إمساك اليد بشكل أفقي وتقريبها من الأرض إشارة إلى طفل صغير. رفع اليد أو خفضها بشكل أفقي في الهواء إشارة إلى أطفال يلعبون الكرة. وأحيانًا تكون الإيماءات مصحوبة بتصفيق وتحريك اليدين كأنه يمسك بالكرة.

وأما استخدام يد واحدة لصنع دائرة أفقية على الحصير التي في الأرض، أو بكلتا اليدين في الهواء بشكل عمودي - وهي إيماءة متكررة، ولكني لم أقف منها على تفسير. وأغلب الظن أنها علامة على وضع يتطلب ملء فراغ أو وقف في أثناء نوبة المس.

والبصق على كف اليد ثم تحريك الكف كأنك تريد أن تضرب، يشير إلى إمكانية ضرب على الوجه أو الآذان.

تقبيل اليد يعني دليلًا على حب قريب يعيش في مكان بعيد، وكثيرًا ما يشير تقبيل اليد إلى أن الفاعل يحمد الله حمدًا كثيرًا، خاصة بعد قراءة الفاتحة.

الفرقعة التي تُصنع بالسبابة أو الوسطى تعني ضربة. وهذه علامة تُستخدم على نطاق واسع هنا مثل العلامة التالية.

حل الإبهام على السبابة والأصابع الوسطى يعني دفع أموال. والعلامة معروفة حتى عندنا.

إمساك اليدين أمام الوجه للإشارة إلى كتاب تعني القراءة.

سحب الأصبع السبابة اليمنى على باطن اليد اليسرى يعني الكتابة. ونلاحظ أن هذه الإشارة للكتابة تتحرك عادة من الشمال إلى اليمين، رغم أن

العربي يكتبونه من اليمين إلى الشمال. ونحن نتذكر أن عبد الراضي أمي لا يقرأ ولا يكتب.

إمساك اليدين كلتاهما أمام الفم مع تحريك الأصابع بعني العزف على الناي.

سحب أصبع السبابة ليد واحدة إلى الخلف والأمام بين السبابة والأصابع الوسطى في اليد الأخرى، علامة لا تُخطأ على القرابة من خلال فراش الزوجية، أو أولاد الزوج الأصهار. وكان الشيخ بخيت يستمد سعادته من تلك الإيماءة الفاحشة ويواصل استخدامها حتى يصيح الزبون الخجلان: «فهمت».

وضع اليد اليمنى على الخد، وتمييل الرأس إلى اليمين، وغمض العينين يعني النوم، أو التفكير أيضًا.

وضع اليد على الذقن ومسحه من فوق لتحت يعني رجل له لحية، وتعني رجل عجوز أيضًا. وهذه العلامة تُستخدم أيضًا عندما لا يكون الرجل المشار إليه ليس له لحية على الإطلاق.

حركات اليد السريعة نحو القلب تعني المرض والألم.

مرور اليد على الجلبية يعني أن الملابس جميلة، كنوع من التميز.

وضع الأصبع السبابة في الفم ومصه يعني الجوزه أو النارجيلة.

تضعنا تلك الإشارات أمام اللغة الأساسية التي يتحدث بها شبح الشيخ بخيت: فهو ألمعي، عراف. وسوف نقف على المزيد من ذلك فيما تبقى من

هذا الفصل. فعندما يشير بخيت، وهو يتحدث من خلال عبد الراضي، إلى رسالة قادمة في الطريق، أو يعلن عن قدوم وشيك لشخص في الغربة، أو عندما يصف منزل بعيد والناس الساكنين فيه، فإن عبد الراضي عندئذٍ يرفع يده في الغالب في اتجاه هذه الرسالة أو الشخص أو المنزل، وينظر هناك بعينين جامدتين ويقول: «آهو آهو» (ويعني أنه يرى ذلك بعينيه). إن عبد الراضي في حال المس يبدو كأنه يرى فعلاً هذه الأشياء البعيدة. وتعبيرات وجهه تمكنه استعراض هذه المعرفة بالبعيد القصي، والغريب المجهول.

أرواح أخرى

بخيت هو السيد الذي لا شك فيه لعبد الراضي، فقد اختاره واصطفاه ليحل ضيفًا على جسده وروحه بشكل مطرد، ولكن ما إن يحدث ذلك، أي ما إن تتمكن روح من عالم الأرواح من الحلول في شخص من الأشخاص، والدخول إلى عالم الأحياء، وفي حالتنا روح بخيت الذي حل في عبد الراضي، فإن طريقًا يُفتح بين عالم الأموات وعالم الأحياء. ومن ثم ليس عجيبًا على الإطلاق أن أرواحًا أخرى لراحلين آخرين يمكن أن تدخل من هذا الطريق. ونحن عند حديثنا عن أرواح أمواتنا فإننا نضع أنفسنا بشكل تام في مكان فلاحينا في صعيد مصر. فعبد الراضي، الذي كان على الأقل من حواراته مع الضيوف والأقرباء يسمع ويعرف هُوية الروح التي دخلته وهو في حالة المس، يعتبر جميع تلك الأرواح بمنزلة أصدقاء بخيت، بوصفهم فريقًا يرأسهم وهم في عالم البرزخ.

الشيخ علي

في نجع الحجيري يحترم الناس الشيخ علي الذي مات منذ ما يقرب من ستين عامًا. وله مقام في نهاية القرية من الناحية القبلية. وكثيرًا ما ينزل في جسد عبد الراضي. ويمكن التعرف على بخيت لأن الوسيط عادة يركع؛ وعلي معروف بأنه يمسك بذراعيه بإحكام على صدره. في نجع الحجيري يعيش رجلٌ ميسور الحال يُدعى محمود، وكانت زوجته عاقرًا لم تلد له طفلاً. ظهر الشيخ لذلك الرجل ليلاً في كابوس، وجثم على صدره حتى أنه شعر بالقلق والخوف. عندئذٍ ذهب إلى عبد الراضي يسترشده ويلتمس عنده العلاج. وعندما وقع عبد الراضي في حالة المس، لم يظهر بخيت، ولكن ظهر الشيخ علي بدلاً منه بذراعيه المطويتين. وراح يقول للرجل: «أريد منك عجلاً ثورًا»، وأجاب محمود: «لم تضطهدني وتطلب مني عجلاً ثورًا؟» إذا ساعدت زوجتي على إنجاب ذرية لك عندي ما تريد». عندئذٍ قال الشيخ علي: «إنجاب الذرية بيد الله، ولكني أريد العجل»، ووعد محمود بالعجل عندما تحمل زوجته. والحقيقة أنها حملت بعد ذلك مباشرة. وعندما سمعت تلك القصة أول مرة كانت بالفعل في شهرها السابع. وكان العجل الثور في الزريبة، سيقدمه محمود قربانًا للشيخ عندما تضع زوجته حملها، سيذبحه عند مقام الشيخ علي.

ويظهر الشيخ علي للناس من عائلته خاصة، من الذين يريد نصحهم من خلال عبد الراضي الوسيط، بشأن أمراضهم وسائر مشكلاتهم. وهو يميز نفسه عن بخيت بعلامة الذراعين المطويتين، والسمت الرزين الذي يدخل فيه، وبحديثه العذب. ورغم أنه يطلب قرابين لمقامه، فإنه لا ينسى الوسيط.

«أحضر هذا أو ذاك من أجل القاعود»، والقاعود هو عبد الراضي. وأنا أتذكر جلسة حضرتها كان فيها الشيخ علي ينصح حفيدًا له كيف يمكنه البرء من مرض. وكان الحفيد هناك ذات مرة، وطلب منه الشيخ علي شالاً للوسيط «الرجل/ الجَمَل». وهنا سأل شبح الشيخ علي: «أين الشال؟» عندئذٍ أخرج الشاب الشال من جيب جلبابه وعلى وجهه علامات الرضى والنصر وابتسامة مترددة. وعندما غادر الشيخ علي جسد عبد الراضي، هزه ودفعه بعيدًا.

محمد أحمد يوسف الأسيوطي

والأسيوطي روح أخرى لميت منذ زمن. وظهوره ليس بالقليل. ولذا فهو يتميز عن سائر الأشباح؛ فلا يوجد من يعرف الأسيوطي عندما كان على قيد الحياة، وهو لا يطلب شيئًا، ولا يسدي نصيحة لأحد. وعندما ظهر في المرة الأولى لاحظ أقرباء عبد الراضي وضيوفه أنه كان روحًا غريبة. فكان يرفع يده اليمنى، ثم يبدأ في التمايل بجسده الراكع برفق وبطء، ليردد النشيد بصوت جميل ممتلئ: «يا دايم يا دايم يا دايم». وكان الناس محيرين فيسألون: «من أنت؟» وكان يجيب وهو مستغرق في الغناء والحديث: «أنا محمد أحمد يوسف الأسيوطي». وكان يظهر بهذه الطريقة دائمًا، يردد النشيد بحماس ونشوة: «يا دايم يا دايم». ولا يعلم أحد متى عاش وأين عاش وأين مات.

محمد عبد القادر البراهمي

كان محمد عبد القادر موظفًا في السكة الحديد عندما كان حيًا يُرزق. كان يدير إشارات محطة سكة حديد «قفط». كان متزوجًا ولديه ابنة. وذات مساء ذهب كعادته ليعمل من قريته «براهمة». وفي تلك الليلة سقط تحت

قطار مر على جسده وقتله. وأغلب الظن أنها كانت حادثة، ولكن استقر في ظن أبويه شكٌ مقتضاه أن ولدهما له بعض الأعداء هم الذين دفعوه ليلقى مصرعه تحت عجلات القطار. وذات ليلة رأت أم الضحية ابنها في الحُلم ، وقال لها: «اذهبي إلى عبد الراضي في نجع الحجيري، ستجديني هناك». ولذا ذهب الأبوان إلى عبد الراضي. هنالك ظهرت روح ابنهما من خلال الوسيط. ولا نستطيع أن نزعم أن الفلاح كان مغفلاً وعاجزًا عن التفكير الناقد. فالفلاح يحضر معه هدية عندما يريد الاسترشاد والنصح من وسيط الروح. حتى لو كانت الهدية لا تتجاوز المليم أو «مقطف بلح»، فإنه لا يعطيها مباشرة لكي لا يتعرض للاستغفال أو الخداع فيخسر هديته. فقرر عبد القادر، والد الضحية، اختبار الروح التي تدعي أنها روح ابنه المقتول. وقد حالفني الحظ أن كنت جالسًا بجوار عبد الراضي عندما التقى الأب بروح ابنه للمرة الثانية. كان الأب رجلاً في الستين من عمره، له أنف عريض غليظ، ولا يختلف عن سائر الفلاحين الحضور. وحول عنقه كان يعلق شريطًا أزرق غامق بعقد حمراء من الصوف؛ وأغلب الظن أن محفظته معلقة به. وقد لف حزمة من البلح في قطعة قماش، واحتفظ بها في يده. ودفع بها إلى عبد الراضي. والآن أقرأ لكم الوصف الذي سجلته في يومياتي مباشرة بعد الجلسة.

أُحضِرت آنية البخور، وبعد أن وصلت إلى أنفه بواكير الطيب البهيجة، نهض عبد الراضي من وضع القرفصاء ليقف مستقيمًا على ساقيه. ودخلت روح بخيت فيه. أمسك بآنية الطيب بشيء من الحماس، وقربها من وجهه كأنه يقرب جرة الماء، وراح يعب من البخور عبًا. ثم خفضها قليلاً وراح يؤرجحها جيئة وذهابًا فوق الحصير مرة أو مرتين. ثم عاد إلى وضع القرفصاء

جالسًا على كاحليه. وانغمس في الرقص بجذعه ويديه بالتتابع. وكان يتنفس بشكل مسموع عدة مرات، ومع كل مرة كان يصدر صوتًا قصيرًا مكتومًا. وبعد ما يقرب من دقيقة من ذلك التنفس تكلم بصوت مقتضب خجول ولكنه واضح قال: «المسلمون يصلون على النبي». ثم تحول إلى الفلاح الجالس إلى يمينه، وكان رجلاً في منتصف الثلاثينيات، له وجه حزين ساذج سريع التصديق. وأوصل هذا الرجل إلى الشيخ شريطًا أسود من الصوف المتغضن بوصفه «الريحة». وتناوله الشيخ وتحسس الشريط الصوفي بيده، وما لبث أن وجد الطريق المنشود. وكانت الأجزاء المقتطعات من المعلومات لا يفهمها إلا ذوو الاهتمام والمصلحة. رأيت من تعبيرات وجهه الصارمة ولكنها المنتبهة أنه فهم رسالة بخيت ووافق عليها. وشيئًا فشيئًا أصبح الكلام أكثر وضوحًا. ونحن فهمنا أيضًا. فزوجة الشاكي مريضة، والمرض في جسدها يؤلمها جدًا، وهي تتألم من ركبتها. وبعد أن وُصفت الأعراض، وصف بخيت العلاج، وأغلبه يحتوي على الليمون، وعليها تناوله لمدة سبعة أيام.

والآن يقترب الرجل العجوز الذي من قرية البراهمة أكثر من عبد الراضي، ويجلس في الركن اليمين من عبد الراضي. وينهض عبد الراضي على ركبتيه. الآن تغير وجهه تغيرًا حادًا. أصبح سمته هادئًا رزينًا وحزينًا. وران على الجميع صمت رهيب. صمت قاتل. واستدار الوسيط بالجزء الأعلى من جسده ببطء نصف دورة ناحية اليمين، في اتجاه الرجل العجوز من قرية البراهمة، وراح يحك نفسه ببطء بيده اليمنى في وسط جسده، كأنه يشير إليه أنه مقطوع إلى نصفين. ورفع ذقنه بشكل رشيق خفيف، ورأيت جانبًا منه. رأيت الشفتين قد مُطتا إلى الأمام. وأعترف أن وجهه جميل غاية

الجمال، وجه فخم أو مهيب أو نبيل هذا الوجه الوقور. وبهمس لا يكاد يبين يتحدث الشبح إلى الرجل العجوز: «سلام عليكم». وسأل حامد، أبو عبد الراضي، بصوت مخنوق ومرتفع، سأل الشبح: «من أنت؟» وأجابه مرة أخرى بصوت ناعم رشيق: «أنا محمد عبد القادر البراهمي». وسأل الرجل العجوز من البراهمة هذا الشبح الذي يزعم أنه ابنه: «ماذا كنا سنأكل في البيت في الليلة الأخيرة التي ذهبت فيها إلى الغيط؟» وهمس الشبح: «كان المخطط أن نتعشى ديك مالطي، ولكنه لم يكن قد طُبخ بعد. قلت لأمي، احجزي لي قطعة منه لأفطر بها في صباح الغد. أنا ذاهب إلى العمل، ومعي فجل». قالت أمي: «هات معك قمع سكر وشاي من المدينة». وبدأ الرجل العجوز يبكي، تدفقت الدموع من عينيه حتى غمرت خديه المتجعدين.

ولم يعد لديه شك في أن المتكلم هي روح ابنه. سأله: «ابني الغالي ... هل صُرعت لأنها إرادة الله في حادث، أم هم الأعداء؟» وهنا صدرت من الروح إيماءة بأنه مات بسبب حادث وليس الأعداء - حرك يده اليمنى ببطء وأشار بأصبعه السبابة يمينًا وشمالاً بشيء من الوقار والجدية، وهمس: «أمره، أمره». وفهم الرجل العجوز الكلمة وقال: «أمره، أمره»، وأما حامد، أبو عبد الراضي، فقد كرر: «أمره». عندئذٍ همس الروح: «أبي وأمي لا تبكيا هكذا، لأن دموعكما تؤذيني». ثم بدأ يلتمس طريقه ناحية رأس الرجل العجوز. وهنا لزم الأب الصمت والسكون. مر برأسه على رأس الأب. ومكث هناك هنيهة. ثم اتكأ ببطء على جمجمة الرجل العجوز وقبل عمامته. وهنا اندفعت دموع الرجل العجوز بغزارة وتلقائية. وانحنى إلى الأمام للمرة الثانية وقبل عمامته. ثم للمرة الثالثة والرابعة. وهمس في أذنيه: «لا تبكي».

ثم تغيرت الصورة. فجأة سقط عبد الراضي على ظهره، واصطدم بالحائط التي كانت خلفه مرتين، كأن يدًا غريبة كانت تدفعه بعنف. عندئذٍ كانت روح الشيخ «علي» التي كانت تهزه هزًا. ونادى أبو عبد الراضي بصوت عالٍ ومفعم بالهم وهو يهتف: «قاعودك»، أو كان يريد أن يقول: «يا عم بخيت، هذا قاعودك أو جملك، لم تجعله يصطدم بالجدران هكذا؟» وتوقف الاصطدام، وعاد جسد عبد الراضي من جديد إلى استقامته. وبدأ يغني، ورفع يده اليمنى وهو يقول: «يا دايم يا دايم يا دايم». وأضحت تعبيرات الوجه الآن مختلفة أشد الاختلاف: لقد ظهر الأسيوطي. وبعد ما يقرب من دقيقة سقط عبد الراضي من جديد على ظهره، وبسرعة جلس كالقاعود مرة أخرى، ولسانه يقرقر وشفتاه مرخيتان، ظهر بخيت. في العادة يطلب «الريحة» من الزائرين، وبإيماءات وكلمات غامضة أرسل لـه رسالة، وفي نفس الوقت يضحك بطريقته البغيضة غير المحببة. ثم استلقى على قفاه بشكل مفاجئ. لقد وصل المس إلى نهايته. وفتح عبد الراضي عينيه المتعبتين. قال أبوه المتحرر: «الحمد لله». وبعد فترة طالت أو قصرت، أخذ عبد الراضي حزمة أحضرها الرجل العجوز من البراهمة كهدية، ووجد فيها صرتين من البلح. وبسرعة وبشيء من الكياسة أخذ عبد الراضي الهدية التي استقبلها بالنيابة عن هذا الشبح الغريب وراح يقسمها بين الضيوف. لكلٍ حفنة من البلح. وفي الركن جلست امرأتان القرفصاء - كانتا في عجلة من أمرهما، كانتا تريدان أن تخلوا بالشيخ، والطريق إلى البيت طويل.

وقد زار الرجل العجوز من البراهمة عبد الراضي أكثر من مرة، وفي كل مرة كانت روح ابنه المقتول تظهر لـه. وبعد شهرين كنت حاضرًا للمرة

الثانية. في ذلك الوقت كان بخيت أول من ظهر، ثم تلاه الأسيوطي، ثم ظهر بعد ذلك روح هذا المدعو محمد عبد القادر. ومن جديد جثا على ركبتيه والجذع مستقيم وبشكل وقور، ومن جديد أيضًا قدم نفسه عبر إيماءات الوسيط، وحك الصدر. وبصوت رقيق طفولي تبادل هو والرجل العجوز الهمس. ثم قبل الرجل العجوز على يده، ثم على عمامته، ثم على يده مرة أخرى. ومسح الرجل العجوز دموع انحدرت من مقلتيه. وأحضر حامد القهوة للضيوف، كل واحد شرب قدحًا، وبما فيهم عبدالقادر في حضور الابن الميت. وبعد هنيهة بدأت الروح تنشد بنغمات فيها سعادة، وإيقاعات مختلفة عن إنشاد الأسيوطي، كله في حمد الله والثناء عليه، ثم سقط عبد الراضي من موضعه الجاثي على ركبتيه والجذع مرفوع، وبشفتين مرخيتين بدأ الظهور العاصف لروح بخيت. ثم سأل عبد القادر العجوز بخيت أن يخبره عن ابنه - روح ابنه الميت - أين ذهب، فقد كان موجودًا منذ ساعة. وقال لـه بخيت: «هو في أسوان، سيوان، سيوان» - وراح يعبث بالكلمة بشيء من الغبطة وكأنه يحلم. وسوف نرى فيما بعد أن أسوان معروفة بأنها موطن الاشباح والأرواح.

محمد أحمد القلعاوي

جربت بنفسي ظهور هذا الروح مرة، عندما كشفت مجموعة كاملة من الأرواح عن نفسها دون تأخير عند عبد الراضي. وعندما مات المدعو محمد أحمد القلعاوي وهو صبي من قرية القلعة المجاورة، رفض الذهاب إلى القبر، وإنما أجبر حاملي نعشه على العودة من المقبرة إلى البيت. وراح المشيعون يتلون آيات من الذكر الحكيم. ثم استأنفوا الرحلة مرة أخرى إلى

المقابر، وحالفهم الحظ: وتمكنوا من دفن الجثة. ولم يمضِ وقت طويل حتى سقط والد الشاب مريضًا: «وهنا أمسك الشيخ - روح ابنه الميت - بقدميه ويديه، وأحاط برأسه وظهره». وانطلق الرجل وزوجته لزيارة عبد الراضي ليسألا بخيت، أو ليستمعا مباشرة من ابنهما نفسه. ولحسن الحظ كان بخيت حاضرًا في الوسيط بشكل صاخب، ولكن التصرفات تغيرت فجأة ودون توقع. فقد أظهر عبد الراضي نفسه صغير الحجم، ولم يحكم طي عمامته، وجعل رأسه الحليق يغوص بين عاتقيه، وأحنى ظهره، ولم يكف عن الابتسام، وتحول إلى الرجل العجوز القادم من القلعة، الجالس على يمينه، ثم إلى زوجته الجالسة على يساره. لقد أصبح الآن روح محمد، الشاب الميت لهذين الزوجين. قبل يد الرجل العجوز، ويد الزوجة، قبلهما بحرارة قبلة طالت بعض الشيء، وبادلته المرأة بقبلة طبعتها على يده أيضًا. وبادله الرجل بابتسامة على وجهه، ولكن الشك يملأ عينيه. وكان ابن عم للفقيد محمد قد جاء مع الزوجين. وحياه طيف المرحوم أيضًا كما حيا الوالدين. وبدأ الرجل العجوز يلتمس النصح في شأن مرضه. وراح طيف ابنه الميت يشرح له، بينما ابتسامته الصبيانية لم تفارقه، أنه سبب لـه هذا المرض لأنه يريد أن يُبنى له مقام محاط بسور قريبًا من بيت أبويه. وأنه (أي الطيف) سوف يعين لهما الموقع الذي يريد فيه المقام، بوضع أربعة قوالب طوب متكئة بعضها على بعض. والابتسام لا يفارقه راح يهدد بأنه سوف يصيب الرجل العجوز بالعمى إن لم تُنفذ أوامره. ووافق الرجل العجوز، والجميع قرأ الفاتحة للتصديق على الاتفاق. ثم تحول الطيف إلى ابن العم - ولم يفارقه الابتسام أيضًا - وقال لـه: «إن تزوجت في وقت قريب، هل ترجع بشال هدية لعبد الراضي الجمل / الرجل؟ وأجاب ابن العم: «أجل». وهذا ما حدث في أمر الزواج، فقد كان

الشاب يريد الزواج من فتاة بعينها، ولكنه لم يكن في مقدوره دفع مهرها. وهو يريد الآن أن يعطي والد الفتاة مبلغًا مقدمًا، ثم يدفع الباقي على أقساط. ولكن والد الفتاة رفض تنفيذ تلك الخطة. عندئذٍ قال له الطيف إنه سوف يغير رأي والد الفتاة، ولكن يريد نذرًا. أولاً على ابن العم أن يوزع الكعك للفقراء في مسجد القرية، ثانيًا يرتب لإقامة حلقة ذكر، وثالثًا أن يحضر، بعد الزواج، كبشًا ليضحي به قربانًا للمقام. ووافق ابن العم على كل ذلك، وطلب من الجميع قراءة الفاتحة للتصديق على الكلام.

علي البراهمي

وفي قرية البراهمة كان يعيش رجلٌ يُدعى «علي». مات وترك طفلين، ولد وبنت. بعد ذلك تزوجت الأم. وعاش الطفلان مع جدهما لأبيهما، والد المرحوم علي. وكان هذا الجَد لئيمًا شحيحًا مع الطفلين. وعندما آلمته عيناه ذهب إلى عبد الراضي يلتمس علاجًا لهما. وعندما وصل إلى بيت عبد الراضي وجد عبد الراضي في حالة المس، كان مع طيف بخيت. قال له بخيت: «أنت مسئول عن طفلي ابنك المرحوم، وإنك لتمارس معهما البخل واللؤم». ثم تغير الطيف، وبدلاً من بخيت حضر طيف المرحوم «علي» أمام أبيه. بدأ علي يبكي. ولاحظ الناس أن طيفًا مختلفًا حضر وسألوه: «من أنت، ولماذا تبكي؟» وتحول الطيف إلى الرجل العجوز وتكلم: «أنت تعامل ابني معاملة سيئة، تركته يتسكع في الحارات والأزقة، وطردت البنت من البيت، هذا عار عليك وخطر على البنت. أنت تتهم البنت بأنها مجنونة، وأن عفريتًا من الزار ركبها. هذا ليس صحيحًا، هي ليست مجنونة وليست ممسوسة من عفريت من الزار. اعطها الأرض التي أبقيتها لمهرها عندما تتزوج، والبقرة

التي تركتها اعط نصفها للبنت ونصفها للولد، حتى تستطيع البنت أن تتزوج. عندما تفعل كل ذلك اجمع من الغيط حشائش مسواك الراعي واطبخها، ودع البخار يخرج من القدر إلى وجهك، هذا هو الذي سوف يشفي عينيك». وفعل الرجل ما أُمِر به.

نور الدين العقولي

تقع قرية عقولة على بعد حوالي ساعتين جنوب نجع الحجيري. مات في هذه القرية رجل يُدعى نور الدين. وترك خلفه ابنه شابًا. وتولى الأب مسئولية الطفل، ولكنه لم يكن بالأب المثالي بالنسبة للطفل. وظهر في ساق الاب خُرّاج أو دِمّل رهيب، وحضر إلى عبد الراضي يطلب علاجًا من الشيخ. وبدلاً من بخيت ظهر لـه طيف نور الدين. وراح نور الدين يؤنب الأب لإساءة معاملته لابنه. فقال الرجل العجوز بشيء من العناد: «أنا أرعاه حق الرعاية». وأجابه الطيف: «أنا أعرف أنك لا تعامله معاملة جيدة، ولذا أنا الذي سببت لك الخُرّاج في ساقك». ووعد الرجل بأن يعامل حفيده معاملة أفضل. وهنا وصف لـه الطيف العلاج من المرض.

خليفة مصطفى الشيخي (من الشيخية)

مات هذا الرجل منذ أربعة أعوام، والآن ظهر لعبد الراضي طيفه عندما حضرت أمه وطلبت أن يُبنى له قبر له سور. وقال الطيف إن إخوته ورثوا عن أبيهم ميراثًا يكفي لتنفيذ رغبته، وإن رفض إخوته تنفيذ طلبه، فإنه سيرسل إليهم الأمراض وربما الموت. وكانت تلك التهديدات مصحوبة بقبلات طبعها الطيف على يدها برفق. وردت الأم بقبلة على يده، وقد ملأ قلبها الشك والغيظ.

عبادي محمد البيرودي

عندما كان على قيد الحياة كان يعمل مراكبيًا في النيل. سقط في النهر وغرق. يظهر أحيانًا في عبد الراضي.

ورداني ابن الحاج الصغير الكيماني (من «كيمان»).

منذ طفولته كان الورداني ضعيف البدن، ومات في العام ١٩٣١ في كيمان. وكان يظهر بين الحين والحين لعبد الراضي. وهو مغرم بالجلوس مصالبًا ساقيه وهو يقرأ الفاتحة برفق.

عبد القادر الجيلاني

هذا الطيف لا يظهر إلا نادرًا. مثل الأسيوطي، مغرم بالإنشاد.

عبد الله، عم عبد الراضي

هذا الطيف يظهر أيضًا في عبد الراضي بين الحين والآخر.

سليم الهُوّي (من قرية الهُو)

يُعتبر سليم الهُوّي شيخًا معروفًا جدًا (ذكرناه في الفصل الثاني)، ويعتقد كثيرٌ من الناس أنه بلغ من الأهمية درجة لا يتسق معها أن يحل طيفه في وسيط، ولذا فهم يعتقدون أن الطيف الذي يظهر باسمه من الدرجة الأقل، فهو لا يطلب شيئًا من الأحياء، إنه يظهر فقط، كأنه ضربٌ من الزينة وسط عدد كبير من الأطياف الحاضرين عند عبد الراضي.

وذات مرة استشار أخٌ المجنونة الشيخة فاطمة، عباس من «قفط» الذي كان يُظن أنه ممسوس، استشار عبد الراضي - وسوف نعود إلى ذلك فيما

بعد. وفي تلك المناسبة ظهر عبد الراضي في سلسلة طويلة من الأطياف والواحد تلو الآخر، وكأن الشيخ بخيت في الجانب الآخر أحضر لـه جميع أعضاء فريقه، حتى يتسنى لأحدهم أن يساعد عباس، أو ربما من خلال هذه الكوكبة من الأطياف أن يقرر طيف منهم أن يظهر لعباس، أو يظهر أن واحدًا منهم ركبه. ظهر الشيخ بخيت في البداية بطريقته المعهودة، وكانت لـه رسالة للآخرين ولكن الموقف تغير. فقد وقف عبد الراضي منتصب القامة، ومد كتفيه إلى الأمام، وطوى ذراعيه فوق صدره بإحكام - وكان ذلك معناه أن الشيخ علي هو الحاضر. وبعد فترة قصيرة تغير الموقف، رمى عبد الراضي برأسه إلى الخلف، ورفع يده اليمنى، وبدأ ينشد: «يا دايم، يا دايم» - وكان ذلك معناه الأسيوطي. ثم تغير المظهر ثانية. فقد جلس عبد الراضي مصالبًا ساقيه، وراح يتلو سورة الفاتحة، وأعلن أنه الورداني. في أثناء ذلك ظهر طيف جديد يغني بحبور، يختلف تمام الاختلاف عن الأسيوطي وحزنه. يقول: «سلام عليكم يا جالسين، سلام عليكم، أنا عبد القادر الجيلاني». وهذا الطيف أيضًا اختفى بعد زيارة قصيرة، والهُوي الكبير حيانا بحضوره. تحدث برفق بصوت خفيض حاد، والابتسام لا يفارق شفتيه. وحين كان يتكلم كان دائمًا يدفع عن نفسه قططًا خيالية بإيماءات ونداءات: «بس بس آيا بس بس آيا بس». وأما ضريحه في قرية «الهُو» يُقال إنه مليئ بالقطط. ويبدو أنه كان مرحًا يميل إلى تسلية الزوار. فلكي يزيل أي شك راح يقدم نفسه: «أنا سليم الهُوّي»، وكان يمتدح نفسه بقوله إن التماسيح لا يمكنها المرور من مقامه على النيل بالقرب من قرية «الهُو» لأنه يمنعها. وبعد الهُوّي جاء بخيت مرة أخرى. وبعد فترة لم تطل من حضور محمد أحمد القلعاوي بابتسامته الطفولية، والذي كان قد هدد أبيه بالعمى إن لم يبني له مقامًا كما أسلفنا.

وبعد مرور كل تلك الأشباح من خلال الوسيط، استيقظ عبد الراضي من نوبة نشوته وغيبوبته. وبدأ الطيف التالي يحضر في الحال، وفي تلك الحال كان بخيت الذي تولى مشكلة عباس.

مس مزدوج

جربت تلك الدراما النادرة مرة واحدة حين أصاب المس وليًا آخر غير عبد الراضي. وكان هذا الرجل هو موسى، رجلٌ كبير في السن من قبيلة العبابدة، له وجه أسمر تعلوه التجاعيد ولحية قصيرة بيضاء. وأما الطيف الذي ظهر فيه فكان لواحد من العبابدة أيضًا، جثمانه مدفون بالقرب من مدينة كوم امبو. والعبابدة قومٌ من البدو الأفارقة المستقرين في صحراء صعيد مصر بين النيل والبحر الأحمر. كثير من العبابدة استقروا عند حافة وادي النيل في صعيد مصر وعملوا بالزارعة. وهذا الرجل العجوز كان ينتمي إلى العبابدة المستقرين من زمن بعيد، رغم أنه الآن ينتقل من مكان إلى مكان. وإني لأقدم هذا الوصف للقاء مع الرجلين الممسوسين مباشرة من يومياتي. حدث ذلك في ٢٤ ديسمبر من عام ١٩٣٣

وذهبت إلى نجع الحجيري بعد الظهر. وكان عبد الراضي في حالة المس الكامل عندما وصلت. وما وصلت حتى دخل رجل عجوز، وكان كفيفًا أو لا يملك إلا بصيصًا خفيفًا من النور، وكان من العبابدة. وجلس على يمين عبد الراضي. وكان يجلس حوله اثنان من الفلاحين. وعن واحد منهم، ومن خلال وساطة عبد الراضي، كان بخيت يدلي ببعض المعلومات. واستيقظ عبد الراضي من المس، وبادرني بالتحية، وسألني بأدب عن أخبار زوجتي وأولادي. وكانت آنية البخور أمامه، والجمرات فيها خاملة أو تكاد.

وفجأة انتقل عبد الراضي في حالة المس من جديد. وانتفض واقفًا على ركبتيه، وأصدر أصواتًا حلقية بلسانه، وراحت شفتاه ترتجفان. وأدلى برسالة إلى أحد الرجال، رسالة تتصل بشيء في الشمال. واعترض الرجل: وأصر الشيخ على تفسيره. في تلك الأثناء ضحك بطريقته البغيضة. ثم تناول يدي وأخبرني بأن زوجتي وأبنائي في صحة جيدة، وأن رجلاً، صديقًا، آتيًا في الطريق، وأني مسافر معه في غضون أسبوعين.

تحول عبد الراضي الآن إلى ناحية اليمين إلى الرجل العجوز من العبابدة، وتناول يده. وفجأة وبحركة مفاجئة كان الرجل العجوز يجلس وسط الحصير، في الركن اليمين من عبد الراضي. راح يفك عمامته، وظهر شعره الأبيض طويلاً بعض الشيء. وكما يحدث في حلقات الذكر بدأ يترنح بقوة، يحرك جذعه إلى الخلف والأمام. وكانت دقة الإيقاع مذهلة، كأنه كان يقيس حركته مع الكلمات بضابط الإيقاع. كان الرجل العجوز يجلس وساقيه تحته، وكانت ركبتاه أيضًا تضرب الأرض بقوة تزيد. وكان الرجل العجوز يستنشق الهواء مع ترديد كلمة الله = هھ - هھ ثلاث مرات، ولم يكن الإيقاع يتخلف قيد أنملة. وكان لسانه يصدر بين الحين والآخر صوت قرقرة متميز. وكان الناظر يلحظ بوضوح كيف كان اللسان، لحظة الشهيق، معلقًا بين الأسنان الأمامية في الفكين المفتوحين أو يكادان، عند الزفير، وعندئذٍ يندفع إل الخلف، ينزل إلى الأمام، وهكذا في تتابع سريع. وهذا ما كان ينتج صوت القرقرة. ثم يبدأ في الإنشاد. وتصبح حركة الجسد دائرية، من اليمين في اتجاه اليسار، على عكس اتجاه عقرب الساعة.

كان يغني قصة الغزالة التي قبلت يد النبي محمد ﷺ، وعن اليهودي الذي حبسها. وكانت تعبيرات وجهه الخارجية تُظهر حزنًا شديدًا، ولكن وراء الحزن تسكن السعادة الحقيقية، خلف الجسد المُعنَّى روحًا سعيدة. ولذا فإن لدينا الآن شيخين نزلا في وقت واحد. كان عبد الراضي واقفًا منتصب القامة. وكانت عيناه ذاهلتين ونصف مغمضتين. ولا يبدو عبد الراضي مع صاحب الروح بخيت أنهما عاجزان عن مجاراة الرجل العجوز الذي لا يكف عن الغناء والنشيد. مكث على وضعه منتصب القامة ولكن ركبتيه جاثمتان على الأرض، وعينيه نصف مغمضتين، وهيئته هزيلة شاحبة، وأنفاسه تحولت إلى «شخرات» رقيقة وقرقرات ناعمة. ومن وقت إلى آخر كان يهتف: «المسلمون جميعًا يصلون على النبي». كان صوته غليظًا مع الممسوس الآخر. ثم راح يبذل السعي إلى نبوءات جديدة. واستمر الرجل العجوز في النشيد بوجه متغير. وبسط عبد الراضي يده في اتجاه الرجل العجوز، كأنه كان يريد منه أن يمسكه. ثم صدرت منه إيماءة، والأغلب أنها إيماءة محكومة من جميع النواحي، كأنه كان يريد أن يضربه. حاول مرة أخرى أن يصل إلى الرجل العجوز، وأخيرًا تحسس رأسه. ولكن الرجل العجوز تحول عنه بعيدًا، وهو ما زال يغني، ويتجنب يد عبد الراضي الممدودة. وأخيرًا هو نفسه توقف عن النشيد والتمايل. كان يخرج الهواء من رئيتيه بزفرة واحدة حادة (سـ سـ سـ). وتهافت الجذع بعض الشيء، واندفع إلى الخلف مرتدًا. فقد كان الشيخ قد غادره. وأصبح عبد الراضي الممسوس سعيدًا بشكل ملحوظ. ولبث يطلق تكهناته وقتًا ما بصوت مرتفع، ثم فجأة وعلى غير توقع ارتد إلى الخلف وحيا ضيفه بنظرة ذاهلة متعبة. ثم بعد فترة قصيرة دار حوار حول هذا الموضوع

أو ذاك: فقد عُثِر على خاتم قديم في حقل من الحقول، وفحصه، وقِيل إن صاحبه رجل مجهول، أغلب الظن رحل منذ فترة طويلة جدًا.

وتجدد إشعال البخور في آنية البخور، فقد كادت الجمرات أن تخمد. وسقط عبد الراضي في حالة المس، وطلب أن يستنشق البخور؛ ورمى بآنية البخور على الحصير المصنوعة من سعف النخل، حتى يمكن لجمرات البخور أن تشتعل. وبدا أن الآنية لم تكن معدة إعدادًا جيدًا. فأحضروا لـه المزيد من الطيب. وبدأت أبخرة الطيب تتصاعد من جديد. وأخذ عبد الراضي الآنية واستنشق الدخان حتى شبع من البخور. ووصل الرجل العجوز إلى الآنية بشكل غريب. ومنعه عبد الراضي - الذي أصبح الآن في شخص بخيت - من ذلك بتلك الضحكة المستهجنة. وأخيرًا أمسك الرجل العجوز بآنية البخور وكان في حالة من النشوة. تناول جمرة متقدة ومضغها لعل الشرار يسقط من فمه. كانت شفتاه مغطاتين باللعاب، ومخضبتين بالسواد بسبب الجمر الذي سال إلى ذقنه ولحيته. وبسط يده حتى وصلت إليّ. ومددت له يدي. وجذبني قريبًا منه وراح ينشد. وبعد دقيقة أو اثنتين ترك يدي. وظن الناس أنه كان يريد «ريحتي». وطويت قرشين صاغ في منديلي. وقال مريدو عبد الراضي: «اعطِ الريحة لبخيت، فهو كبير هذا المكان، وسوف يعطيه للعبابدي». واستقبل بخيت «الريحة»، وتحسس النقود المطوية وأبى إعادة المنديل. وأخذته منه برفق وألقيت به إلى العبابدي. والتقطه العبابدي وتحسس النقود، وعلى الفور، ودون تردد أعاده لي. وأعطيت بخيت الريحة مرة أخرى، حتى يستطيع استخلاص النقود. وأخذ النقود وهو يضحك تلك الضحكة المستهجنة. وتصرف العبابدي بشيء من الرزانة دون أية زيادات،

وتراجع إلى الركن، وطوى عمامته مرة أخرى. التقط «طارة» وراح يضرب عليها، وطفق ينشد دون توقف نشيدًا تصحبه نغماته الخفيفة الرتيبة.

وفي اليوم التالي كان من المفروض أن أري الرجل العجوز مرة أخرى لأنه كان يريد أن يقرأ لي الفنجان كما يقولون، أو ينبئني بحظوظي في المستقبل. ولكن مريدي عبد الراضي أوضحوا لـه أنه فضل السفر.

رسائل استقبلتها شخصيًا، براهين على قدرة المسوس على قراءة الغيب

تكمن أهمية عبد الراضي بالنسبة لأهل قريته في الظروف التي جعلته أولاً وقبل كل شيء الباب الذي يتحركون منه خلاله بين عالم الأموات وعالم الأحياء، وثانيًا أن الذي يفتح الباب، بخيت الروح الطيفية، في وسعه أن يأتي بالأخبار عن البعيد والمحجوب.

والكهانة فيها منطقتان: الطيف بخيت يستطيع أن يخترق الحجب، ويعلم ما توسوس به نفس الزائر، كأنه قادر على الدخول في أعماق الناس وهو في مكانه لا يتحرك، أو كأنه ينظر في آنية، أضف إلى ذلك أنه يستطيع أن يرى مواقف وحوادث مجهولة قام بها الزائر نفسه.

وبخيت «الروح» يطلب حافزًا لكي يصل إلى تلك الصور ويقوم بهذه الوظائف. فإذا كان الزائر يرغب في المعلومات عن أحداث مهمة بالنسبة لـه؛ مثلاً سيقوم برحلة ويريد أن يعرف حظه فيها من النجاح، فيكفي أن يضع يده في يد عبد الراضي وهو في حال المس من قِبل بخيت. وأيضًا إذا أراد الشخص أن يعلم شيئًا عن شخص آخر أو حيوان، فإن عليه أن يضع شيئًا في

يد الممسوس التي هي على اتصال جسدي مع هذا الشخص أو هذا الحيوان، وليكن هذا الشيء مثلاً شريط من قماش أو مزقة من جلابية، أو طاقية عليها عرقه، أو شعرتين من ذيل هذا الحيوان. وهذا العلامة يسمونها «الريحة»، يمسك بها الممسوس في يده، ويطيل النظر فيها ويتحسسها فتخرج منها «روح» الشخص أو الحيوان أو الموقف المثار هناك، أضف إلى ذلك أن «الروح» ترى هذا الشخص أو الحيوان بشكل عفوي وتعرف ماضيه ومستقبله، حتى أنه يمكن أن ينصحه كيف يتصرف لكي يحقق النتيجة المرجوة.

وقراءة الغيب أحيانًا تُحجب. أحيانًا لا تظهر الصورة المنتظرة مطلقًا أمام «الروح»، والتي قد تلجأ عندئذٍ إلى الإدلاء بمعلومات مغلوطة أو منقوصة. ومن الممكن جدًا أن نقول إن نصف المعلومات التي يكشف عنها «الروح» لا تشبع الغليل. ولكن النصف الآخر من المعلومات معلومات صحيحة، وتكون من النظرة الأولى معلومات دقيقة بشكل مدهش. ومن أجل الوصول إلى الحقيقة فإن الفلاح يقبل المعلومات الزائفة بشيء من الصبر والتسامح على اعتبار أنها من جملة الصفقة كلها. فإذا كانت المعلومات كلها دون استثناء، أو أغلبها زائفة، فإنه خلال أسبوع لن تجد فلاحًا يحضر «الريحة» التي يريدها الشيخ، ولا «الهبة» المالية التي ينشدها. فالفلاح المصري مجبول على الشك، وخاصة إن تعلق الأمر بأموال تُطلب منه، أو نقود يغرمها.

وسوف نفحص بعد حين مضمون تلك التكهنات التي ينشدها الفلاحون. ولكي نعطي صورة عن مستوى التكهنات التي يدلي بها الممسوس، سأخبركم بالرسائل التي حصلت عليها، والتي يمكن من خلالها أن أقدر الأمور بشكل مباشر.

ولقد كانت حالتي حالة خاصة بالتأكيد. فأنا أوروبي؛ و«روح» بخيت مضطرة في هذه الحالة إلى أن تستقبل صورًا من عالم غريب عنه. ومن الأسئلة المكررة التي ضايقت بخيت ذات مرة، راح يرسم بيده خطين متوازيين أمامه ويتمتم بشيء عن اختلاف الأديان، ويعني الاختلاف بين المسيحية والإسلاَم، وعن المسافة الشاسعة التي تفصله عن بلادي. ويشير الخطان المتوازيان إلى أن الحدود الدينية، وكذلك المكانية، تستعصي عليه فلا يستطيع التغلب عليها. وثانيًا: أنني لم آتِ إليه بشوق محترق كما يفعل أغلب زواره: فالحافز العاطفي الذي جئت به ضعيف فلا يعمل عمله مع الأرواح. ثالثًا أن الهبة التي كنت أحضرها معي، مقارنة بهبات الفلاحين لـ «الروح» كانت معتبرة - وقد يشي ذلك بشيء من الشك يزيد من تعقيد عملية البحث عن الصورة الصحيحة. وأخيرًا، كانت زياراتي أكثر اطرادًا من زيارات أولئك الباحثين عن النصح، حتى رغم أني أحيانًا لا تكون لدي أسباب خاصة أنشدها من وراء الكهانة. ومن ثم فإن نفس الصور، عندما كانت تظهر للشيخ، تكون متكررة، فقد أصبحت من مخزون في حوزة «الشيخ الروح» رهن إشارته عند كل استفسار.

وأريد أن أدلي ببعض المعلومات عن ظروفي الشخصية لكي تقفون على بنية الفكر التي كان ينطلق منها العراف حين يدلي بتكهناته.

فأنا أعيش على أطراف مدينة «توبنجن» في ألمانيا. ومنزلي المتواضع ولكن الحديث يقع في حديقة صغيرة. وباب البيت يفتح على ممر يفضي مباشرة إلى بوابة الجنينة، ومن ثم إلى الشارع. لا توجد مباني في الجهة المقابلة من الشارع؛ ولكن توجد مرجة بها أشجار تفاح، على حافة تل. لقد تركت زوجتي وابني، وكان ابني وقتها في العاشرة من عمره، وابنتي التي

كانت في الرابعة من عمرها في ذلك البيت. وجئت إلى القاهرة في أكتوبر من العام ١٩٣٣. وعشت هناك شهرين مع رسام ألماني أصبح صديقي. كنت أبحث عن دعم واهتمام للقيام بمشروح طموح يستغرق سنوات أدرس فيه الإثنوجرافيا المصرية. وعندما ثبت لي أن هذا الهدف بعيد المنال، سافرت، في أوائل ديسمبر إلى كيمان، لكي ألتمس الإجابة عن بعض المسائل في مجال الإثنوجرافيا، خاصة المتصلة بتكنولوجيا صناعة الحبال والخيوط والسلال والغزل. ولم أكن قد استقريت على مقدار الوقت الذي كان عليّ أن أقضيه في كيمان وفي أي مأموريات محتملة أخرى.

زرت عبد الراضي أول مرة في ١٠ ديسمبر. وعندما كان في تلك المرة قد أصابه مس بخيت الذي بدأ يظهر لـه، أعطيته منديلي بوصفه «الريحة». وكانت أفكاري كلها (ضميري) متمركزة حول صحة زوجتي وأبنائي. بدأ هو يحدثني عن رحلة وشيكة - بالقطار بف بف بف بف - في اتجاه الجنوب. وصفق بيديه مرتين، والمرتان معناهما عشرين يومًا - أي في غضون عشرين يومًا سأنطلق في رحلة. ووصف لي طفلي بإشارتين من يده يعني طفل كبير والآخر صغير، ثم رفع إصبعين وهزهما بشدة يمينًا وشمالاً: أي طفلين. ثم حرك يده إلى أعلى وإلى أسفل - يعني الطفلان يلعبان الكرة - ووضع يديه كلٍ على الأخرى، وأصابعه في الفم - يعني يعزفان على الناي. ثم راح يصف زوجتي، فرفع يديه إلى مستوى خديه، الغالب ليشير إلى شعرها الطويل، ومسح على جلبابه برفق ليشير إلى أن ملابسها جميلة ومحترمة.

كانت الأخبار دقيقة. فقد سافرت فعلاً جنوبًا في غضون عشرين يومًا بعد ذلك، زيارة قصيرة إلى الأقصر. وابني كان من هواة العزف على الناي، كان يعزف به كثيرًا جدًا في تلك الأيام.

ومن المرجح جدًا أن عبد الراضي يعرف أشياء عن أسرتي وعلاقاتها الأسرية من زيارات سابقة. فقد وصلت إلى كيمان قبل ذلك بأيام قليلة، وناس نجع الحجيري لم يكن لهم كثير اهتمام بظروفي الشخصية. ولكن احتمال أن عبد الراضي جمع بعض المعلومات عني، لأني كنت قد استأجرت غلامًا يصحبني في تلك القرية في ربيع عام ١٩٣٢.

وزرته مرة أخرى في اليوم التالي في ١١ ديسمبر. وأعاد عليّ نفس المعلومات والطفلين، ولكن هذه المرة بتفاصيل أكثر - الطفل الأكبر ولد، والأصغر بنت. وكنت سأمكث في كيمان تسعة عشر يومًا، ثم خمسة أيام في الأقصر، كنت أريد أن أعرف إن كان صديقي الرسام من القاهرة سيزورني كما أتوقع. كان هذا التفكير في رأسي حين تناولت يد عبد الراضي. وعلى الفور أتي بعلامة، وأشار ناحية الشمال وهو يقول: «تعالى هنا» - شخص من الذين كنت معهم كان آتيًا - امرأة؟ لا، رجل - وسوف نسافر سويًا - بعيدًا جدًا - عبر البحر والجبال - حتى نصل إلى البيت. وفي لحظة مس بعد ذلك في نفس اليوم كنت أريد أن أعرف معلومات عن صديق من أيام الشباب كان قد اختفى منذ أربع سنوات سابقة. وتناولت يد عبد الراضي وأنا أفكر في ذلك. لم يستطع «الروح» على الإطلاق العثور على المفتاح. وإنما تشبث بما كان يعرفه، الطفلين والزوجة والشخص القادم.

وأما معلومة أن زيارتي للأقصر ستكون خمسة أيام فكانت خطأً؛ فلم أبق في الأقصر إلا يومًا واحدًا. وأما أفكاري المتصلة بالرسام الألماني في القاهرة فقد صدق فيها الشيخ، أو روح الشيخ. لم يكن أحد يعلم أني كنت منتظرًا أحدًا قادمًا. ولكن المعلومة ثبت أنها خاطئة: فلم يأتِ الرسام، ولم أسافر معه إلى ألمانيا.

وفي عصر يوم الرابع والعشرين من ديسمبر أخبرني بخيت أو «روح» بخيت نصيحة عامة مفادها أن زوجتي وابني كانوا في صحة جيدة، وأن رجلاً - ما زلت أظن أنه الرسام - سيأتي في غضون خمسة عشر يومًا.

وبعد زيارة عبد الراضي ذهبت أتمشى في الصحراء القريبة. وبينا كنت أستمتع بمقدم الليل في الهواء الطلق وحدي، لاح رجل يمتطي حمارًا قادمًا من نجع الحجيري، يتطلع فيّ، كان يحمل برقية لي. وعدت وتوقفت لحظة لزيارة عبد الراضي. لقد بحث الرسول عني هناك في البداية، ومن ثم عرف عبد الراضي أن برقية جاءت لي. وعندما دخل في حالة المس مباشرة، أعلنت «روح» بخيت عن صلة غامضة بين الرجل الذي كان قادمًا والبرقية. ليس في تلك الليلة وإنما في وقت مبكر من صباح اليوم التالي كان الرجل سيصل بالقطار «بف بف بف بف». وكنا سنسافر معًا بعد خمسة عشر يومًا.

ولقد كنت أظن أيضًا أن البرقية ربما جاءت من الرسام. وربما نفس التفكير وصل إلى «الروح». ولكن البرقية كانت بطاقة عيد ميلاد من زوجتي. لم يأتِ الرسام في اليوم التالي، ولم يأتِ قط. وبدلاً من الخمسة عشر يومًا المعلن عنها، مكثت ثلاثة أشهر أخرى في «كيمان».

وفي صباح الخامس والعشرين من ديسمبر زرت عبد الراضي مرة أخرى. وكان من بين ضيوف الشيخ ذلك الرسول الذي كان قد أبلغني وصول البرقية بالأمس. وكان قد أحضرها لي في البيت، فربما ظفر مني ببقشيش معتبر إن كانت حاملة أخبارًا مفرحة. فقد عرف أن البرقية من زوجتي. وليس من شك في أنه ذكر ذلك عند عبد الراضي. وعندما دخل عبد الراضي في حالة المس أبلغني أن البرقية كانت من زوجتي. ولقد كانت أفضل رسالة تلقيتها من

العراف. مددت يدي إلى الممسوس عبد الراضي، لعلي أعرف منه شيئًا عن أسرتي؛ وخاصة أني كنت أفكر في صورة ابنتي الصغيرة وهي تحت شجرة عيد الميلاد. في البداية راح العراف يطلعني على نتف غامضة من المعلومات عن أسرتي، ثم استخدم الإيماءات حين أشار بوضوح إلى ابنتي. عندئذٍ أخذ آنية البخور بكلتا يديه، وبشكل أفقي راح يهزها جيئة وذهابًا، وقال: «عربة». الطفل الأكبر يمشي بعد الطفل الأصغر.

لم ير عبد الراضي في حياته كلها عربة دمية. ولم يكن الفلاحون يعرفون شيئًا عن عربة الدمية أو عربات الأطفال. والتفكير في ذلك يبدو بعيدًا جدًا. وأما الحركة نفسها: أخذ آنية الطيب من مقبضها بكلتا يديه في نفس الوقت، ثم ينطق بكلمة «عربة» ما جعل الصورة بعيدة عن الغموض. لم يكن لديّ فكرة عما أحضرت زوجتي للطفلين في عيد الميلاد، بل إني لم أفكر في ذلك مطلقًا، ولم يكن يتطرق خيالي إلى عربة الدمية. وبعد فترة لم تطل كتبت إليّ زوجتي أنها اشترت لابنتي عربة دمية، وأنها سعيدة بها غاية السعادة.

وفي الأول من يناير من العام ١٩٣٤، أخبرني «روح» بخيت أني سوف أستقبل رسالة من «الحكومة» تطلب مني البقاء في مصر، وأن الرسالة لن تأتي قريبًا بل بعد فترة. وسألت الشيخ بخيت: «وكم طول الفترة التي سوف أبقى فيها هنا؟ وأشار بأصبعين اثنين، ثم ثلاثة - ثلاثة أشهر. «ثلاثة أشهر أو ثلاثة أسابيع أو ...؟» ثلاثة أشهر. وغدًا سوف تتسلم رسالة من زوجتك. هي في أفضل حال، والطفلان في أفضل حال، ويلعبان بعربة الدمية والناي.

في ذلك اليوم لم أكن أفكر مطلقًا في مستقبلي والرسائل المهمة، رغم أن في الأيام السابقة كنت كذلك بطبيعة الحال. كنت أظن أني سأمكث في

«كيمان» مدة طويلة - دون أن أحدد هذه المدة - وهو من الأمور التي كنت قد ذكرتها للعجوز سنوسي صاحب البيت الذي أقيم فيه. فهل كان لمهدي، ابن سنوسي، دخل في توصيل المعلومة لعبد الراضي، فقد كانت المعلومة التي أخبرنيها دقيقة.

وصلني الخطاب من صندوق تمويل أبحاث الطوارئ الألماني، يمدني بما أريد من وسائل لإتمام خططي البحثية التي كنت قد بدأت أزهد فيها. وبعد ثلاثة أشهر بالضبط تركت كيمان لأقوم برحلة في مصر كلها. ولكن وعد وصول رسالة من زوجتي في اليوم التالي لم يتحقق.

وفي العاشر من يناير كنت آمل أن أحصل على معلومات من عبد الراضي عن حوالة كنت أنتظرها من القاهرة. وراح طيف بخيت يحكي أن زوجتي زارتها امرأة أخرى وأنهما كانتا تحكيان عني حكايات. ثم راح يتنبأ عن رجل سوف يأتي قريبًا وأني سوف أسافر معه إلى مكان أبعد، وأن رسالته في الطريق. وتناولت يده مرة أخرى لأعينه على العثور على المفتاح. ولكن هيهات. سارت رسائله سيرتها الأولى في الصور العادية المتصلة بالأطفال الذين يلعبون وأنهما بخير وانتهى إلى الكشف الأخير - الرسالة القادمة من الحكومة تطلب فيها مني البقاء في مصر. ومن حين إلى آخر يشير بيده طلبًا لهبة أو دفع نقود. كانت زيارة زوجتي من الأمور الواضحة والمتوقعة بحيث لا تصلح مقياسًا لأداء العراف. أضف إلى ذلك جميع تكهناته لم تحصل مرة واحدة، وإنما جاءت في جلسات متفرقة، وأن أفكاري التي من أجلها جئت أستطلع الغيب كما هي لم تستكشف.

في الثامن عشر من يناير، ذهبت إلى عبد الراضي لأسمع شيئًا عن صحة زوجتي التي شكت لي في رسالة لها من تعب في عينيها. وتحدث الممسوس أولاً عن رجل لـه علاقة بالحكومة، وأن ذلك الرجل تلقى مشكورًا رسالة كتبت فيها تقريرًا عن أبحاثي حول صناعة الحبال والسلال في كيمان. ثم تكهن أكثر عن رجل سوف يأتي قريبًا - وأني سوف أمكث هنا شهرًا آخر. ثم تحدث عن مكان مفتوح سوف يلعب فيه طفلاي وهو يقول: «انظر .. انظر .. إني أراهما» - وكان يشير إلى جهة الشمال الغربي بيده، وكانت نظراته محايدة تمامًا. وصدرت منه حركات فعلية كأنه يتابعهما وهما يلعبان الكرة: «الآن الأم تضرب الطفلين لأنهما يريدان أن يأتيا»، ثم قلد حركة الضرب نفسها وهي معروفة. «الآن الطفلان يأكلان من الأطباق ويشربان. والسيدة تقرأ رسالة منك»، ثم راح يقلدها وهي تقرأ. ولكن العراف لم يستجب لاهتمامي بصحة عيني زوجتي. وأخيرًا سألته عن ذلك، فأجاب بأن عينيها في صحة جيدة، رغم أن زوجتي كانت ترتدي نظارة.

وكان الخطاب الذي تحدثت فيه عن صناعة الحبال كنت قد كتبته للبروفسور «لتمان»[1]. والحق أن الرسالة كان يجب أن تكون قد وصلته في تلك الفترة. وأما الرجل الذي كان قادمًا في الطريق فقد كان بقية من نبوءة سابقة قبل اليوم، عندما كنت أنتظر زيارة من الرسام الألماني. فتلك صورة أصبحت مخزونة في مستودع الصور التي يحتفظ بها العراف. وأما صور أفراد الأسرة والأطفال والأم التي تقرأ فهي صورة عامة يمكن أن تكون في أية

(١) إينو لتمان (١٨٧٥ - ١٩٥٨)، مستشرق ألماني، أستاذ في جامعة توبنجن منذ ١٩٢١، راح يدعم «وينكلر» بعد عام ١٩٣٣ بمساعدته في الحصول على التمويل لأبحاثه.

أسرة عادات في حياتهم اليومية. وأما المشاكل في عيني زوجتي فقد تجاهلها أو كاد، ولم يقل لي إنها ترتدي نظارات على الإطلاق.

وفي الخامس والعشرين من يناير ذهبت إلى العراف، راح أيضًا يكرر ما قاله في المرات السابقة عن الطفلين اللذين يلعبان الكرة، وصورة أخرى استقاها من مخزونه السابق، حتى آنست منه سأمًا. راح يقول: «الآن الكرة سقطت في الماء، وطفل آخر يتعقبها - الآن هما يلعبان بعربة الدمية - الآن يأكلان - الكل سعيد - وعينا زوجتك في صحة جيدة للغاية». ثم جاءت الدهشة: «هناك رجل قادم في الطريق إليك، وآخر معه». نظر إلى ناحية الشمال وأشار، مضيفًا أن الرجل لم يكن قادمًا إلى هنا، سوف يكتب لي، ويأتي لزيارتي. وسوف أزوره بدوري.

وقبل ذلك بيومين علمت أن «هر لتمان» كان قادمًا إلى القاهرة مع عروسه. ولم أكن قد ذكرت ذلك لأحد قبل ذلك. والحق ما لبث أن جاءت الرسالة، وفيها دعوة لي لزيارته، ويممت شطري نحو القاهرة لرؤية «لتمان».

وفي الخامس عشر من فبراير زرت عبد الراضي دون أن يكون في نيتي أن أستشيره في شيء أو أطلب منه نبوءة أو تكهنًا من أرواحه. وربما كان يتوقع هدية مني لبخيت وليس لعبد الراضي، فقد أمر بآنية البخور فأُحضِرت، وما لبث أن وقع في نوبة مس وبدأ في تقديم النبوءات حول رحلة في الصحراء سأقوم بها إلى الاتجاه الجنوبي الشرقي. وقال إني سوف أركب جملاً، وأن رجلاً سوف يرافقني ماشيًا وأنا فوق الجمل. ثم استيقظ من نوبة المس، ولكن لم تمض لحظات حتى غاص في نوبة مس جديدة. ولكنه بدأ هذه المرة يمتح من مخزونه المعتاد من المعلومات - الزوجة والولدين.

ولكنه راح هذه المرة يصف بيتي: «يقع وسط حديقة، على ناصية شارع، وعند بوابة الحديقة توجد أشجار - أشجار موز تحديدًا - وبالقرب من البيت توجد طرمبة يتدفق منها الماء - وفي الفضاء المفتوح بين باب المنزل وبوابة الحديقة يرى الولد يتزحلق برشاقة جيئة وذهابًا - والمرأة جالسة في الحجرة (وصف عبد الراضي طريقتنا الأوروبية في الجلوس حين رفع ركبتيه إلى أعلى قليلاً) وراح يقرأ. الآن الطفلان بجوار أمهما، يلعبان ويضحكان: كرر كرر كرر». ثم أعلن أيضًا أنني تلقيت طردًا من زوجتي يحتوي على شيء يُؤكل.

لم أكن أفكر قط في رحلة الصحراء التي ذكرها عندما أعطيت الشيخ «ريحتي»؛ ولكن في الأيام السابقة كنت أفكر في الرحلة كثيرًا. كنت أنوي القيام برحلة بالجمل خططت من خلالها أن أصل إلى رسومات على الصخور ونقوش في الصحراء. وبعد هذه الجلسة مباشرة قمت بالرحلة، ولكن ليس بجمل واحد بل باثنين، واحد لي وآخر لمرافقي ومرشدي. وكان وصفه للبيت دقيقًا. كيف عرف بشجرة الموز، ربما اختلط عليه الأمر بين الموز وأشجار اللوز. وأما أشجار التفاح عندنا فلا يعرفها الفلاح المصري في «قفط»، وربما رآها بوصفها أشجار «لوز». وأما الطرمبة التي أمام البيت فهي أعجب ما سمعت؛ فلم يكن هناك طرمبة مياه على الإطلاق. وسوف نرى بعد حين كيف دخلت طرمبة الماء في الصورة، عندما ندرس العلاقة بين استيقاظ عبد الراضي، وحلم الوعي. وأما صورة الصبي وهو يتزحلق بين باب البيت وبوابة الجنينة فجدير بالملاحظ أيضًا فلم أنتبه إن كان ابني في ذلك الوقت قد ابتنى لنفسه مدقًا للتزحلق أم لا، أو ممرًا مناسبًا لهذه الرياضة. ومعروف

أن مثل تلك الرياضة الشتوية لا يعرفها الفلاح في مصر، ولا يمكن أن تخطر على باله، ولذا كأداء حدسي لم يكن ذلك بخالٍ من الأهمية. فقد تلقيت في واقع الأمر طردًا من «الكوكيز» أو البسكويت من زوجتي.

وذهبت إلى عبد الراضي في الثاني من مارس. وسألته على الفور لِم لم أكن أتلقى رسائلي. «الرسالة آتية بالطائرة، وتأخرت لأن الطقس كان سيئًا بشكل خطير». ثم بعد ذلك راح يصور لي حياتي الأسرة بالتفصيل. وأن زوجتي تقرأ - وأن هناك أناس كثيرين عندها - وأن الأطفال يلعبون الكرة. وبشيء من المهارة استطاع أن يضع أمامي صورة البيت - الشارع هنا - والجنينة وفيها الأشجار هناك. ولا ذكر هذه المرة لطرمبة الماء.

كنت أتلقى رسائل بالبريد الجوي بين الحين والآخر، وفي الشتاء لا يكون البريد الجوي منتظمًا بأي حال من الأحوال، وقد كنت أشرح ذلك لعبد الراضي من وقت لآخر. ولم ألاحظ إن كان وصلني خطابًا بالبريد الجوي في ذلك الوقت.

وفي الحادي عشر من مارس زرت عبد الراضي قبل سفري مباشرة في اليوم التالي إلى رحلتي الصحراوية. ووعدني العراف باكتشافات مفيدة ورائعة - ثلاثة جدران صخرية، ثرية بالصور والنقوش، في مكان ما في شمال الطريق الصحراوي من «قفط» إلى البحر الأحمر. ثم جاء بعد ذلك وصفه الذي اعتاده عن المرأة التي تقرأ والطفلين اللذين يلعبان، والبيت والشارع والحديقة. وأصبحت الطرمبة في خلفية الصورة، وفي كامل طاقتها.

وصدق في موضوع اكتشافي للنقوش، والصور التي على ثلاث صخور شمال الطريق يمكن أن تنطبق على موقعين، ولكن أغلب الوصف ينطبق

على الموقع الأول، لأنه الموقع الأكثر إثارة والأروع والثري بالمعلومات. وفي الخامس والعشرين من مارس استشرت عبد الراضي وهو في نوبة مس للمرة الأخيرة. وراح يصف لي كعادته أحوال أسرتي السعيدة، بقدر أكبر من التفاصيل عن البيت وموقعه. ولكن ما أدهشني هذه المرة في أحوال عبد الراضي معي هو أنه أضاف إلى قائمة البيت وطرمبة الماء الغامضة، برج حمام. قال: «حمام يطير ويهدل حول البيت كو كو كو كو». أضف إلى ذلك بالقرب من البيت يمكنك أن ترى سكة حديد.

والحق أن بيتي في الحقيقة لم يكن فيه لا طرمبة ماء ولا برج حمام. وأما السكة الحديد فكانت على بعد كيلومتر من البيت، ولكن كان يوجد خط سكة حديد على خفيف على بعد مئتي متر من البيت، يربط بين منجم طين طفلي ومصنع طوب.

الفصل الثامن

تأثير الممسوس على حياة الفلاحين الدينية والاجتماعية

مكانة عبد الراضي عند الفلاحين

عندما بدأ عبد الراضي يستعرض الخصائص الواجب توفرها في الممسوس - الجري في الصحراء وضرب نفسه، ثم العودة إلى البيت بنظرات محايدة كأنه ينظر في الفراغ طوال الوقت، ثم الحديث كأنه يتحدث إلى شخص آخر غريب لا يعرف أحد من أهله وبلغة غريبة غامضة - حينئذٍ ظن أقرباؤه أنه أُصيب بالجنون، يعني أصبح «مجنونًا». وكلمة «مجنون» ليس فيها المعاني الهادئة التي في كلمتي المعتوه crazy والمخبول mad. فالفلاح في صعيد مصر من أقرب الناس إلى الجن والعفاريت، ويستطيع تفسير الاضطراب الروحي بأنه قريب بالاضطراب النفسي أو العقلي، اضطراب في الإدراك، أو وسواس أو خداع أجوف. وهو عندما يسمي شخصًا مريضًا عقليًا بـ «المجنون»، فإنه لا يعني إلا أنه ممسوس، أي مسه جن. والفلاح لن يستطيع التحرر من الخوف الذي يسببه الجن عند التعامل مع المجنون أو المريض نفسيًا مهما كانت غرابة المرض. وقد رأينا قبل حين أن مريدي عبد الراضي سعوا إلى طرد العفاريت، وكيف تعلموا أن روحًا قد اصطفته من بينهم لتمتطيه كأنه الجبل الذي يركبه الناس. لقد تركوا أنفسهم للتصديق، واليوم هم يؤمنون بأن «الروح» قد لبست عبد الراضي كما يلبس المرء ثيابه، دخلت في جسده. وفي أثناء ذلك «اللبس» تصبح «روح» عبد الراضي في

إجازة، مخفية، (غايبة). ولما كان بخيت وليس عبد الراضي هو الذي يحضر في أثناء لحظات المس، فإن الناس يبادرون بتحية الروح وهي تنبثق من العدم كأنهم يحيون ضيفًا: «مرحبًا، بخيت».

والروح تسبب الهلع للممسوس، والخوف لأقربائه الذين يهددهم بالمرض والموت لكي يجبرهم على تحقيق رغباته. وأما الغرباء فيتركهم في سلام. وأما روح بخيت فقد عشقت عبد الراضي الذي فضل النزول فيه، أو مسه، ولكي يضمن قوت اليوم راح يتحدث في شخص عبد الراضي الذي يستقبل العطايا نيابة عنه. ولذا فبخيت يبدو كرجل أعمال ويُعامل كذلك من قِبل الزبائن. وطبيعة العلاقة بين الفلاحين الباحثين عن النصح وبخيت علاقة عملية جدًا. فبخيت يريد مالاً لقاء رسائله، والزبون يريد إجابات مقابل ماله الذي يعطيه. وقد ذكرنا قبل حين كيف كانت العقود النظامية تُناقش بين «الروح» التابع لمجموعة بخيت والزبائن. وقد يحدث أن يوبخ بخيت الزبون بالطريقة التي يمارسها أي دكتور في الجيش مع مريضٍ مشاكس، أو أي قاضٍ مع متهمٍ عنيد. والزبون يضغط على بخيت، ليس كثيرًا، عندما لا تعمل القدرات الكهنوتية بالقدر الكافي. «تكلم بالعربي»، هتف فلاح غاضب لبخيت في جلسة مس، عندما لم يكن بخيت قادرًا على التعبير عن تكهناته، وماطله بإشارات غامضة وإيماءات لا تبين. وإذا كان الانطباع العام أشبه بالتجارة فإن المشاركين في العملية لا يكونون على قدم المساواة؛ لأن الشيخ بخيت دائمًا في المقدمة، والفلاح يأتي إليه ولديه شعور بأنه لا يسعى إلى طلب المشورة من عمدة القرية المتجهم مثلاً. فإذا خالجه غضب من بخيت فلن يبدي ذلك في وجهه، الأغلب سوف يلعنه وهو في طريقه إلى المنزل

بما اعتاد أن يقوله الفلاحون في مثل تلك المواقف: «الله يلعن أبوك». ولكن في هذه الحالة يغامر باحتمالية أن يلحظه بخيت القادر على التنبؤ، وعلى أن يسمع ويرى رغم المسافات، ربما يدرك بخيت كل ذلك ويرد له الصاع صاعين في نوبات مس قادمة، واستشارات لن تمر مرور الكرام، وبشيء من السخط المحرج.

وليس من شك في أن ظهور «الروح» موضوع يتناقض مع النظرية الإسلامية في مصير المتوفيين. والفلاح معروف بتقواه وورعه. وهو لا يعرف شيئًا عن نظريات الفقهاء المسلمين وآرائهم حول مصير الميت في الفترة الواقعة بين الموت والبعث. ولكن الفلاح المصري يؤمن بكل ما جاء به النبي محمد (ص)، وهو الإيمان بالله رب العالمين. وفي ذلك الإيمان المبدئي فرصة للأرواح الهائمة أن تكشف عن نفسها. ولا شك أن في القرى فقهاء يختلفون عن فقهاء المدينة. أناس من القرى يقرأون ويكتبون، وقد أتقنوا تلك المهارة مما اكتشفوه من طول النظر في القرآن الكريم. وهؤلاء يرقبون كيف يدخل عبد الراضي في حالة المس، وكيف يتحدث غيره من خلاله، والساكن فيه مسلم أيضًا، ومسلم تقي ورع له القدرة على التنبؤ، وهذا الآخر الذي يسكن في جسد عبد الراضي يزعم أنه روح شخص معروف للكافة، وفي وسعه أن يدعو طائفة كاملة من الأرواح المشابهة. ولا يأتي على بال أحد في القرية أن يسمي ذلك ضربًا من الخداع، ونوعًا من الغش؛ لأن الموضوع لا علاقة له بالدجل والشعوذة. ومن الناس من يزعم أن عفريتًا شريرًا من الجن هو الذي دخل في عبد الراضي، وهذا ليس ممكنًا أيضًا لأن «الروح» التي تسكن عبد الراضي تنطق وبالحق في كثير من الأحيان، وتُظهر الإيمان

والورع والصلاح. ولذا فإن الحل الأخير هو أن تلك الروح ما هي إلا نوع من الجن، ولكنه الجن المؤمن الصالح. وفي رسالة النبي محمد (ص) مجال يسمح بالإيمان بالجان. وهذا الجان المؤمن يريد أن يُظهر نفسه في جسد بخيت وغيره من الأرواح التي رحلت عنها الأجساد. هذا إذن هو المعنى الذي يشرحه فقهاء القرية للفلاحين، فيما يتصل بعبد الراضي وأرواحه وأطيافه، وكثير من الفلاحين الأميين يتبعون هذا التفسير، ومنهم بعض الفلاحات. فهم يقولون: «مفيش مشايخ»، أي لا وجود للأشباح والعفاريت.

المسوس بوصفه ناطقًا باسم المتوفى

عرفنا الآن أكثر التأثيرات المقلقة التي مارسها عبد الراضي على الفلاحين من خلال الأرواح التي تظهر لـه. فكثير من الراحلين يستغلون هذا المدخل إلى عالم الأحياء لكي يتحدثوا إلى أقربائهم. وأسباب ذلك الظهور كثيرة.

فبعد أن غادر عالم الأحياء فجأة، عاد محمد عبد القادر البراهمي ليطمئن أبويه، ليخبرهما أنه إنما انتقل إلى جوار ربه بإرادة الله وليس بسبب جريمة أو ذنب، وأن موته كان بسبب حادثة جرت له في العالم المادي، جاء لكي يطلب منهم ألا يبكيا من أجله لأن دموعهما تؤلمه وهو في عالم البرزخ.

وأرواح أخرى مثل روح علي البراهمي ونور الدين العقولي حضرت بسبب قلقهم على أطفالهم اليتامى في عالم الأحياء. وقد حكما على والديهم بالمرض لأنهم أساؤا معاملة أحفادهم الذين تركوهم، واضطروهم إلى المعاملة بالحسنى واللين.

وهناك أرواح أخرى مثل روح خليفة مصطفى من قرية الشيخية ومحمد أحمد من قرية القلعة، تظهر لتطلب بناء ضريح لهم أو مقام على الأرض.

وهذه الأرواح من النوع المخيف بسبب طلباتها الكثيرة، وبسبب قدرتها على إرسال الأمراض والموت إن لم تجد من ينصاع ويطيع.

ونحن نستطيع أن نخرج بكثير من الدروس من هذه الممارسات والتجليات؛ منها مثلاً أن إساءة معاملة الأيتام يمكن أن يؤدي إلى غضب الآباء المتوفين وهم في عالم البرزخ، وأن غضب الأرواح يمكن أن يجلب الأمراض. أيضًا هناك علاقة خاصة بين الخطايا والأمراض، وهذا ما يعتقد به كثير من الناس. أضف إلى ذلك أننا يجب أن نتذكر تلك الرغبة الراسخة في المتوفين، حسب اعتقادات المصريين القدماء، في ترك ذكرى لهم على الأرض.

الممسوس بوصفه ناصحًا للمرضى

ففي مقدور الأرواح أن ترسل المرض. ولذا فإن أولئك المبتلين بالأمراض يلجأون إلى وسيط يتوسط بينهم وبين الأرواح؛ بذلك يمكن للمبتلى أن يجد من يسمعه ويطمئنه. زد على ذلك أن أي فلاح يفضل الذهاب إلى شخص ممسوس أو إلى ساحر ليعالجه من مرضه وليس إلى طبيب. أولاً لأن الطبيب يحتاج إلى مال وفير. ولكن الأنكى من ذلك أن الفلاح نفسه لا يثق في الطبيب. والطبيب الحديث لا يفهم تلك العلاقة القائمة بين الفلاح والمرض. ففي وعي الفلاحين هناك مبادئ وقوانين فوق الجميع، ومنها أن الله هو خالق الخلق كله، وأنه سبب السعادة والشقاء، وذلك ما يستتبع إيمانًا

بقدرية تفضي إلى تواكل وكسل، ولكنها في نفس الوقت تفضي إلى سلام نفسي وهدوء وقور. وقد كنت أحب أن أسمع من الفلاحين الأتقياء الذين كانوا يعانون من أمراض قاسية. كانوا يقولون: «إنها مشيئة الله رب العالمين». وعند هؤلاء الناس الأتقياء الورعين تكون الصلاة والزكاة هي الطريق الوحيد إلى الشفاء من الأمراض. وحتى «الروح» عندما تظهر وتكلف العراف بنقل المعلومات والنصائح فإنها أيضًا لا تتحرك إلا بمشيئة الله، أو برحمته. ولذا فإنه من الطبيعي جدًا أنه عندما يلجأ مريض إلى واحد من أولئك الممسوسين، حتى إن كان لا يعتبر «الروح» مسئولة عن مرضه، فإنه يرى أن ذلك الشخص رسول من العناية الإلهية. والأرواح واسطات بين الأحياء والله، ولكنها أقرب إلى الله من البشر، مما يمنحها بعض القدرة على المساعدة وهي في عالم البرزخ، والأمر بعد ذلك راجع إلى الله رب العالمين.

وفي الصفحات التالية سوف نعدد بعض أنواع العلاج والمعالجات التي وصفها بخيت بينما يكون في حالة المس.

فذات يوم عرف عبد الراضي من ريحة سيدة أنها تعاني من مشاكل في التبول. فوصف لها تشكيلة من أعشاب مختلفة، ولكنه ركز على الكراوية، والكراوية البرية بالذات.

وطفل مريض وصف له أن يشرب كميات كبيرة من الماء. وفي كثير من تلك الحالات المرضية، كان بخيت يوصي الأبوين أن يأخذاه إلى الصحراء ويبحثان له عن عشب معين يُسمونه «لبن الحمار» ويمسحون جسمه كله بلبنه اللاذع. وكان اللبن يسبب التهابات التي يُفترض أنها مفيدة في تنظيف الدم وتطهيره من الأمراض.

وذات مرة وصف مرهم الكبريت لعلاج جاموسة مريضة.

وفي حالة أخرى لبقرة مريضة أصر عبد الراضي على أن هذه البقرة قد أصابتها عين حاسد، عين شريرة. وأن على صاحب البقرة أن يجيء ببيضة من فرخة كبيرة في السن، ويشعل النار في (جِلّة) بقرة، ويعرض البيضة للدخان المتصاعد، ثم يكسر البيضة في الجمر. ثم يصب الماء الممزوج بالملح في حلق البقرة، وبمشيئة الله سوف تُشفى.

وذات يوم جاءه شاب أسمر أو أقرب إلى السواد، يطغى عليه الحزن وأعطى الشيخ قطعة قماش على أساس أنها ريحته، وسرعان ما اكتشف بخيت السر. فلم تكن الريحة إلا ريحة أخي الشاب، أرسلها له من القُصير، وهو ميناء على البحر الأحمر. وتحدث بخيت عن جبال الصحراء التي قضى فيها صاحب الريحة الليل كله. وأن صخرة سقطت من ارتفاع شاهق وتسببت له في فزع لم يبرأ منه، هي سبب مرضه. وكانت أعراض المرض هي التي وصفها عبد الراضي بشكل عام على أنها ألم في منطقة القلب والمعدة والساقين. ولكي يُشفى وجب على الأخ أن يعمل شايًا من نبات الروائد، ويعصر عليه ليمونة، ثم يشرب هذا الشاي على معدة فارغة كل صباح لسبعة أيام. وفي اليوم السابع يطبخ حمامة دون أن يخلط عليها أية عناصر إلا عصير الليمون، ويعصرها ويشرب حساءها. فإن شاء الله يُشفى. أضف إلى ذلك أن الشاب المريض يجب أن يكون معه «عُقَد» يعدها بنفسه، بخيت.

وآخر أرسل «ريحة» لأخيه من الإسماعلية، واكتشف بخيت أن الرجل تعرض لحسد، ومرة أخرى وصف له علاجًا. وأما الشاب الذي أحضر الريحة فقد كانت تلك زيارته الأولى للشيخ بخيت، في تلك المرة نصحه

بخيت أن يصنع عُقَدًا، ولذا أحضر الشاب المواد التي تُصنع منها العُقَد، وأعطاها لبخيت - حلق من الحديد في حجم خاتم الأصبع، ومعه حزمة من خيط القطن. وقسم بخيت الخيط، وأخذ حوالي نصفه ومزقه، ثم وضع هذا النصف تحت حصيرة كجزء من الأتعاب. وراح يفتل النصف الثاني بسرعة على ركبته حتى تصبح الخيوط جيدة الشبك معًا، ثم ربط الحبال إلى حلقة بها عقدة، ثم ربطها جيدًا مرة أخرى بعقدة ثانية وثالثة وهلم جرا، حتى غطى كل الحلقة المعدنية. وفي أثناء هذه العملية كان يهمس باستمرار وبحدة، ربما كان يرتل بعض الصلوات والدعوات والأقوال المأثورة. وعندما أكمل المهمة راح يحكم الشد على نهاية العقدة ليغطي الحلقة تمامًا ويترك نهاية الخيط طليقة حرة حتى يستطيع المريض أن يربط الطلسم هذا بالجسد. وفي ختام ذلك الجهد راح بخيت يقبل العقدة لكي ينقل إليها المزيد من البركات، وأعطاها للغلام ليعطيها لأخيه، طبعًا مع تعليمات بحملها على الجهة اليمنى من ناحية الصدر.

هذه إذن هي «العقدة». حلقات معدنية رُبطت جيدًا من قِبل الوسطاء الممسوسين الآخرين، لم يكن ذلك مقصورًا على بخيت، ولكن بخيت يحب أن يصف هذا العلاج في أغلب المناسبات، طبعًا ليس دون التفكير في الأجزاء الباقية التي كان يضعها تحت الحصير، والتي يعطيها لقاعوده لكي يحفظها في مكان بعيد. وأما عملية صنع العقدة المصحوبة بتعبيرات وجه حزينة ووقورة ومهيبة وحركات جادة فلها فعلها في الضيوف.

حالة عباس

وذات يوم سمعت أن «روحًا» جديدة حلت في جسد شخص ولبسته. علمت بذلك بعد أيام قلائل من الحادثة. وهذا الشخص الممسوس حديثًا تعرض لطرق شتى من العلاج. فقد أخذوه إلى عبد الراضي. وكنت أهتم جدًا

بأن أعرف كيف يبدأ المس في مراحله الأولى، على الأقل لكي أعرف كيف سيكون رد فعل عبد الراضي إزاء هذا الزبون.

وقد كنت ذكرت هذا الممسوس في هذا الكتاب. إنه عباس، أخو فاطمة ذات العيون الجميلة التي تجلس على الطريق إلى «قفط»، وعباس هو الممسوس الذي انعقدت لـه حلقة ذكر تبع الطريقة الشاذلية، والتي حضرتها بنفسي، وهو الذي ظهر له فريق كامل من العفاريت والأرواح في شخص عبد الراضي عندما استشاره.

هذا ما استطعت معرفته من أمر عباس، فهو ينتمي إلى أسرة من الجمّالين؛ وهي أسرة معروفة باستقامتها وتقواها، من قرية «العودات» بالقرب من «قفط». مات أبوه عندما كان ما يزال صبيًا، وترك لـه اختًا أكبر منه، وهي الشيخة فاطمة التي تحدثنا عنها. وفي ربيع عام ١٩٣٤ كان عباس قد وصل إلى سن العشرين. وكانت أمه كفيفة؛ فقد أظهر وجه المرأة العجوز ذات الوجه المجدور المنهك أن الجدري دمر عينيها. وعندما كان ابناها لا يزالان صغيران، وهي قد نالت منها الهموم، نذرت للشيخ الأنصاري نذرًا أن تأتي له بأضحية إن تمكنت من تربية ابنها حتى يبلغ مبلغ الرجولة. ولكن السيدة لم تفي بنذرها، رغم أن الشاب وصل إلى سن الرجولة منذ فترة.

وكان عباس يعمل عاملاً باليومية عند الفلاحين، يجمع «السباخ» من تحت المواشي. وفي يوم من الأيام، قبل أيام قلائل من معرفتي بالموضوع، كان عباس في الصحراء مع حماره، يحمله بزكائب من هذه «السباخ». وفي الطريق أمسك به شيخ، روح. راح عباس يرتجف هلعًا كأن حمى أصابته، وكان مرهقًا أشد الإرهاق، ورجع إلى البيت.

وفي الليل رأى خلقًا كثيرين جاؤوا لزيارته، وراحوا يعتنون به، عندئذٍ صاح بأعلى صوت وهو خائف «ناس، ناس». ثم رأى واحدًا منهم يصوب بندقيته ناحيته. وكان خائفًا أشد الخوف. وفي ذلك الحُلم راح يهتف بأسماء اثنين منهم، أحمد ومحمد. وراح أصحابه الذين كانوا يرعون رفيقهم المريض، يتطلعون إلى بعضهم بعضًا - لابد أنها أسماء الأرواح التي لبست عباس في الصحراء. أيضًا يتذكر أن الناس الذي يركعون قريبًا منه ويصوبون بنادقهم نحوه يُفترض أنهم أرواح، مشايخ. وعند حلول اليوم التالي لم يتغير الوضع على الإطلاق. راح يشير بلا توقف إلى محمود في حديثه المضطرب الذي تتخلله تعويذة دينية، وكان يسمي نفسه الطاهر. لم يعرف أحد من يكون محمود ذاك الذي كان يذكره على لسانه. فقد كان حديثه مضطربًا، والعلامات قليلة للغاية - فقد يكون واحدًا من الجن، أو عفريتًا لبسه. أحرقوا الخِرق عند أنفه؛ لعلهم يطردون الجن أو الشيطان المزعوم. ولكن هيهات، فعَمدوا إلى دعوة رجل من الذين يحفظون القرآن ليتلي عليه ما تيسر منه. فهمس عند أذنيه بالشهادتين. وردد عباس خلفه بصوت عالٍ بشيء من الصعوبة، وأضاف: «أنا لست شيطانًا». ولم يعرف الناس ماذا يفعلون بعد ذلك. حبسوه في البيت. وفي اليوم التالي أطلقوا سراحه. أراد أن يعود مسرعًا إلى تلال الصحراء. ومن الطبيعي أن يُمنع من الذهاب. ولكن خمسة رجال أخذوه عند عبد الراضي في نجع الحجيري. وكان عبد الراضي في تلك الأثناء مشغولاً في صلاة العصر، ثم دخل خلوته وانتظر حلول الشيخ بخيت. وقبل كل شيء ظهرت له روح «الأسيوطي»، وراح يهتف بحمد الله الدائم. ثم ظهر بخيت، وراح يتحسس رأس عباس وجسده، وقال: «الناس يقولون إن به شيطانًا، ولكن الذي حل به شيخٌ وليس شيطانًا». ثم راح بخيت يوجه اللوم لواحد

من الرجال المرافقين لعباس قائلاً: «لماذا تضربون عباس؟ إنه شيخ. ولماذا أحرقتم الخرق عند أنفه؟» وكان مساعدي مهدي من الذين كانوا يرافقونه. وبوصفه من القارئين المتعلمين تجرأ وسأل مرة أخرى نفس السؤال إن كان شيطانًا قد دخل في عباس. وصرح بخيت بإجابته الصريحة التي لا لبس فيها: «لا، لا، ليس شيطانًا، هؤلاء مشايخ، أرواح مشايخ. الشيخ محمود قام عند أنفه، والشيخ أحمد قام عند جنبه الأيمن». بدأ المس في الجهة اليمنى، وراح عبد الراضي يتحسس جسده هو، وبخيت يشير في الهواء ويقول: «دعه يذهب، محمود، إنه فلاح مسكين». ثم أوصى بخيت بأن «عباس يجب أن يُغسل بأوارق شجرة اللوتس، ويرتدي جلبابًا نظيفًا أبيض، ويحضر في الخلوة، وهناك يسمع عما وراء الحُجُب، ثم ينزل فيه الشيخ. أضف إلى ذلك، أن النذر الأضحية التي وعدت بها أم عباس يجب أن تأتي للشيخ الأنصاري. ثم قرأ الجميع الفاتحة على طريقة الشيخ بخيت، وذهب عباس إلى البيت مع أصحابه ورفاقه، والمفترض أنه تحسن.

ويجب أن أشكر مساعدي مهدي لهذا التقرير الوافي. أخبرني أيضًا أن أم عباس رأت الشيخ الأنصاري في حلم في الليلة التالية لنوبة المس الأولى. قال لها: «ألم تنذري لي نذرًا إن عالجت ابنك؟» وفي العلم تعهدت الأم أن تفي بنذرها ما عاشت.

في نفس الوقت كان الناس يتحدثون عن هذه الحالة في «قفط». وسمع عنها طبيب الحكومة التي أجبرت عباس إلى الرحيل إلى خيام الحجر الصحي خارج المدينة، والتي كانت قد تصادف أنها أُنشئت لعزل ضحايا المشتبه فيهم بمرض الجدري.

وما سمعت أخبار تلك الحالة من المس، حتى ذهبت إلى مركز الحجر الصحي لأرى بنفسي. وكان اليوم الإثنين التاسع عشر من فبراير. وهنالك فتحت كراسة يومياتي وقرأت فيها أشياء كتبتها في السابق، فأخذت فكرة مسبقة.

فعلى أطراف مدينة «قفط» كنت ترى خيام الحجر الصحي التي نُصِبت، وكانت مفصولة عن البيوت بجرف ترابي لترعة ماء. وفي الجانب الذي تقع فيه مدينة «قفط» كان هناك زحام من الناس يقفون ويجلسون القرفصاء هنا وهناك يرقبون الجانب الآخر، حيث كان عباس الذي كان ممسوسًا يقف أمام خيمة من تلك الخيام. وذهبت إليه وسط الجموع وبادرته بالتحية - غلامٌ أسمر، أقرب إلى السواد، على حافتي فمه توجد رغوة وعلى شفتيه كذلك. وكان وجهه منقبضًا مع ألم يفارقه شيئًا فشيئًا. وكانت ركبتاه ترتجفان. وكان يمسك بكسر خبز مهشمة في يده. ثم بعد ذلك كان يُخرج قطعًا من الطين الطفلي من جيبه. وقال قريب لنا كان قادمًا معي إنه سوف يأكل تلك الكسرات من الطين الطفلي. ومسح قريبي اللعاب الناشف من على فمه. وبدر منه تعبير مليء بالحزن والرثاء. لقد عرفني بمجرد أن رآني مع مسافة كبيرة في الشارع، وعرف آخرين أيضًا كانوا يسألونه أسئلة فقط». كان كلامًا مشوهًا، وبيانه محجوبًا.

وكان بين الحين والحين يتوقف بناءً على كلمة، وكان يبحث دون ملل أو كلل عن المقاطع الصحيحة. وقال كلامًا عن حذاءٍ يدوس على قبر محمود. وراح يكرر ويتلجلج بأنه مسلم. وأن الإسلام بالنسبة له الملجأ الذي يلوذ إليه في أعماق الروح. وراح يكرر اسم محمود، ثم تمدد بجسده، وراحت عيناه

تطرف بشكل أسرع، وبصوت واضح قلق نادى بأعلى صوته هذا الاسم. جمع غفير من الناس أتى معي وقريبه والمريدون يبعدونهم. عباس نفسه أغرى عصبة من الأطفال الفضوليين يتحلقون حوله. وظن الناس أنه من المرجح جدًا أن قبر محمود لابد أن يكون هناك في مكان ما، على الطريق المفضي إلى السوق، وهو مكان لا يليق بمكانة محمود، وأن محمود الشيخ يُهان في هذا الموضع، تدوس عليه أقدام الرائحين والغادين. وبعد فترة لم تطل، جاء الطبيب الشاب، ورتبت معه موعدًا.

وعند عودتي إلى القرية مررت بأخت عباس «الهبلة»، كانت تجلس في ظل منزل متكومة على نفسها. كانت تضع رأسها على فخذها وتحدق أمامها في الفراغ. بادرتها بالتحية. وببطء شديد حركت نفسها ونظرت إليّ بعينين جميلتين مفعمتين بحزن عميق وكأنهما بعيدتان. وقلت لها: «لا تخافي». وببطء أيضًا تحولت تعبيرات وجهها إلى البكاء. كانت تبكي بسبب أحداث الأمس، بسبب أخيها.

ولم أر عباس في اليوم التالي. وأخبرني مساعدي مهدي بأن أم عباس كانت قد باعت فرختين في السوق واشترت تيسًا لتقدمه قربانًا للشيخ الأنصاري. وجاءت الأم أيضًا ببعض القماش الأبيض لتخيط جلبابًا لابنها كان الشيخ بخيت قد أوصى به. وكان الطبيب قد أطلق سراح عباس. فقد رآه مهدي أمام منزله في حال من السعادة. في يده سوط وكان يتخيل أنه يطارد به العصافير ليبعدها عن الغيط. كان يضرب الهواء بالسوط وينادي بصوت رهيب قائلا: «هاها». وكانت أخته فاطمة التي رأيتها مكتئبة بالأمس سعيدة اليوم، تجلس إلى جوار أمها، تطارد طيورًا خيالية، وتضحك على المشهد كله.

تحدثت إلى الطبيب بعد ذلك بفترة قصيرة. لم يكن قادرًا على الوصول إلى التشخيص الذي يرضيه. ولما لم يرتكب عباس عنفًا، ولما لم يجدوا له علاجًا في المستشفى، والطبيب موجود في المستشفى متى احتاجوه، فلم لا يُطلق سراح عباس. لقد أطلق الطبيب سراحه، وسُر أقرباؤه بعودته. ولكي يبعدوه عن طريق الطبيب أخذوه إلى خالٍ له في قرية بعيدة. ولكنهم ما لبثوا أن أعادوه في غضون أيام قلائل.

ثم رأيت عباسًا للمرة الثانية. وأنا في طريقي إلى مكتب البريد لمحت فاطمة. كانت الفتاة تضحك وتشير إليّ بشكل غريب.

وأخبرتني بشيء من السعادة البادية على وجهها بأن عباسًا قد عاد. وكان عباس يجلس في الجهة الأخرى من الشارع مع ابن عم لـه بقال. كان يمسك بعود قصب سكر، وكان وجهه قد تحول إلى اللون الأسود بسبب كثرة الذباب عليه. حياني بعبارة دينية، وكان صوته حادًا بعض الشيء، مهتزًا، وأقرب إلى البكاء. وكان جسده كله يبدو كأنه يرتجف. كان ينطق الكلمات بشيء من التردد والصعوبة. وكان يشرح ظروفه وأنها إرادة الله. ثم أوراني راية حمراء كان على ما يبدو يعدها للقاء الشيخ الجديد القادم، الشيخ محمود.

ورأيته مرة أخرى في اليوم التالي. كان يجلس إلى جوار أخته. الاثنان معًا، الشقاء المزدوج. في إحدى يديه كان يمسك بكسرات خبز مسحوقة ونصف قرش صاغ، وفي اليد الأخرى كان يمسك بقطعة خبز. وعندما بدأت أتحدث معه، راح يبكي. أخبرتني أمهما الكفيفة أن المساء القادم سيشهد تقديم قربان وحلقة ذكر لعباس ويجب أن آتي.

وقد تحدث باستفاضة عن هذا الذكر من قبل.

لم يساعد الذكر عباس كثيرًا. ففي الرابع من مارس يوم الأحد عصرًا أخبرني مساعدي مهدي أن عباس كان قادمًا وسيمر، كان في طريقه إلى نجع الحجيري ليرى عبد الراضي. ثم وصل فعلاً في جلبابه الأبيض، وعلى رأسه قطعة قماش بيضاء تتدلى حتى عاتقيه، وفي يده عودين قصب سكر، وخلفه تمشي أمه الكفيفة، يقودها رجل عجوز. وبعد أن مر عباس بوقت قصير انطلقت. وأنا الآن أقرأ من يومياتي.

ولحقت به في الطريق، وفي نجع الحجيري انتظرنا في دهليز عبد الراضي. كان هناك حماران يرقدان على الأرض ويتقلبان ويحدثان عاصفة رهيبة من التراب. وكان عبد الراضي قد انصرف إلى صلاة العصر في المسجد. وما لبث أن جاء. كانت علامات الجدية ظاهرة على وجهه بشكل غريب، وكان وجهه أقرب إلى العبوس والتجهم. وبعد أن حيّانا بتحية مختصرة تقليدية ولكنها من القلب دخل عبد الراضي في خلوته وجلس في مكانه، وكلنا حوله. ظننت أن جدية عبد الراضي وعبوسه كانا بسبب عباس - وربما كان يخشى وجود منافس لـه. وأُحضِرت آنية البخور. وراح عبد الراضي يستنشق الطيب، ثم أمسك بالآنية وقربها من أنفه وراح يحتسي الدخان احتساءً كأنه يشرب الشاي. ثم وقف بكامل استقامة جسده. ومرتان يرفع آنية الطيب ويمسكها مدة طويلة أمام وجهه، ثم يلقي بها بعيدًا. ووصلت بعض نسمات الدخان إلى عباس الذي بدأ بشيء من التردد في استنشاقها، ثم توقف فجأة. كان هناك عدد قليل من الناس ينتظرون رسائل من بخيت. ونصحهم بخيت، ثم تحولوا إلى عباس.

ثم ظهر طابور رهيب من الأرواح الشبحية الواحد تلو الآخر. وكنت قد شرحت ذلك قبل الآن (ص ١٠٠ وما بعدها). ويبدو أن عبد الراضي كان يستغل هذا الحضور للأرواح ليشق طريقه إلى استمالة الممسوس حديثًا. هنالك ظهر الشيخ علي والأسيوطي والورداني وعبد القادر الجيلاني وسليم الهُو، وبينهم ظهر بخيت ثم محمد أحمد القلعاوي الذي حياهم، وكان أبواه حاضرين بين الزبائن، ومعهما ابن عمه الذي توصل إلى اتفاقيتين مع عبد الراضي. وعندما استيقظ عبد الراضي من مسه، بعد وقفة قصيرة يسقط في نوبة مس جديدة، وعندئذٍ ظهر بخيت وأخيرًا تحول إلى حالة عباس.

وفي أثناء ذلك كان عباس يجلس أمام عبد الراضي يراقبه بدقة وعناية وبشيء من الثقة. وكنت أشعر أن حالة عباس تسببت في ألم لعبد الراضي؛ فقد وجد الشاب زاهدًا عزوفًا وأقرب إلى التوحد. وطلب بخيت من خلال عبد الراضي أن يتلو عباس الشهادتين، وعباس فعل، وإن بشكل متردد. وأكد بخيت عندئذٍ أن عباس يتحسن. والحقيقة أن عباس صار أهدأ حالاً مما كان عليه في الأيام الأولى من المرض، عندما كان يرغي ويزبد ويسيل اللعاب من فمه على وجهه، وكان وجهه مشوهًا من شدة الألم. أعلن بخيت الآن أن قبر محمود المنسي يقع وراء منزل عباس. وكان بخيت يشير بيده في الهواء ويقول: «محمود، دع الولد يمر، دعه يمشي». ولم يكن بخيت يعرف ماذا يفعل. ثم طلب منه أن ينطق الشهادتين، وتلاها عباس وهو خائف مروّع. وعندما تم ذلك انفجر بخيت بضحكة بغيضة، وسرت العدوى إلى عباس وضحك منتشيًا. وأرسل بخيت رسالة عن أسباب مرض عباس. وأرجع مرضه إلى الأرواح (المشايخ) المنتشرين في الصحراء القريبة. لقد اجتمعت تلك العفاريت على عباس عندما كان يجمع السباخ، وضربته على أم رأسه.

لقد جاء الناس قبلي ومعهم عباس لرؤية الشيخ بخيت، ولكني لم أكن أعلم شيئًا عن تلك الزيارة. فقد أمر بخيت مرافقي عباس أن يحضروا معهم الحلبة والبرسيم والخل. والآن يطلب منهم بخيت هذه المكونات، ويطلب من تابعيه أن يصنعوا منها خليطًا أو معجونًا، ليضيف إليه الخل. والمعجون يبرد، وبخيت يقلبه بيده، ويشير إلى عباس ليأتي قريبًا منه، وعباس خائف فزع، ومرتان يمسك بخيت بصدغي عباس كأنه يريد أن يقيسهما، ويعصرهما. ثم يفك عمامة عباس ويتناول حفنتين من المعجون، ويمسح بهما على جمجمته، بشدة وإمعان.

وفوق ذلك يقوم بلفهما بقطعة قماش. ثم يأمره بخيت بشيء من القسوة والحزم أن يحافظ على ارتداء هذه الضمادة لثلاثة أيام، ثم يعود من جديد إلى نجع الحجيري ليفكها بنفسه. أضف إلى ذلك أن على عباس أن يصل في ليلة بعينها وغير معروفة، إلى المكان الصحراوي الذي عانى فيه من هجمة العفاريت. هنالك يجب أن يرقد. وبرأسه ويديه وقدميه تُعلَّق مفاتيح، وكل شيء يجب أن يُعطر بالجاوي. أضف إلى ذلك أن جسده كله يجب أن يغطى ببذور من كل نوع - القمح والشعير والذرة والبازلاء والحلبة، وكل ما هو متاح وموجود. ثم بعد ذلك سوف يُشفى. وأخبرنا بخيت أن الشيخ محمود كان غاضبًا لأنهم لم يؤجلوا أضحية الشيخ الأنصاري: فقد رأوا أن الأفضل أداءها في غضون ثلاثة أسابيع. وعلى كل حال الشيخ محمود الآن في أسوان. وفي النهاية طلب بخيت لقاعوده جلبابًا من قماش البفتة، وهو من النوع الغالي الثمن، ويُعتبر من الإكراميات الثمينة. وأشار مرافق الأم إلى أن الأسرة تعاني من فقر مدقع. ولكن بخيت لم يرد إلا بضحكة ماجنة. بعد ذلك

أخرج عباس وأمه ومرافقهما؛ وهو يخبرهما أكثر من مرة بأنه حان الوقت ليذهبا. وغادروا المكان وقد ركبهم الهم والغم.

بعدئذٍ أعطى بخيت رسالتين، واحدة لي، والأخرى لمساعدي، وكلاهما لا أهمية لهما. وأخيرًا استيقظ عبد الراضي، وقد أخذ منه الإعياء كل مأخذ، وعند الاستيقاظ راح يتلو الجزء الثاني من الشهادتين بنغمة ملؤها الحزن والغم. ثم عاد إلى نفسه بالتمام والكمال، وبدا أكثر ودًا، وحيانا.

ولم يعد عباس إلى بخيت قط، أو لم يعودوا به إلى بخيت قط. وليس من شك في أن الإكرامية التي طلبها كانت جزءًا من السبب. وساءت حال عباس واضطربت حياته فترة ما. راح يمزق ملابسه ويضرب الناس، حتى إنه ضرب أمه. فعمد أقرباؤه إلى ربطه. وعندما ربطوه جلس بجوار أخته فاطمة. ورويدًا رويدًا أصبح أسلس قيادة وأهدأ حالاً، وفُكَّت قيوده، وتخلص من التلعثم في الكلام، وأصبح كلامه عاديًا، وعاد إليه عقله، وبعد أسابيع قليلة رآه الناس يركب حماره وفي حالة من الفرح والبهجة في طريقه إلى الصحراء. لقد أطلق الشيخ محمود سراحه وتخلى عن خطته في أن يمتطيه ويتخذه وسيطًا.

الممسوس ناصحًا ومرشدًا وحكمًا في الأمور القانونية وأمور أخرى اجتماعية

تحدثنا قبل حين قليل عن قدرة الممسوس على أن يكون ناصحًا ومرشدًا في الأمور القانونية. لمحمد عبد القادر الذي دهسه القطار، ظهر من خلال عبد الراضي لكي يعرف أبويه أن وفاته كانت قضاءً وقدرًا ولم تكن مدبرة، وكانت حادثة ولم تكن جراء تربص بحياته. وبذلك استطاع أن يعفي أبويه

وسائر أفراد قبيلته من التفكير في الأخذ بالثأر من أولئك الذين تسببوا في مصرعه. وهناك أرواح أخرى مثل على البراهمي ونور الدين العقولي ظهرت من خلال عبد الراضي للمطالبة بحقوق الأيتام الذين تركوهم. وقد سمعنا عن روح محمد أحمد القلعاوي أنه أراد أن يساعد ابن عمه على الزواج.

وليس المرض وحده هو السبب في أن يلجأ الناس إلى عبد الراضي، وإنما كانت السرقة من ضمن الأسباب الأخرى.

ذات مرة رأيت اثنين من الفلاحين جالسين بجوار عبد الراضي. أحدهما يُدعى يوسف ربما في الستين من عمره، والثاني في الخمسين. وكان في صحبتهما شخص يُدعى محمود، غلام بين السادسة عشرة والثامنة عشرة. وكان يجلس خلفهما في مكان مظلم. لقد جاء هؤلاء الناس من قرية القرنة المتاخمة للصحراء والمجاورة لقرية بير عنبر [1]. أعطى يوسف عبد الراضي وهو في حالة المس ثلاثة أشياء كـ «ريحة»: شريط صغير من القماش، وشال، وبالطو أسمر مصنوع يدوي يسميه الفلاحون «الزعبوط». في تلك الحالة كان عبد الراضي مسكونًا ببخيت. وكان يبحث عن حل لتلك المشكلات. وكان الرجلان يفتقران إلى المزيد من التفاصيل، وكانا يلحان على عبد الراضي إلحاحًا شديدًا. وأجاب بخيت بشكل متوتر وساخط، ولم يكن واضحًا في أي من القضايا التي طُرحت عليه. أخذ الزعبوط وطرحه بعيدًا، كان يريده أن يكون بعيدًا. وبإجابة غليظة خشنة توجه بوجهه كله إلى يوسف العجوز، فاتحًا عينيه على اتساعهما في غضب وحنق. كانت عيناه غائمتين مليئتين بالإرهاق. حاول الرجل العجوز أن يفهم بخيت. القضية كانت قضية سرقة.

(١) هذه قرية تقع شمال «قفط» وليست الجورنة المعروفة في الأقصر.

لقد كان أولئك الناس قد جاؤا قبل ذلك مرة. كان يوسف هو الضحية. لقد كان قد أعطى قطعة أرض لقريب لـه، الرجل الآخر الذي كان حاضرًا. ولكن هذا الرجل حصد ثمارًا من أرض لم تكن لـه؛ بمعنى آخر: سرق المحصول. ثم عاد يوسف وأسترد حقله منه.. وغضب محمود، ابن هذا القريب، سرق بقرة من يوسف، جرها بعيدًا، وأخفاها. ولكن كان ممكنًا أن يرد البقرة دون فضائح. ثم إن شخصًا ما سرق قواديس الساقية من ساقية يوسف، وهي غالية جدًا لأنها معدنية. استخدم اللص منجلاً في قطعها من شفير الساقية. من الطبيعي أن يُشك في محمود. ومحمود أنكر أي تورط في هذا الفعل. في الجلسة السابقة عن الريحات الاثنتي عشر المختلفة من المشتبه فيهم التي أخذها منهم بخيت. ثلاث مرات مروا في يده، وثلاث مرات يلتقط ريحة محمود بوصفه اللص. وفي هذه الزيارة الثانية كانوا ذاهبين للمرور بذلك الاختبار مرة أخرى. جلس محمود في الركن عابسًا قطوبًا؛ والكوفية التي كانت بين الأشياء التي استلمها بخيت كانت لـه. ومرة أخرى عرف بخيت صاحب هذه الكوفية بوصفه الجاني واللص. وبشيء من الغضب والزعل ذكرهم بخيت بالزيارة السابقة. وقال إنه رغم الدليل الدامغ الذي قدمه بخيت في المرة الماضية، فإن محمود ما ينفك ينكر فعلته. واليوم كما حدث في المرة السابقة، كان محمود يتجنب بخيت ويسبه. وفي النهاية رمى بخيت بالكوفية بغضب على محمود الذي أخذها ولفها بشيء من السخط حول رأسه. وأوصى بخيت عندئذٍ بتجاهل الموضوع لأن الأطراف الثلاثة تربطهم قرابة ونسب. وهذه العلاقة أشار إليها بخيت بعلامات وليس بالكلام الصريح.

وفي مرة أخرى رأيت مدرسًا في مدرسة من كيمان يجلس وسط الزبائن، وكان معهم رهط من الأصدقاء المتعلمين. وبعد أن وقع عبد الراضي في حالة المس ودخله بخيت، سأله المدرس دون أن يأخذ ريحته، فلم يكن لديه ريحة في هذا الموقف بالذات، من الذي اقتحم المسجد في «كيمان». فقد سرق منه اللص فانوسين كانا هناك منذ أجيال، وكانا ذات قيمة عالية، وكذلك سرق اللص ساعة حائط كبيرة. كان بخيت ساخطًا أشد السخط بسبب هذه الجريمة.

لِم لم يكتفِ اللص بسرقة أحذية المصلين؟ وكان يقصد أن ذلك إنما سيكون ذنبًا أخف من أن يسرق شيئًا يعود إلى المسجد نفسه. ولكن المدرس لم يعجبه القول فسأل الشيخ سؤالاً مهمًا: «ومن هو السارق؟» وكأن بخيت قد أُحرِج. قال لهم لا داعي لأن نذكر اسمه، وضرب نفسه على عينيه وهو يقول: «الله كفيل بعقابه في عينيه. وحين سمع المدرس هذا الدعاء غادر المكان، فلم يكن راضيًا كل الرضى.

ومرة أخرى كان بخيت ينصح زائرًا بخصوص مرض، ثم راح يرش بماء على موضع المرض: وكان المرض في الجهاز البولي للإنسان. وبعد أن قدم بعض النصح حول هذه البلوى، عرض عليه ضيف آخر بشكل عاجل ريحته. وهنا أيضًا تحدث بخيت بطريقته المتقطعة بعبارات عن «الماء»، ولم يكن هناك شك في أنه كان يعني أيضًا مشكلات في الجهاز البولي. وقال الشاكي بأمانة أن ذلك لم يكن بالشيء الذي كان يريد السؤال عنه. وغضب بخيت بعض الشيء، ولكنه واصل جهده مستدلاً بحديث السائل إلى الطريق الصحيح. فالرجل كان قد ضاعت منه بقرة كما فهم بخيت الآن ووعى. فقد

بنى على قصة «الماء» رسالة أخرى مختلفة، فلطالما ربط بين اختفاء الحيوان بحوض الماء الذي تشرب منه الدواب. وكان ذلك مفهومًا بالنسبة للسائل، ورضي بالإجابة.

وفي مرة أخرى مد فلاح شاب يده لعبد الراضي، وكان ممسوسًا ببخيت. وتكلم بخيت في البداية بأشياءً لها علاقة بالتوظيف والوظائف. ومثل تلك الأمور لم تكن بعيدة عن الاهتمام المباشر للناس، ففي هذه البلاد يفكر الشباب ليل نهار في الوظائف، وكيف يكسبون بعض المال. وقال بخيت: «انتظر قليلاً»، ثم تحدث حديثًا غامضًا عن رسالة سوف تأتي لـه، ثم عن ثرثرة دائرة بين الناس في القرية. ولكن الرجل لم يرض عن الإجابة، ووضع يده على يد الممسوس للمرة الثانية. ومن جديد كان رأي بخيت هو الأرجح، وكان مستهجنًا لفهم الفلاح الشاب وحديثه.

وابتسم الرجل - فقد وقع بخيت على ما يفكر فيه الرجل، على ما يدور في خلده وضميره، وقال: «اترك هذا الأمر، يكفي». وكان الضيوف الآخرون يسمعون كلمات بخيت، ويتهامسون فيما بينهم بشكوكهم. وبعد الجلسة والابتعاد عن منزل عبد الراضي استفسرت عن القضية الحقيقة التي كانت محل النقاش. فقد كان والد السائل قد قُتِل منذ فترة. ولم يكن واضحًا من المسئول عن مصرعه. ولكن الشكوك ذهبت إلى شخص معين. ثم اكتشف الناس أن هذا الشخص أيضًا قُتل. وربما كان الرجل الذي كان يسأل بخيت هو الذي ثأر لوالده. وعندما قبضت عليه الشرطة استطاع أن يقدم دليل براءته؛ فكثير من الناس أقسموا على أنهم رأوه في مكان آخر في نفس وقت وقوع الجريمة. ولسبب ما لم يكن واضحًا في تلك القصة الغامضة، لم يرض الرجل

عن هذا الثأر - فربما شك في تورط شخص آخر في هذه الجريمة. ولهذا السبب راح يأخذ نصيحة بخيت في ذلك اليوم، ولكن بخيت كان ينصحه طول الوقت بألا يتورط في سفك المزيد من الدماء.

وفي مرة أخرى كان هناك رجل يجلس أمام الممسوس وينظر بعينيه قلقتين. وكان بخيت في بداية نوبة المس. فمنذ فترة كانت الشرطة تبحث في القرية من منزل إلى منزل عن أسلحة. ووجدت الشرطة سكينًا مسرفة في الطول في بيته. وكان الرجل يفكر ليلاً ونهارًا في أنه قد يُلقوا به في السجن بسبب السكين. أخبره بخيت بكل ذلك وراح يخفف عنه، قال لـه إن الأمر قد ينتهي إلى غرامة مالية بسيطة.

وذات مرة قدم محمد، الابن الأصغر لسنوسي، ريحته لبخيت. وكانت عبارة عن مزقة كان قد مزقها من جلباب أخيه مهدي. وعلى الفور عرف بخيت أنها ريحة جلباب مهدي وليست ريحته. قال لـه إن مهدى تشاجر مع أبيه. وأخبره محمد فيما بعد أن ذلك كان صحيحًا. أضاف بخيت أن الرجل صاحب تلك الريحة لم يكن يتمتع بعقل سليم، وإنما كان عقله مضطربًا. أو كان مسحورًا. وأن زوجته تحتفظ بقطع من الأوراق حتى لا يفكر في غيرها على الإطلاق. وأسر لي محمد أنه ربما كانت زوجة مهدي هي التي أخفت تلك المزق من الورق في جدائل شعرها. فهي ابنة الشيخ مصري، وهو متخصص في مثل هذه الأمور.

السلام العائلي، والهدوء في البيت، والسعادة في الزواج هي الأمور التي ينشدها الناس في أغلب الأوقات، هي التي تدفعهم، وخاصة النساء منهم، إلى الذهاب إلى عبد الراضي. وهو قادر من خلال تكهناته أن يرى ما لا يراه

الآخرون، وأن ينصح الناس في الخير، أن يجهز العقد النافعة لزبائنه. وأما الرجال فإنهم يأتون إليه في الغالب للنصح والاسترشاد به، والحصول على معلومات عن فرص في عمل أو وظيفة.

عبد الراضي بوصفه النقطة المركزية في مجتمع الفلاحين

وإذا راجعنا أحداث ما مضى، رأينا كيف كان ظهور عبد الراضي في مجتمع الفلاحين في قريته والقرى المجاورة إرهاصًا لتغير مهم. بدا الأمر كأنه في وسط القطع المتناثرة، فجأة ظهرت قطعة تتحلى بجاذبية المغناطيس القوية، والقطع الأخرى تهوي إليها وتتهادى حولها لتحيط بها. وفي وسط كتلة مضطربة من أرواح الفلاحين ظهرت روح فجأة تقف وحدها تتحمل المسئولية، والأرواح الأخرى تنطلق في اتجاهها، وترمقها في أمل - لقد أصبح عبد الراضي تلك النقطة المركزية التي ظهرت وسط الفلاحين. وأصبح مصدر متعة استثنائية للباحث العلمي الذي يريد أن يشهد ظهور هذا المركز بعينيه، وأن يرى تطور هذا المركز الجديد من نقطة إلى نقطة.

نلاحظ في البداية كيف كان أقرب أقرباء عبد الراضي - الزوجة والأخوة والأب - يتجهون بأنظارهم إلى تلك النقطة المركزية وكيف بدأ الناس في القرية عندئذٍ مراقبته والبحث عنه، وكيف أصبحت شهرته تغزو القرى المجاورة، ومن هناك يأتي إليه الناس بحاجاتهم ورغائبهم، وكيف انجذب الناس إليه من مسافات بعيدة، من خارج هذه المنطقة، حتى من مدينة القصير على البحر الأحمر أو الإسماعيلية على قناة السويس، يشرحون له حاجاتهم، ويعطونه روائحهم لكي يبحث لهم عن حل أو نصيحة.

ويمكننا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، فقد يأتي الناس إلى عبد الراضي من القرى المجاورة. وكثيرًا ما يضطرون إلى الانتظار وقتًا طويلاً إذا تصادف مثلاً أن وصلوا في أثناء دور النساء في استشارة الممسوس. عندئذٍ يجلسون القرفصاء لساعات في الساحة الأمامية المظللة ينتظرون، ويتقابلون مع معارف لهم، ويتساهمون في رواية القصص والحكايات حول أمراضهم وحالاتهم، ويتناقشون في أسعار السوق وأحوال المسئول الجديد، ويتحدثون عن الحرب التي تدور في الأماكن البعيدة، وعن فرص العمل المتاحة في المدن الصناعية - باختصار: كانت تلك الزيارات لعبد الراضي تفضي إلى تبادل الأخبار، أو إتاحة الفرصة لإنهاء صفقة تجارية، أو الإعداد لزواج مرتقب. وفي كل ذلك يكون أهم شخصية، هو القطب الهادئ في ذلك الجمع الغفير لأولئك المنتظرين، هو حامد العجوز، وهو والد عبد الراضي. وربما كان في جمع النساء، الذي لم أستطع مراقبته، فاطمة، وهي زوجة عبد الراضي، التي تقوم بدور المنسق، فهي النقيبة. ولذا يحدث أن يصبح منزل عبد الراضي هو مكان اللقاء، حيث لا يُحرم الفلاح دائمًا من خبر يسمعه، أو شيء يستفيد منه.

وربما لا تتسع الدائرة التي تضم أولئك الذين يسترشدون بعبد الراضي مع الزمن، فليس هو العراف الوحيد في المنطقة. ولكن المفيد جدًا أن نلاحظ أنه النواة التي منها انطلق الباقون، وأنه مركز الحياة الاجتماعية في طريقها للنمو والتطور. ففي ظل ظروف معينة - أي عندما يدعم شخص ما مهم أهمية حقيقية مثل هذه الظاهرة، ويقف إلى جوارها - فإن تلك النواة يمكن أن تنمو وتتطور إلى بؤرة ذات قوة سياسية في يوم الأيام.

الدرويش

كثيرًا ما كنت أجلس مع أولئك المنتظرين وأسمع حواراتهم. وقد أُتيحت لي الفرصة أيضًا للتعرف على جميع أنواع الناس من القرى المجاورة. فذات مرة أتى درويش يمني إلى نجع الحجيري. وكان من أولياء الله - أو ربما كان من صبية الله لأنه كان لم يزل صبيًا صغيرًا - وجلس بين زائري عبد الراضي وكأنه يعرف الناس منذ زمن بعيد. وأريد أن أمعن في تفاصيل قصة هذا الرجل الذي كان لـه أثر كبير في نفسي.

ذات يوم رأيت وجهًا جديدًا بين الحضور عند عبد الراضي. وكان غلامًا في الخامسة عشرة من عمره أو في السابعة عشرة. وكانت ملامح وجهه ناعمة إلى حد كبير أقرب إلى ملامح البنات. ظننته في البداية من الهنود. كان يرتدي معطفًا من النوع الأوروبي المنشأ - ربما كان لجندي أوروبي ذات يوم - وقد وضع على رأسه طاقية من القطيفة لونها رمادي مائل إلى البني. ثم جلسنا كلنا مع الممسوس عبد الراضي. وبجوار الشاب ذي الوجه الهندي جلس إمام المسجد في نجع الحجيري، والذي كان في نفس الوقت شيخ الطريقة الدندراوية، ويُدعى محمد سليمان. وتنبأ بخيت لمحمد سليمان بأنه سوف يحج إلى بيت الله الحرام في مكة، وأن ذلك الحج سوف يكون سريعًا وممنونًا للغاية؛ فسوف يركب الطائرة التي تنقله إلى الأراضي المقدسة. وكان محمد سليمان سعيدًا غاية السعادة لهذه الأخبار. ثم أشار محمد سليمان إلى الصبي الذي بجواره وسأل: «وهل سيحج أخونا اليمني أيضًا؟» قال بخيت: «لا .. ليس ممكنًا»، وأشار بيده إلى الصبي وهو يقول: «هذا اليمني لديه حلم يريد تفسيره. فقد حلم أنه كان يجلس مع أخته بجوار ماء». ويبدو أن الصبي

كأنه أُخِذ بهذا الكلام، أو فوجيء بقدرة بخيت على كشف المستور ودخوله في أحلامه. فقد كان فعلاً قد حلم هذا الحُلم . واستمر بخيت يقول: «الصبي شاب صالح، وعلى كل الحضور أن يعطوه شيئًا. هو لن يعود إلى بلاده، وإنما سيموت في الطريق». وأومأ اليمني موافقًا بابتسامة باهتة حزينة.

وما غادرنا عبد الراضي حتى سألت الشاب أين سيقضى الليلة. وأجاب محمد سليمان نيابة عنه بأنه سوف يقضي الليلة في جامع نجع الحجيري كما قضى الليلة المنصرمة. ودعوته لزيارتي في كيمان قبل أن يواصل رحلته. وجاءني في الصباح التالي. ومرة أخرى كنت معجبًا أشد الإعجاب من سمته الجميل ووجهه الطفولي على نحو مأساوي. وسألته بعض الأسئلة. كان من منطقة «عدن». وكان أبوه فلاحًا. وكانت أسرته تتكون من الأب والأم وأخ له وأخت يعيشون هناك في «عدن». وكان قد ترك البيت منذ أربعة أعوام. ربما كان طفلاً صغيرًا في الثانية عشرة حين غادر بيتهم في ذلك الوقت. ومن المرجح جدًا أن العلاقة الأسرية في البيت لم تكن على ما يرام. ولم أمعن أكثر من ذلك في الدخول في تفاصيل حياته. ولكن محمد سليمان كان قد أخبرني بأن الصبي يهم بالبكاء عندما كان يسأله أحد عن أبويه وأقربائه. فربما كان الحنين إلى الوطن هو الذي يضطره إلى البكاء. لذا غادر البيت «على كيفه» أو كما كان يحلو له، دون سبب معلوم أو جهة مقصودة. وكان سنوسي العجوز الذي كان يجلس معي في الحجرة، يوافق على مثل ذلك التجوال الحر الذي لم يكن من عادة الفلاحين المصريين، فكان يرى أنه ربما يكون من وحي أوحاه الله له. كان يسافر مشيًا على الأقدام، لم يركب قطارًا قط، ومرة أو عُرض عليه ركوب سيارة. هام في الصحراء ولم يكن

لديه من متاع الدنيا إلا «قُلتين» مليئتين ماءً، يعلقهما على عاتقيه. قابلت مثل أولئك الرحالة في الصحراء بين «قفط» و «القصير»، وليس لديهم إلا جرار الماء على أكتافهم. لقد انطلق الشاب متجولاً من قريته إلى مدينة صنعاء في جنوب الجزيرة العربية، ومنها إلى جدة، تلك المدينة الثغرية في الأراضي المقدسة. ومن هناك أُتيح له أن يركب سيارة أوروبية حتى وصلوا إلى حدود الأراضي المقدسة. وهناك استطاع أن يرى نورًا من بعيد، نورًا بدا قريبًا ولكن ظهر أنه بعيد جدًا. كان ذلك نور النبي يشع من مكة. ظل يسافر طوال الليل مع الأوروبي، ثم غادر السيارة وأمعن في الجولة. وفي مكة أتم شعائر الحج. ثم ذهب إلى سوريا. وهناك جاءه المرض بسبب كثرة التجوال على قدميه. رقد هناك أربعة أشهر. ثم واصل رحلته إلى العراق حتى وصل بغداد. وبسبب عدم وجود جواز السفر معه تعرض للسجن، واضطر أن يرتدي ملابس السجناء. ومكث في الجسن عشرين يومًا. وكان يواجه مشاكل الحدود في كل مكان يذهب إليه، في سوريا مع الموظفين الفرنسيين. أعطاهم معلومات عن نفسه، وقال لهم: «أنا لا أكذب». وكان ينجح في العبور في النهاية، وغالبًا بفضل جنود عاديين كانوا يساعدونه. ومن العراق جرى ترحيله إلى سوريا من جديد. وواصل الترحال من هناك إلى فلسطين، وزار القدس. هناك رأى الكنائس وصور سيدنا عيسى الملتحي وأمه مريم. ورأى كيف كان المسيحيون يصلون في كنائسهم. ومكث في القدس أربعة أيام. كان يريد أن يستقر هناك ويبحث عن عمل، ولكن لم يحصل على وظيفة. ثم ذهب إلى مصر. وفي القاهرة واجه أيامًا حالكة. فلا أحد كان يريد أن يعطيه كسرة خبز، الجميع كان يريد نقودًا، وبطبيعة الحال لم يكن لديه نقود. ولم يكن حتى يجد مكانًا ينام فيه. فلم يجد ملجأً إلا المقابر. وهناك نام. وفي الليل رأى عشرة

رجال؛ كانوا أرواحًا لأولياء الله الصالحين، وكان خائفًا جدًا. قال لـه الرجال العشرة: «ما تخفش، بعد شوية هتكون معانا». ومعنى ذلك أنه كان سيموت بعد وقت قصير جدًا». ومن القاهرة واصل شطر الصعيد، حتى وصل إلى نجع الحجيري.

عندما كان يريد أن يرى أقرباءه في الحُلم ، قبل أن يخلد إلى النوم، كان يتوضأ ويصلي وهو يطوي تلك النية في قلبه، وكان يرى فعلاً أقرباءه في الحُلم ، ويتحدث إليهم. وكان الحُلم الذي أنبأه به بخيت دون توقع من ذلك النوع الذي كان يطوف به في نومه. فقد حلم أنه هو وأخته يستحمان في نهير صغير في البيت، ومنه شرب من الماء حتى الثمالة.

ترك لديّ الصبي انطباعًا حسنًا. وكانت مصر تمتلئ بالمتسولين الذين لا يحبون العمل. ولم يكن الصبي واحدًا منهم على الإطلاق. كانت ملامح وجهه تعود إلى قديس من القديسين، أو ولي من أولياء الله الصالحين. ويبدو أن الترحال من مكان إلى مكان لم يكن إلا حيلة يحتال بها على الزمن، وينتظر من خلالها الموت الموعود، والذي كان يعني بالنسبة له عبورًا إلى حياة أخرى روحية. وحين قابلت هذا الشاب وراقبته شعرت بالفرق الشاسع بين الغرب والشرق، وكأن هدف حياة المرء ومعناها هنا وهناك يختلفان أشد الاختلاف، وكأن الشرق يرى الحياة جدارًا فاصلاً بين هذا العالم والعالم الآخر، وهو جدار نحيف على أية حال، وكان ممر الدخول بين هذا العالم والعالم الآخر يقع بين مصر والهند - في المنطقة التي تحتضن الثقافة الزراعية العالية. فهل كان من المصادفات أن يظهر الأنبياء جميعًا في هذه المنطقة؟ فأنت مع التأمل الجاد والسمو فوق الرغبات الأرضية تجد في الهند النرفانا، وفي مكان آخر

ابن الله الذي جلب مملكة الآب إلى عالم البشرية؛ في مكان ثالث أسس آخر عبادة رب العالمين الذي لا يُشرك به شيئًا.

الضريح أو المقام

وقد أُنشئت الأماكن المقدسة من خلال ممارسات بخيت وتدخلاته الملحة – في خلوة عبد الراضي، تلك البقعة التي تغطيها الحُصُر حيث يجلس عبد الراضي عندما تلبسه الأرواح، تلك القبة، أو ذلك الضريح الذي تغطيه القبة تخليدًا لذكرى بخيت. والخلوة تُحترم لما فيها من قداسة، كما يظهر في أن الزائرين وعبد الراضي نفسه يخلعون نعالهم قبل الدخول، وهي أيضًا المكان الذي يصلي فيه عبد الراضي صلواته حين لا يصلي في المسجد. والضريح مثال أوضح على القدسية، فعندما مات بخيت منذ عدة سنوات أقام الناس دوارًا لذكراه في باحة البيت التي تعيش فيها الأسرة اليوم. وكان هذا المنزل على بعد منازل قليلة من المسكن الحالي الذي يسكن فيه عبد الراضي وأبوه. لقد سقط الجدار وكاد بخيت أن يُنسى إلا حين سكن في جسد عبد الراضي وقرر أن يجعله مأواه، وحوله إلى جمله أو قاعوده.

وقد فصلنا القول في اهتمام أشباح المصريين في الصعيد بإنشاء المقامات التي يُدفنون فيها. ولذا فنحن نفهم أن الشيخ بخيت في أول ظهور علني له أمر بإنشاء قبة له أو ضريح. ولكن بخيتًا طالب بالمزيد، طالب بإنشاء حنفية ماء وحوض لشرب الدواب والطيور يجب أن يُقام على الطريق أمام البيت، وطلب أيضًا بزراعة شجرة جميز خصيصًا له. وللبئر والحوض وظائف منها سقاية الإنسان والحيوان، وللشجرة مهمة تزويدهم بالظل. وهناك كثير من الناس الذين يتصفون بالورع والتقوى ينشئون حنفيات الماء على النواصي

والطرقات، والحنفيات والأسبلة من الصور الماثلة في قرى صعيد مصر وغيطانها. وللحق أنا لا أعرف «روحًا» آخر أمر بإقامة مقام في هذه القرية، ولكن ذلك معروف جدًا. وأما في حالة بخيت الذي سكن في جسد عبد الراضي وقرر أن يكشف عن تكهناته من خلاله، فإن أوامره بإنشاء حنفية ماء وزرع شجرة جميز دليل على أنه لم يكن يريد التقرب إلى الله وكفى، وإنما كان يريد التقرب إلى الناس أيضًا، يريد أن يدعوهم إلى زيارته.

وبعد ظهور بخيت مباشرة أُقيم الضريح، وغُرست بذرة شجرة الجميز في التربة، وضُرب حولها سور يحميها من حر الشمس، وأُلقيت عليها قش الذرة. والضريح عبارة عن مبنى أبيض به قبلة منحدرة، ومغطى بالرسومات. وكما هو الحال في جميع الأضرحة، تكون القبلة مائلة ولها نوافذ صغيرة (انظر اللوحة ٨). وأما المساحة من الداخل فهي معتمة دائمًا. والأرضية مغطاة بالحُصُر، وهناك مشكاة على حائط في جانب واحد، وتحتوي على مصباح، أو لمبة، وفي الإجازات الإسلامية في أثناء شهر الصوم في رمضان، يُضاء الضريح كل مساء. وعبر الضريح شُد حبلان كمعلاقين، وعلى هذين الحبلين تُعلق النُذُر التي يأتي بها مريدو بخيت وطالبو خدماته. وأما أهم ما في الضريح، وفي أي ضريح لأي شيخ، فهو التابوت. ولم يكن هذا التابوت موجودًا في ضريح بخيت عندما جئت، ولكنهم وضعوه في أثناء إقامتي، وغطوه بقطعة من القماش الجميل. وأما الجدران الداخلية للبقعة المقدسة فقد زُينت بكثير من الصور والنقوش.

وأنا الآن أصف لكم الديكورات الفوضوية التي يزدان بها الضريح. فقد رسم الصور غلام في نحو الخامسة عشرة من عمره، وراح الناس يكيلون

المديح لرسوماته البديعة في نظرهم. وأما النقوش فقد نفذها رجل كان يشك في البداية في عبد الراضي وفي الروح التي لبسته، ولكنه في النهاية اقتنع من كثرة صدق النبوءات التي كان يدلي بها بخيت وقاعوده، بل أصبح من أكثر مريديه حبًا له، وأكثرهم امتنانًا وإعجابًا.

وأما واجهة الضريح فقد زينت بنقوش ورسومات أيضًا، وخاصة في الجهة البحرية المواجهة للباب والشارع. وهي رسومات لا تتسق مع وظيفة الضريح وما فيه من ممارسات وأنشطة، وأيضًا لا تتسق مع قدسية الضريح. ولكي أنقل الانطباع، فإني أصف الألوان، مشيرًا إلى أكثرها شيوعًا بين الألوان التي تُستخدم هناك (انظر اللوحة ٩).

وعلى أعلى الجدار من ناحية الشمال، ولكن لا تكاد تبين، لأن الرسومات تقشرت جزئيًا، نرى جنديًا وجملاً بالمحمل، والمحمل عبارة عن صندوق خشبي مغطى بقماش غالي الثمن ظل حكام مصر منذ زمن بعيد يرسلونه إلى مكة المكرمة هبة وتكريمًا لقافلة الحجاج. وتحت المحمل يستطيع المرء رؤية الراكب يمسك رمحًا على ناقة طويلة الساقين (بالبني والأخضر)، من أعلى جهة اليمين رسم باليد (أزرق)، وتحته براد شاي (أخضر)، وإلى اليمين أوزة (أخضر وبني)، وعلى اليمين أيضًا راية (خضراء وبنية). توجد أيضًا مروحة مصنوعة من سعف النخيل، ملفوفة في خيوط. وهذه المراوح مصنوعة في الغالب يدويًا في صعيد مصر وعلى الأخص صنعها النوبيون، من خامات لديهم هناك. والناس يشترونها ويأتون بها معهم خلال رحلاتهم إلى الصعيد، وهي بمنزلة التحف الرائعة في بيوت الفلاحين الفقيرة.

وتحت هذا الطابور من الصور يلوح قطار سكة حديد (بالأخضر والأزرق والبني)، وتحته أوزة أخرى (بالأخضر والأصفر)، وبعده أسفل - ولكن تكاد تُرى - سفينة بها شراع مرتفع على قمة الصاري (بالأخضر والبني).

وإذا نزلت قليلاً رأيت مجموعة شرائط (أصفر وأخضر وبني). وهذه تمتد عبر النصف الأسفل كله للجدار وصولاً إلى الباب.

وفوق الباب مباشرة رأيت نقشًا مكتوبًا عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا هو النصب التذكاري للشيخ بخيت فرج يوسف من نجع الحجيري. الكاتب هو العبد الفقير إلى الله: عوض علي محمد عوض من نجع الحجيري».

وعلى الباب الخشبي نقش آخر (باللون الأخضر): «هذا مقام الشيخ بخيت».

وتحته صورة أوزة (بالبني والأخضر)، ثم ست نجمات داوود، قمرة (بني وأخضر).

وفي الناحية اليمنى للباب، على المقدمة بالضبط، عند حافة الجدار نقش آخر باللون البني: «مكتوب في الخامس عشر من يونيو من العام ١٩٣٣)» .

قال لنا عبد الراضي إنه نفس التاريخ الذي نُقِشت فيه. وربما كان ذلك صحيحًا جدًا بعد استكمال الضريح. وربما بُني الضريح بعد الظهور الأول لبخيت بشهر. ولذا فقد وصلنا في منتصف شهر مايو من عام ١٩٣٣، والتاريخ المرجح لبدء ممارسة عبد الراضي لكهاناته. وقد أُعطي الكاتب التاريخ على غير توقع حسب التقويم المسيحي الأوروبي. ولابد أنه كان يفكر في أنك قد يبدو أكثر رقيًا وحذقًا.

وعلى اليمين من كل ذلك صورة لراكب دراجة (بني وأخضر). وراكبو الدراجات منظر نادر ومبهر. ثم بعد ذلك نجمة داوود، القمرة (البني والأصفر والأخضر)، وفوقها صورة رجل (أخضر). وتحت القمرة أوزة (بني وأخضر)، وعلى يمين الأوزة رجل يقود جملاً يحمل المحمل (أخضر وأزرق وبني).

وفي الصف الأسفل توجد مروحة (اخضر وبني وأزرق) وعلى اليمين بصمة يد (أزرق)، ثم جندي يؤدي التحية (بالأزرق والبني) - «إنه يؤدي التحية للقطار» القادم من جهة اليمين.

ثم أسفل ذلك كله من ناحية الشمال، رجل في صحبة جمل ومحمل (أخضر وبني وأزرق)، وراكب يمسك بسيف (بني وأخضر)، وعربة (أخضر وبني وأزرق).

وتحت ذلك من ناحية الشمال، ولكنها صورة ملطخة، صورة راكب دراجة (أخضر وبني) وأوزة (بني وأخضر).

والرسومات في داخل الضريح أشبه برسومات الباروك عاطلة من الإحساس بالألوان. فهناك صور لفرسان برماح وبصمات يد وجنود يحيون ومراوح ورجال يحملون رايات - يكادون يختفون في الزحام المضطرب دون أية علاقة بعبد الراضي وحلمه النداء - راكبو جمال، وجمال بالمحمل، ونجمات داوود، وسفن، وعقارب ونخل وسيارات ودراجات وبنادق وأكثر من براد شاي وأكواب ودجاج وقطارات سكة حديد. وتتخلل هذه المجموعة من الصور جمل وعبارات تحمل معنى الورع والتقوى.

توجد مثل تلك الرسومات الغريبة في كثير من الأضرحة التذكارية في قبور أولياء الله في صعيد مصر. وهي نفس الصور التي تزدان بها بيوت الحجاج، فمن هناك استُلهِمت «ديكورات» الأضرحة؛ فالصور تعود إلى صور الحج، يطبعها الناس على بيوتهم عند عودتهم من رحلة الحج التي قد تطول، أو يرسمها لهم الأهلون. وأغلب تلك الصور تنحصر في الجمال والمحمل وقطارات السكة الحديد والسفن والسيارات والجنود وفرسان الصحراء برماحهم. ويرتبط بذلك كله بعض النظريات الشائعة. ومن أبرز الرسومات المائزة هنا هي الأوزة، وهي طائر شائع في الصعيد، ولكن ما رمزيته ومن أين جذوره؟

ودعوني الآن ألقي معكم نظرة على الهبات، خاصة النذور التي يعلقونها داخل الضريح (انظر اللوحة ١٠). فمن الشمال إلى اليمين نرى الآتي:

١- ثمار أشجار الدوم. أرسلهم صاحب النخل إلى الشيخ بخيت. لم ينذر للشيخ أي شيء؛ ولكنه أحضرهم إلى هنا تحية للشيخ بسبب المحصول الغزير، ولأنه يريد أن يلتمس البركة من الشيخ بخيت.

٢- زباطة بلح. وهذه هدية من امرأة ظلت فترة طويلة دون أطفال. ولكن الشيخ بخيت اوصاها بعلاج. فنذرت المرأة بلحًا وشموعًا وذهبًا لبخيت إن هي حملت في طفل، وقد حملت بالفعل.

٣- قناديل، أي شموع، وقناديل ذرة رفيعة، أحضرها رجل كان قد وعد بها إن رزقه الله بمحصول وفير.

٤- طائر مصنوع من الورق. ومثل تلك الطيور تُباع في أيام العيد كلعب أطفال. نذرتها طفلة إن هي تزوجت.

٥- زباطة بلح، من امرأة نصحها الشيخ بعلاج للعقم، وحملت في طفل.

٦- قرنا جدي صغير. نذر رجل وزوجته التقرب بعنزة كرامة للشيخ بخيت، وعمل مولد له بالطبل البلدي والمزمار، إن رزقهم الله بأطفال. وُلد لهما ابن، وأُقيم المولد وعُلّق القرنان هناك.

٧- خيوط قماش ملونة. أحضرتها عروس بعد زواجها (انظر رقم ٤).

٨- راية حمراء، مخضبة باللون الأبيض ونُقِش عليها هلالان. نذرهما رجل مريض إن هو شُفي، وفعلاً شُفي.

٩- قماش ملون. أحضرته امرأة بعد زواجها، مع شموع وذهب (انظر ٤، ٧).

١٠- حصان خشبي صغير أبيض بساق واحدة فقط، لعبة من أصل أوروبي. تلك هدية من رجل رأى هذه الأشياء في سوق في قنا في أوقات مولد سيدي عبد الرحيم القناوي. أراد أن يفرح الشيخ بخيت بها. لم يكن نذرًا، ولكن من المرجح جدًا أن تكون هدية محبة.

١١- بلح (انظر ٢، ٥).

١٢- نفس الشيء.

١٣- قنديل ذرة بيضاء رفيعة.

١٤- قُلة ماء، نذرها صانع فخار لبخيت إن هو نجح في أعماله.

وعندما عدت أنظر بعد ذلك في الهدايا المعلقة والنذور المخصوصة، وجدت اثنين جديدين، فازة ورد أوروبية ملونة، ومصباح من النوع البلب. وتلك الهدايا الغريبة أحضرها رجل سافر إلى القاهرة بعد تلقيه نبوءة من بخيت، ونجح في أعماله أيما نجاح. وكان يريد أن يقدم الشكر، فأكرم الشيخ بهذه التحيات القادمة من المدينة الكبيرة.

أولياء الله

رأينا كيف أدت إصابة عبد الراضي بالمس إلى إدخال تغييرات في مجتمع الفلاحين، وكيف أصبحوا أمام مركز جديد يمثله عبد الراضي. ورأينا كيف أنه من هذا المركز، مع بناء الضريح وإنشاء حوض الماء وزرع شجرة الجميز، انطلقت حركة في اتجاه وجود دور على المستوى الشعبي. وأخيرًا رأينا كيف نشأت طائفة الأولياء.

فيمكننا أن نصف عبد الراضي نفسه بأنه واحد من أولياء الله، أو ولي الروح التي كانت لبخيت، والتي أسكنها فيه بخيت. إنه الشخص المختار، الذي اختاره بخيت ليُسكن فيه روحه، ليكون وسيطًا بينه والناس، بين الأموات والأحياء.

وأما ولاية عبد الراضي فهي ولاية فردية تمامًا؛ فحوله نجد بدايات دخول أسرة بكاملها في موضوع الولاية. فوالد عبد الراضي، الحاج حامد، كان أخو بخيت، منذ البداية حاول الاستيلاء على الهدايا التي كان يتلقاها عبد الراضي في أثناء عملية المس التي أصابته، متحججًا بأنه أخو بخيت. وكان عبد الراضي يعارض ذلك بشدة هذا الزعم. فعبد الراضي هو الذي اختاره

بخيت وأحبه، وهو «القاعود» الذي اتخذه بخيت ليوصل رسالته إلى الأحياء، وإليه ينبغي أن تعود هدايا بخيت التي طلبها لـ «قاعوده». ومن البداية كان حامد مسئولاً من الناحية المالية عن بناء الضريح. وقد رأينا أن الشيخ بخيت في أول ظهور لـه طلب من حامد أن يدفع ثمن الكفن حتى يبدأ البناء بهذه النقود. فكان حامد مرتبطًا بالضريح، وكان طبيعيًا أن يصبح فيما بعد حارسًا للمكان المقدس، ووليًا على الضريح. فهو «النقيب»، والمرشد. أضف إلى ذلك لاحظنا دور حامد في ترتيب الزحام في منطقة الانتظار. وهو دور لا يُستهان به ولكنه أضاف إليه شيئًا جديدًا؛ فقد راح يعتني بنظافة الضريح وإضاءته. وكان يتلقى نصيبه من الزائرين، خاصة أولئك الذين كانوا يأتون بالنذور والقرابين.

وظفر حامد بوظيفة كهنوتية أكثر أهمية أتته بشكل طبيعي: فقد راح يفسر النبوءات الغامضة التي ترسلها الأرواح. ولم تكن تلك الوظيفة من الوظائف التي نزلت فجأة على حامد ولم يكن لـه بها دراية. فقد كان حاضرًا أغلب الأوقات حين كان الناس يأتون إلى ابنه لطلب المشورة. وكان يتعرف على الناس في الساحة في أثناء الانتظار، وفي كثير من الحالات كان يعرف أسباب قدومهم. كان عبد الراضي يرى من موقعه الكهنوتي حالات المرض والسرقة والعوز، والتي أحضر الزبون «الريحة» بسببها. وصور تلك التنبوءات غائمة أغلب الوقت، والمعلومات منها بعيدة عن الوضوح، ومعلومات أولية. وحاول حامد إذن تفسير تلك النتف من المعلومات من وحي الرسائل - فهو قد أصبح الوسيط بين الممسوس والشخص الذي يطلب المشورة. فإن هو عرف الحالة التي من أجلها جاء الزبون، يستطيع أن يفسرها ببعض الثقة،

ويشبع توقعات السائل. ومن جهة أخرى كان يعمل من خلال إصلاح معنى نقله الزبون، ليساعد الممسوس على الوقوف على الخيط، وعلى فهم الصور الغائمة بشيء من الثقة في تكهناته.

وأزعم أنه في دائرة النساء كانت فاطمة زوجة عبد الراضي تقوم بالدور الذي كان حامد يقوم به بين الرجال. ولذا نرى كيف تطورت أعمال الأسرة بالكهانة والعرافة من جهد فرد في البداية. وعندما يموت عبد الراضي سوف يظل الضريح كما هو مزارًا للراغبين، وسوف تستمر عادة الناس هي هي في إحضار نذورهم وقرابينهم، يلتمسون البركات ويطلبون كرامات الأولياء. ومع بقاء الضريح سوف تبقى الولاية في الأسرة ما بقي الضريح.

ومصيرها المألوف أنه بعد عدد من الأجيال، فإن ضريح بخيت سوف يتحطم، والولاية سوف تنطفئ؛ لأن أرواحًا أخرى سوف تشغل قلوب رجالٍ آخرين وأضرحتهم سوف تستقبل النذور والقرابين.

ولكن أيضًا، مثل هذا المكان المقدس كضريح بخيت وولايته ما هو إلا نواة يمكن أن ينشأ حولها مركز ديني كبير جدًا - إن فاضت عليه السماء بكرامة ليس لها مثيل، والسماء تفيض، وإن انتقلت شهرته من فم إلى فم، وإن قيضت الأقدار للأسرة قادة طبيعيين رُزِقوا بالكرامات كما يرزق الله الأخيار.

الفصل التاسع

شخصية عبد الراضي

لنصف الآن شخصية عبد الراضي، وما هو الأثر الذي تركه في نفوسنا إلى تلك اللحظة، ونستطيع أن نجمل صورته إجمالاً دون الدخول في كثير من التفاصيل.

فعبد الراضي يبدو شخصًا ضعيفًا يعاني. فهيئته ضعيفة، وجسده مسكين، فظهره محني، وكتفاه مندفعان إلى الأمام. وبعد أن عرفته وسمعت عن مرضه الصعب والطويل، ظننت في البداية أنه يعاني من السل. فلون وجهه باهت، ولكن لذلك تفسير معقول، أنه على النقيض من سائر الفلاحين، يقضي عبد الراضي أغلب وقته في البيت في الظل بعيدًا عن الشمس. وحين كنت أقوم بالبحث كان عبد الراضي في أوائل الثلاثينيات من عمره. كانت تنمو على صدغيه شعرات بيضاء محببة، وفي عينه اليسرى كان عبد الراضي يعاني من بقعة بيضاء في نصف حجم حبة البازلاء على الحدقة بجوار إنسان العين. وقيل إن هذه البقعة البيضاء كانت موجودة قبل مدة طويلة من دخوله في أحوال المس، وهي السبب في ضعف بصره، وكانت ستأتي عليه تمامًا. وفي أثناء المرض الذي سبق تجربة المس، أصبحت ساقه اليمنى وذراعه الأيمن نحيفين إلى أبعد حد. ومنذ نداء بخيت له راحت تلك الساق وذلك الذراع يتعافيان بالتدريج حتى وصلا إلى حجمهما الطبيعي. والناظر الآن لا يستطيع أن يفرق بين الذراع الأيمن والأيسر؛ ولكن العضلات أضعف من الأول،

وقبضة اليد اليمنى أضعف من قبضة اليسرى. وكانت الساق اليمنى، خاصة عند السمانة وصولاً إلى أعلى الفخذ ما تزال وقت الدراسة أنحف من الساق اليسرى بكثير. وفيما يلي سأحدثكم أكثر عن آلام في الساقين.

نريد الآن أن نصف حياة عبد الراضي الجنسية. فقد تزوج عبد الراضي عندما كان في العشرين من عمره. وعاش حياة ملؤها الوئام والانسجام مع زوجته فاطمة. كانا زوجين سعيدين في حياتهما الجنسية. ولقد تحريت بنفسي عن هذا الزواج، وهل كان ينغصه شيء من المحظورات أو المشاحنات. فلم أجد شيئًا من هذا القبيل. ولم يتزوج عبد الراضي إلا من فاطمة. ولم يعرف امرأة غيرها لا قبل الزواج ولا بعده. ولكن حياة عبد الراضي الجنسية كان لابد أن تتحمل عبء الغيابات السنوية الطويلة التي كانت تبعده عن زوجته لأشهر طويلة عندما كان عاملاً في الإسماعيلية قبل بداية المرض. وكانت أطول فترة قضاها بعيدًا عن زوجته هي التي سبقت المرض الكبير مباشرة. سألت عبد الراضي عن حياته الجنسية في الإسماعيلية، وقلت لـه كان في وسعك أن تجرب الساقطات هناك. وبشكل تلقائي وهو يبتسم وبشيء من الحزم والصرامة قال لي إنه لم يزر العاهرات قط، ولم يسمح لهن بالزيارة. وأفضى لي عبد الراضي أنه لم يكن يفكر في هذه الأمور وهو في الإسماعيلية، ولكن كانت له أحلام في النوم، يستيقظ منها وقد ابتلت ملابسه الداخلية. وعندما كان يرى امرأة مغرية كان يتذكر يوسف الصديق، فيغطي عينيه بمنديله. والآن وقد تعافى عبد الراضي من المرض تمامًا فقد أصبح شخصًا جديدًا، شخصًا اختارته الأرواح الطيبة ليكون وسيطها إلى عالم الأحياء. وأيضًا طرأ على حياته الجنسية تغيير كبير: فرغم أن جسده كان

قد استعاد قوته الأولى، فإن رغبته الجنسية وحاجته إلى علاقات جنسية كانت تُقابل بالرفض من قِبل الأرواح. ذات مرة سألت عبد الراضي إن كان أسعد حالاً في السابق من الآن بعد أن سكنته روح الشيخ، وإن كان يتمنى لو يوضع حد لوضعه الحالي ويصبح مثل سائر الرجال العاديين، هذا إذا رغب في العودة إلى الاستمتاع بحياته الجنسية من جديد. وقد أجاب عبد الراضي عن جميع تلك الأسئلة بالنفي. فهو يرى أنه سعيد في ظروفه الجديدة. وأخيرًا قال لي، ما دمنا نتحدث عن الحياة الجنسية، فإن الجسد فانٍ، وسوف يتحول إلى تراب، وأما هو في وضعه الجديد وسط الأرواح التي يعيش معها الآن ويدير حياته، فلا شيء فانٍ، وأن شيخه بخيت هو البركة، هو النعمة المسداة من الله في علاه. وأما زوجته، يقول عبد الراضي، فحزنت لأنها خسرت زوجها الطبيعي، ولكنها تحمد الله أن لها منه طفلين. وبقدر ما يستطيع مراقب غريب مثلي أن يكوّن رأيًا، فإن انطباعي هو أن العلاقة بين عبد الراضي وفاطمته ما تزال قائمة حتى اليوم على الانسجام والوئام. فهو يحبها وهي تحبه.

وعلينا أن نتذكر في النهاية أن فاطمة هي التي رعته عندما كان عاجزًا لا حول لـه ولا قوة. وذلك كان من شأنه أن يعزز زواجًا ناجحًا من الأساس. واليوم تكن فاطمة نفس الاحترام والتوقير الحيي للشيخ بخيت كما تفعل مع عبد الراضي نفسه.

وذات مرة كان قومٌ يتحدثون عن الأرواح في حضور عبد الراضي؛ ورووا قصة مشينة عن «روح» من تلك الأرواح (انظر ص: ٣٠). ولكن عبد الراضي لم يغضب أو يندهش، وإنما ابتسم بشيء من البهجة. وعندما أوريته في مناسبة أخرى صورًا لبعض الفتيات الجزائريات الفاتنات من «كاتالوج»،

حدجني بنظرة عابرة دون أن يهتم، بينما اهتم جدًا بصورتين إحداهما لمنظر طبيعي مجموعة من النخيل، والأخرى لمشايخ مسلمين ذوي لحى.

ونضيف إلى هذه الصورة الإجمالية جانبًا من طفولة عبد الراضي. ذات مرة كنت أضع يدي على صدره أتعرف على دقات قلبه، وجعلته أيضًا يضع يده على صدره ويتحسس ضربات قلبه، وشرحت لـه أن القلب هو مضخة الدورة الدموية، وقلت له أيضًا أنه عندما يتوقف القلب فإن الإنسان يموت. وكان شرحي أن الإنسان يفنى عندما يتوقف قلبه مصدر سعادة له، سعادة بريئة.

وذات مرة عندما كان عبد الراضي في زيارة لي في «كيمان»، رأى على الطاولة لعبة لطفل فلاح. وكانت اللعبة عبارة عن جمل مصنوعة من الطوب المحروق. وكان لدي السرج والرسن صنعتها من أجزاء من خيوط كتجربة لنفسي. ولكن عبد الراضي أخذ الجمل اللعبة بيديه مرتين، وكان واضحًا أنه كان سعيدًا به. فقد عزز السرج والرسن من سعادته. وراح يقترح عليّ أن أضع الراكب على ظهر الجمل. وبنفس الاهتمام الطفولي راح يعبر عن فرحه بهذا المزج الفني لديكورات الحائط التي وضعها مساعدي في الحجرة. لقد رسم مهدي الشاب الطيب على الجدار صفحات من المجلات المصورة وعليها عارضات محلات في جزء منها، وفي الجزء الثاني تاجر قطن سويسري ملتحي وسيدة مصرية في الجزء الثاني. وكانت هناك أيضًا بطاقات بريدية وصورة للملك فؤاد وطفل نائم يطلب مسحوق لبن «نستله»، وأشياء أخرى. كان يتطلع في الصور كلها الواحدة بعد الأخرى، مندهشًا ومبتهجًا.

ويبدو أن عبد الراضي به غرام للصور، وربما كان لها أهمية في فهم تكهناته. فذات مرة كنت جالسًا بجوار عبد الراضي في حجرته. وتطرقنا في الحوار إلى موضوعات شتى. كنا نتحدث عن الأغاني. سألته عن أيهما يفضل: الغناء أم الصور. وبلا تردد وبشكل طفولي أجابني بأنه يحب الصور أكثر. وذات يوم عرضت عليه ألبوم صور فيه صور لفتيات جزائريات فاتنات، والمنظر الطبيعي، وصور لعلماء دينيين، وكان مبتهجًا بشكل كبير لهذه الصور. وكان أكثر ابتهاجًا حين أحضرت لـه صورًا ملونة من القاهرة، الصور التي كنا نشتريها من شوارع الباعة الجائلين. واحدة كانت لآدم وحواء، والثانية للإمام علي وهو يضرب جنيًا على أم رأسه. وكان شكل الجن غريبًا، كان يرتدي لاسة ملونة مزينة بزينات ذهبية، وكان يحمل عصا ملونة، عكازًا نحيفًا أصفر له رأس ضخم غير كامل الاستدارة، مزين بشريطين ملونين بألوان زاهية. وكان عبد الراضي مهتمًا بالجن أكثر من اهتمامه بالبطل «علي». وصرح لي عبد الراضي في الحال أن الجن روح من أرواح الزار «لأنه يرتدي قلادة». ولقد تطورت فكرة الجن بوصفه صورة «روح» من أرواح الزار، فاعتبر عبد الراضي رأس العكاز بمنزلة طبلة اليد، والعكاز الأصفر بوصفه الناي. وفي حلقات الزار تصدح الموسيقى البهيجة. والحق أن المضاهاة لا تتفق مع الصور بأي شكل من الأشكال. فلاح حاول طرح قراءة أفضل، موضحًا أن الجزء المدور لا يصلح أن يكون طبلة وكذلك العكاز الأصفر لا يصلح أن يكون نايًا، فالجزآن يصنعان العصا أو الهراوة وكفى. ولكن أفاق عبد الراضي كانت ضيقة، فلم يكن يرى إلا الأجزاء منفصلة، والأقسام الصغيرة، وليس الصورة الكلية. والشيء المدهش أنه كان قادرًا على إقناع ناقده بوجهة نظره الخاطئة تلك. وهذا الأفق المحدود، وذلك الانفراد بالانطباعات الجزئية،

قد تكون مهمة لعبد الراضي ورؤيته. وكان عليّ أن أتأمل كيف، عندما كان في حالة المس، كان يأخذ «الريحة» بيد ثم ينتقي أجزاءً من صورة مرض أو قصة سرقة، ويبحث أيضًا عن صور أخرى ذات صلة؛ للمضي في تفسيره الذي وصل إليه. ونتذكر تلك الأبيات الصوفية المعروفة التي أنشأها الأولياء الهائمون في الصحراء، والتي كان عبد الراضي يتلوها بين الحين والحين بأنغام حزينة وهو في حالة المس: كانت أيضًا في الواقع أجزاءً من كل، صور اللحظة الآنية.

في وسعنا أيضًا أن نتأمل حالة الورع التي كانت سمة من سمات عبد الراضي. فعبد الراضي كان مسلمًا صالحًا على الدوام، ويمكننا القول إنه كان تقيًا ورعًا على نحو استثنائي. فلم يكن يشارك في حلقات الذكر. ولم يكن إلا مشاهدًا ومراقبًا. ومن المهم جدًا أن ندرك أن صورة الذكر كان لها تأثير كبير عليه. وفي السابق لم يكن يؤمن بأن أرواح المشايخ يمكن أن تتجلى في البشر، أو تسكن أجساد الآدميين، لم يحدث أن زار شخصًا ممسوسًا، وعندما كان ينصحه الناصحون عندما كان مريضًا أن يزور واحدًا من هؤلاء ويقدم له «ريحته»، كان يرفض. ومهم جدًا أن نعرف أكثر عن مدى تدين زوجته فاطمة ومعتقداتها في الأرواح والاشباح. فربما كان لذلك أثره عليه من ذلك الجانب.

لقد اعتقد عبد الراضي أن «الروح» هي التي سكنته، وهي التي فرضت نفسها عليه، فآمن بأنه اختِير من بين آخرين، وأنه من المصطفين الاستثنائيين. وقد تحدثنا عن ذلك قبل الحين. ولذا فإن تقواه وورعه أشد وأقوى مما كانت عليه في السابق. فهو يصلي بانتظام شديد، وحسب عادة الأتقياء

الورعين ترك من شعر رأسه الحليقة قنزعة لم تُحلق، وتلك هي التي يسمونها هناك «قُطّية». وكان الناس يتركونها تنمو حتى إذا جاء ميعاد غسل الجثمان يستطيع المغسلون تحريك الرأس: وفي قول آخر تقوم هذه «القُطية» بمنزلة تذكرة بالموت. وعبد الراضي من الصائمين القانتين، ولا يترك حتى الصيام الذي يأمر به بخيت، غير المفروض. وعبد الراضي لا يدخن. ولقد حاول في السابق تدخين سيجارة أو سيجارتين، ولكنه توقف الآن بعد أن أصبح في صحبة «الروح». وبذلك كان من أتباع الطريقة الدندراوية، الذين كانوا يكرهون السجائر والدخان عمومًا. وللدندراوية أتباع كُثر في نجع الحجيري. وعبد الراضي لا يمل من ذكر الله، «يا رب، يا موجود، يا كريم». وهو يردد ذلك خاصة في الاستراحات، وغالبًا بشيء من التأوه والحزن. ولقد تكون لديّ انطباع بأن أفكاره كانت تطوف في أمكنة بعيدة، وأنها كانت تعود إلينا عندما يذكر الله. وعندما يأتي على ذكر محمد في أثناء الحوار، لم يكن عبد الراضي يتردد في الصلاة على محمد نبي الله.

وختامًا أقول، ذلك هو تصوري عن عبد الراضي. فلم يكن عبد الراضي إلى روحًا خالصة. وأن الكذب والغش بعيدان عنه كل البعد. وهو شخص حيي وشهم. وهو يعيش في سلام في كنف الروح التي تطمئن لمثله من الأتقياء والأولياء. لم يكن يسعى وراء المكسب المادي، رغم أنه كان يطلع روح بخيت أنه إنما يعيش ببركاته. كان يحمد الله على تلك الإكراميات البسيطة التي يظفر بها وهو في أحوال المس، والتي أحيانًا يطلبها ولا يبالي.

الفصل العاشر

علاقة عبد الراضي الشخصية بأرواحه التي تسكنه

تلقى عبد الراضي تجاربه الأولى في المس بالنوم العميق. وعندما كان يستيقظ كان يشعر بأن ضربات قلبه زادت، وأصبحت قوية، وكان يشعر بصداع في رأسه. وكل شيء حوله كان يدور - الجدران والناس. وكان يشعر كأنه انقسم نصفين. وعلى وجه الخصوص كان يشعر بعد ذلك بوطأة الأرواح على كتفيه، وثقلهم على عاتقيه، وعلى قصبته الهوائية خاصة في الجزء الأمامي عند تفاحة آدم. وكان عبد الراضي يضع كلتا يديه تحت حلمات ثدييه ليريني، وعلى ركبتيه. كانت ساقا عبد الراضي تؤلمه، خاصة عندما كانت نوبة المس تطول. وكان يقول لي إن ذلك بسبب أن بخيت يجبره على أن يبقى راكعًا على ركبتيه مثل القاعود. الساقان كلتاهما كانتا تؤلمانه، وليست اليمنى فقط. وبعد نوبة مس طويلة كان عبد الراضي يرتجف، ويمضي إلى خلوته بخطوات وئيدة قصيرة متعبة، وجسده محني، ووجهه من الإعياء كأنه على وشك الموت.

ولبخيت وطأة كأنه الحجر الثقيل، ولكن الشيخ «علي» من نجع الحجيري أكثر وطأة، فهو الذي أعلن عن نفسه من خلال الذراعين المفتوحين. وكان كثيرًا ما يدفع عبد الراضي فيرتطم بالجدار. وعندما كان عبد الراضي يستفيق من مس الشيخ «علي» كان يشعر كأنه تلقى طعنات سكين في ظهره. ومن جهة أخرى كان محمد عبد القادر البراهمي، «روح» ذلك الرجل الذي دهسه

القطار، خفيفًا على قلب عبد الراضي. وكانت روح خال عبد الراضي، أخو أمه، أيضًا رقيقة الحاشية رفيقه به.

ورغم البصمات القاسية التي تتركها «الأرواح» الجاثمة على جسد عبد الراضي، فإنه ظل ذلك القاعود الذي يتحمل. وكان عبد الراضي يقول إن «الأرواح» تدخل جسده وتسكن فيه بنفسها، وتظل في جسده طوال نوبة المس. وسألت عبد الراضي هل يدخل بخيت في جسده من خلال الفم أم من خلال الأنف؟ سألته ذلك السؤال في ختام نوبة مس، فمس أرنبة أنفه وقال: «اخرج». فعبد الراضي لا يعرف شيئًا من ذلك، ولا يعرف كيف تدخل الأرواح فيه وكيف تخرج. وقد ذكرنا أن التجربة الكبيرة التي غيرت كل شيء في حياة عبد الراضي هي تجربة الحُلم / النداء الذي ظهر فيها بخيت ومد له يده بالراية. وتحدثنا عن جميع الصور التي تراءت له بعد ذلك تباعًا، ربما في الأحلام أيضًا، وأنها بُنيت كلها على ذلك الحُلم / النداء. كان عبد الراضي دقيقًا جدًا في تصويره لحياته الباطنية، ولأحلامه وأفكاره المتصلة بالأرواح الشبحية. ولم يتحدث معي، أحيانًا، في تلك الأمور إلا بعد معرفة طويلة، وبعد أن اطمأن إلى أني آخذ الأمور مأخذ الجد، وأني مرتبط به ارتباط الصديق بصديقه. كان يبدو كأن لديه ستارة يسدلها فيخفي وراءها تلك الصور عن نفسه ووعيه المستيقظ.

إن عبد الراضي يرى الشيخ بخيت عشية كل ثلاثاء. والحق أنه كان يراه في صحبة أناس كثيرين. كان يراه وسط الناس في حلقة من حلقات الذكر - الله الله الله. ومنذ الحُلم / النداء لم يتحدث بخيت إلى عبد الراضي. ففي تلك الأحلام يشارك عبد الراضي في الذكر مع بخيت وصحبه. وذات مرة

كان بخيت في الحُلم مع عبد الراضي فاعطاه قطعة من القماش الأخضر. وعندما سألت عن ذلك الحُلم مرة كان عبد الراضي خجولاً ولزم الصمت، ثم همس: «هذه الأحلام لا تحدث إلا بيني وبين بخيت. والشيخ بخيت لا يحب الحديث عنها لأي شخص». وهذا الحرص والحذر من جانب عبد الراضي أكد لي نقاءه وإخلاص نيته.

والعفاريت تعشق الصحراء، وكثيرًا ما يعقدون حلقات ذكرهم هناك. وفيما كان يحكي لي عبد الراضي عنها، كان عائدًا من واجب عزاء في مدينة «قوص»، وفجأة وعلى غير توقع ودونما سبب قال: «والأرواح تذهب أحيانًا إلى «قوص».

وذات عشية من تلك العشيات التي تسبق الجمعة، رأى عبد الراضي مقبرة أسوان في الحُلم، محاطة بسور مرتفع. وفيها عدد لا يُحصى من أضرحة المشايخ، وفي النهاية رأى ضريح الشيخ «إده». كانت الأضرحة كلها مضاءة بضوء خافت أخضر جميل. ومشى في شارع جميل عريض من النيل حتى تلك المقابر. ولم يحدث أن زار عبد الراضي أسوان. فقد كانت أسوان بالنسبة له فكرة صوفية غامضة، مكانًا تسكنه الأرواح. ومعروف أن أسوان تزدحم بالأولياء والأضرحة. وربما سمع عبد الراضي بذلك في مكان ما من شخص ما، وصورة أسوان المليئة بالأضرحة إنما استقرت في ذهنه بوصفها صورة المكان المليء بالأرواح. وما الشيخ «إده» الذي يتبناه اليوم أبناء قبيلة العزايزة في «كيمان»، ليس له ضريح في مدينة أسوان البعيدة. ولكن هنا في مقابر «قفط» ينهض مقامه في ركن قصي من أركان المقبرة المعروفة، وهذا ما حلُم به عبد الراضي في نومه. ومرة سألت عبد الراضي: وأين يكون بخيت

عندما لا يكون في جسدك، وكانت الإجابة سريعة وفورية: «في أسوان، جميع الأولياء في أسوان!». وفي مرة أخرى قال لي عبد الراضي إن الشيخ بخيت في «الجنة مع الله». وقال إن الشيخ بخيت حذره من شرب الخمر، وأنه سيضربه إن فعل. وعندما قلت له من الطبيعي أن يكون بخيت في أسوان، وافقني على ذلك، ولكنه أضاف على الفور أنه «في الجنة مع الله». إن أسوان التي يتحدث عنها ليست تلك المدينة التي تقع في أقصى صعيد مصر، ولكنها أسوان السماوية، وأغلب الظن أنها موطن في الجنة نفسها.

إن بخيت في المكان القصي في معية أربعة وعشرين وليًا من الأولياء، وهو قائدهم وزعيمهم. وجميعهم يمكن أن ينزلوا في عبد الراضي، قاعود بخيت الصغير. وأربعة وعشرون عددٌ ليس بالهين، ويعني الكثرة. فلا أحد تحدث عن عدد الأرواح الشبحية التي سكنت في جسد عبد الراضي، ولا أحد يريد أن يحصي. وعندما سألت عبد الراضي كيف عرف أنهم أربعة وعشرين، عزا تلك المعلومات إلى الحُلم / النداء، وأن هذا هو ما أخبره به بخيت عندئذٍ.

الفصل الحادي عشر

العلاقة بين وعي عبد الراضي في حالة اليقظة وحاله في المس

يؤمن عبد الراضي إيمانًا لا يتزعزع بأن بخيتًا نفسه وأرواحًا شبحية أخرى تدخل في جسده. وكثيرٌ من زواره يؤمنون بهذه العقيدة. وآخرون قد يشكون، ولكن الشك لا يؤثر على حقيقة الأرواح وواقعيتها، وإنما يمس نمط الأرواح. فهم يعتقدون أن العفاريت وليست الأرواح هي التي تحضر في عبد الراضي عندما يكون في حالة المس.

ونحن الأوروبيون نشك في أن الأرواح تتجلى بنفسها للبشر، وربما نشك في وجود الأرواح من الأساس. وربما نظفر ببعض الراحة فقط عندما يتسق ظهور تلك الأرواح مع وجهات نظرنا الكونية، انطلاقًا من مراقبتنا الدقيقة للطبيعة. وإنه لحقنا وواجبنا أن نبقي على مثل هذا التأمل والنظر؛ لأنه إنجازنا الخاص بنا، ولأنه الإنجاز الذي به أصبحت أوروبا عظيمة حقًا.

ومن الأمور المهمة غاية الأهمية أن نبحث عن الصلات بين شخصية عبد الراضي الواعية والشخصيات الأخرى التي تقمصها في أثناء المس.

أولاً رصدنا الفرق بين هذين الحالين فوجدنا ما هو آتٍ:

أن عبد الراضي لا يتذكر شيئًا بعد تجربة المس مما جرى فيها، لا مما نطق به، ولا مما فعله أو سمعه.

وثانيًا عندما كان بخيت يعالج عباس الذي كان يُشتبه في أنه ممسوس (ص: ١٢٣)، وضع عجينة على جمجمة الشاب المريض. وعندما استيقظ عبد الراضي من المس، رأى قطرات قلائل من العجين على الأرض. عندئذٍ سأل ما تلك، وطلب تفسيرًا مفصلاً.

ومن الأرواح التي ظهرت ذات مرة سليم الهُو (ص: ١٠٠ - ١٠١)، المعروف بمطاردته للقطط. وبعد يومين كان عبد الراضي في منزلي في «كيمان»، وسألته عن هذا الشيخ. في البداية كان يريد أن يتذكر إن كان هناك شيخ بهذا الاسم، ثم لم يتذكر شيئًا عن القطط وتخويفها. وقد كان مندهشًا أشد الدهشة حين علم أن هذا الشيخ قد دخل فيه.

ولقد قمت بالتقاط بعض الصور الفوتوغرافية لعبد الراضي وهو في حالة المس (انظر اللوحات ٢ - ٧). وكان يعرف حتمًا عن صور أخرى التقطتها لـه وفي حالة الوعي، ولكنه لم يستطع أن يتذكر أبدًا أني التقط لـه صورة وهو في حالة المس. ورغم ذلك استقر في ضميره في أثناء المس أن صورًا ستلتقط له، كما سنبين فيما بعد.

لنركز الآن على الجسور التي يمكن أن تربط بين عبد الراضي في حالة الوعي وعبد الراضي في حالة المس.

قبل جلسات المس، خاصة جلسات العصر، كان عبد الراضي يجلس في الباحة الأمامية بين الضيوف. ومن ثم قد يحدث أن يسأل فلانًا وعلانًا عن أخبار آخرين. وأحيانًا كان يسأل مساعدي إن كنت قد تلقيت أية خطابات، وإن كانت حولي أخبار ما، أو إن كان لدي خطط للمستقبل القريب. وكانت

تلك الأسئلة الحذرة تبدو مريبة ولكن سوء ظننا يختفي في الحال؛ وذلك لأن عبد الراضي لا يسأل في السر، بل كان يسأل دون أن يهتم بحضور آخرين قد يهمهم الأمر؛ والحقيقة أنه كان يسألهم مباشرة ودون تحفظ. إنه لا يتحرى أخبار الحالة التي يعالجها من وراء الزبون لكي يستحضر تلك الإجابات في أثناء المس كمثال على الكهانة والعرفان. فإن عبد الراضي يجمع بشكل غريزي تلك المعلومات لتغوص إلى مستوى آخر من الوعي، ويمكن أن يسترشد بها في طريق البحث عن رؤى وتفسيرات قد لا تخطر على البال.

وذات يوم كان عبد الراضي يزورني في «كيمان» ودار بيننا حوار ودي، قال لي: «متى تذهب إلى القاهرة، من فضلك هات لي معك قطعة قماش لونها مقلم بالأزرق والأبيض لأفصلها جلبابًا». وبعد أيام قلائل، زرته. كان في حالة مس، وظهر بخيت وخاطبني. وفي النهاية قال: «الرجل الشهم سوف يشتري جلبابًا من القاهرة للقاعود الصغير».

وفي مرة أخرى أحضرت لعبد الراضي حزمة شمع، وفي ذلك اليوم لم ينزل الشيخ على الإطلاق. وأعطيت الشموع لمهدي (ابن سنوسي) ليضيء بها ضريح بخيت. وبعد يومين أعلن بخيت، وهو في حالة مس مع عبد الراضي: «الرجل الشريف هناك أعطاني شموعًا».

أضف إلى ذلك أني أستطيع أن أذكر أن عبد الراضي في أثناء المس كان يشعر بما يجري حوله بدرجة قلت أو كثرت. على سبيل المثال، يشعر أين يجلس الضيف، ومن هذا الذي يعطيه «ريحته». وكان عبد الراضي أيضًا واعيًا في أثناء المس أني كنت ألتقط له الصور الفوتوغرافية. قبل كل شيء يتأجل استهلال المس عندما اصطحب كاميراتي معي، وعندما يكون المس

في الطريق، أستطيع أن أشعر بوضوح في الإيماءات والكلام الذي يقوله عبد الراضي بعض التحفظات التي تنشأ عندما يتحول إليّ أو في اتجاه الذي فيه كنت أجلس. والحقيقة، أن عبد الراضي ذات مرة فتح عينيه نصف المغلقتين واختلس نظرة سريعة إلى المكان بشيء من الغموض.

وأخيرًا، أخبرني عبد الراضي في إحدى زياراته إلى «كيمان» عن إيماءت الأرواح. وكنا في منتصف حوار حميم، كان يتحدث فيه معي عن أحلامه، كصديق. قال لي عندئذٍ، «عندما ينزل الشيخ علي فإنه يصالب ذراعيه وأما الشيخ خليفة مصطفى والشيخ عبد الله فيجلسان وقد وضعا ساقًا فوق ساق». وقد رأينا أن بعض الأرواح تكشف عن نفسها من خلال لغة جسد خاصة جدًا أو إيماءات معينة - بخيت، الذي حين يراه عبد الراضي ينهض واقفًا على ساقيه، يُعرف بإنشاده، والأسيوطي من خلال يده اليمنى التي يرفعها، ومحمد عبد القادر لأنه دائمًا يمسح على صدره ما معناه أن قطارًا دهسه. ومن الملاحظ أن عبد الراضي حين يكون خارج المس كان يعرف تلك الإيماءات والإشارات.

أتذكر في الحقيقة أنه كان يفضي إليّ بكل ذلك عندما ندخل في حوار سري للغاية، وكلانا يستخدم الهمس، ويبدو الأمر كأن كلينا قد نزل إلى مستوى آخر في وعي عبد الراضي.

والصلات بين وعي عبد الراضي حالة اليقظة، ووعيه حال المس موجودة طبعًا. فلننظر الآن في بعض الصور المتشابكة التي استحضرها في أثناء المس.

في الرسائل التي كان يعطيها لي شخصيًا كان بخيت يصف منزلي في ألمانيا وحالته (ص: ١٠٥). ففي الخامس عشر من فبراير، رسم بخيت حالة المنزل وهو وسط الحديقة، الأشجار القائمة عند مدخل البوابة. وهذا مما يصادف الواقع تمامًا. ثم راح يصف كيف أن ابني كان يتزحلق جيئة وذهابًا بين باب البيت وبوابة الحديقة. وربما كان ذلك «تراك» تزحلق ومن ثم يتفق مع الواقع أيضًا. وذكر طرمبة ماء في البيت ولم تكن هناك في الواقع طرمبة ماء في بيتنا. والجلسة كلها كانت تدور حول مثل هذه الأمور الشخصية بالنسبة لي.

وفي جلسة أخرى في الثاني من مارس، ظهر بخيت أولاً، ثم الأسيوطي الذي كان ينشد، ثم محمد عبد القادر البراهمي الذي كان يهمس لأبيه الذي كان حاضرًا، ثم بدأ ينشد أيضًا بشيء من السعادة. ثم ظهر بخيت. واتجه نحوي ووصف أسرتي، وراح يسترجع وضع البيت والحديقة من خلال الصور. وهذه المرة لم يأتِ على ذكر طرمبة الماء. وبعد وقت قصير - وهو ما زال مركزًا معي - راح بخيت يتلو القصيدة الصوفية التي تتحدث عن الأولياء الطوافين. ثم اتجه بخيت إلى شخص آخر.

وفي جلسة ثالثة في الخامس والعشرين من مارس، والتي ركز فيها على رسالة موجهة لي، راح بخيت يصور أولاً الأسرة، ثم بإيماءة أشار إلى الشارع، ثم البيت وبابه. وبعد البيت ذكر طرمبة الماء هذه المرة، والماء يتدفق منها. ثم وصف الأشجار باقتضاب. ثم أضاف أنه يوجد خط سكة حديد بالقرب من البيت، ويوجد أيضًا حمام يطير حول البيت. وبعد أن فرغ من هذا الوصف

مباشرة، راح عبد الراضي مرة أخرى يتلو القصيدة الصوفية. والواقع لا يوجد عندنا حمام بالقرب من منزلي في ألمانيا.

وفي وسعنا أن نفكك هذه المجموعة المتشابكة من الصور إلى جزئين. في الصحراء، على بعد نصف ساعة من نجع الحجيري، هناك رجل سويسري، السيد ج. دودلر [1]، كان قد بنى بيتًا. وهذا البيت يقع داخل فناء واسع جدًا محاط بسور عالٍ. وتكثر الأشجار خاصة عند الناحية البحرية. ولكي يمد هذا البيت بالماء، كان لابد من حفر بئر، وأُنشئت عليه طرمبة ماء. وعلى السور، عند البوابة القبلية، برج حمام.

وقد كان لهذا المنزل تأثير على رؤية عبد الراضي لمنزلي في «توبنجن». فأنا والسويسري أوروبيان. وأنا وهو نعيش هنا في عزلة «قفط» وقراها وغربتنا فيها، وإنه لمن غرائب المصادفات. ففي وعي الفلاحين المصريين نُعتبر أنا والمستر «دودلر» من الفئة نفسها.

رأى عبد الراضي وهو في حالة المس بيتي في «توبنجن»، رآه بعين بصيرته العارفة بالغيب. فصور البيت بما فيه من حديقة وأشجار، والغلام الذي يتزحلق رائحًا وغاديًا على «التراك»، لا يتسق مع وصف منزل «دودلر» بل مع منزلي أنا.

وكان وصف المنزل في الجلسة الثانية مختصرًا، لم يأتِ على ذكر طرمبة الماء، وفور الانتهاء من وصف المنزل راح عبد الراضي يتلو قصيدة الأولياء الطائفين في الصحراء. وكان ذكر تلك الأبيات في الجلسة الثالثة تاليًا أيضًا

(١) كان جوزيف دودلر مقاولًا سويسريًا يعمل في المناجم في صحراء مصر الغربية. عاش في هذا المنزل هو زوجته وابن عمره عشرة أعوام. وكان هو وفينكلر صديقين.

لوصف المنزل وأعتبره جزءًا من التعقيد. لقد كانت موجودة في وعي عبد الراضي لفترة طويلة. والآن طفت على السطح؛ لأن صورة منزلي استدعت صورة منزل السيد «دودلر»، وهو المنزل الواقع في الصحراء حيث يطوف الأولياء.

وفي الجلسة الثالثة ذكر الشيخ طرمبة الماء مرة أخرى، ولكن شيئًا جديدًا أُضيف في شكل خط السكة الحديد المجاور ولبرج الحمام الذي يطير حول البيت. ومرة أخرى راح عبد الراضي يتلو الشعر الصوفي. وقد اشتُقت من صورة منزل «دودلر»، بينما أتت السكة الحديد من صورة منزلي في ألمانيا.

وأما ترتيب الصور فرائع. فحسب رؤيته، نجد أن عبد الراضي في البداية يبدأ بصورة منزلي، وقد تعرض هذه الصورة للحجب بسبب صورة منزل «دودلر» في وعي عبد الراضي في حال اليقظة. فالأمر يشبه مصورًا فوتوغرافيًا قام بتحميض صورتين على نفس اللوح، صورة منزلي في الأولى، ثم صورة منزل «دودلر». ولكن الصورة التي التقطها المصور لمنزلي موجودة الآن على اللوح، ولكنها تفتقر إلى الوضوح، وأغمضتها الصور المضافة للمنزل الآخر.

ونستطيع أن نعزو مجموعة من الأشكال إلى هذه المجموعة من الصور.

فعندما كان من المفترض أن يقوم عبد الراضي بعلاج عباس (ص: ١٠٠)، كان بخيت أول من ظهر، ثم ظهر بعد «علي» الذي كان يشابك ذراعاه على صدره، من نجع الحجيري، والذي كان يتمتم لنفسه، ويتلو آيات من القرآن الكريم، ثم يليه الشيخ الأسيوطي الذي كان ينشد، ثم الورداني الذي كان يصالب ساقيه وهو من «كيمان»، والذي كان يهمس بسورة الفاتحة

لنفسه، ثم يجيء عبد القادر الجيلاني الذي يمعن في الإنشاد بحبور، ثم سالم الهُو، وأخيرًا بخيت.

وإني لأستعرض هذا الترتيب للأرواح الشبحية مرة أخرى لأُظهر أن هناك نسقًا: «على والورداني، الأسيوطي والجيلاني يوافق كلٌ منهما الآخر، ويظهر الورداني بوصفه شبيهًا لـ «علي»، والجيلاني شبيهًا للأسيوطي، ويظهر علي والأسيوطي شبيهًا للاشباح / الأرواح التي تظهر باطراد. ولا يظهر الورداني والجيلاني إلا نادرًا، وإني لا أعرف لهما ظهورًا آخر. والثنائي: على الذي يهمس والأسيوطي الذي ينشد ينتجان صورتهما المطابقة، أو صورتهما المعكوسة، إذا جازء التعبير، وأيضًا الورداني الذي يهمس والجيلاني الذي ينشد.

وليس من المعهود أن تظهر الأشباح مثنى وثلاث ورباع، إلا إذا كان الظرف طارئًا، أو لعبت المصادفة دورًا ما، أو أن الأشباح تتعاون فيما بينها لإنشاء روح جديدة، مما يلقي الضوء على عمل هذه الأرواح، ومنهج تلك الأشباح في التفاعل مع البشر. فالأسيوطي يحب الظهور مع الشيخ «علي»، وكثيرًا ما وجدت الاثنين معًا، وأما روح المرحوم محمد عبد القادر البراهمي الذي دهسه القطار فيأتي في سلسلة الظاهرين مع الشيخ «علي». ففي جلسة واحدة ظهر محمد عبد القادر، ثم الشيخ «علي»، ثم الأسيوطي، ثم جلسة أخرى ظهر فيها الأسيوطي مسبوقًا بمحمد عبد القادر ثم جلسة ثالثة ظهر الأسيوطي وبعده الشيخ «علي»، ثم ظهر الأسيوطي مرة أخرى بعدمها.

إن تقليص الفجوة بين عبد الراضي وهو في حالة الوعي وفعل المس نفسه يمكن أن يهز إيماننا في حقيقة الأرواح الشبحية بالمعنى الأرحب.

ونحن نرى أنه على مستوى وعي عبد الراضي يلتقي فيه الوعي العادي بعبد الراضي الذي يكون في حالة المس أو في حالة الحُلم . وقد تكون الأشباح التي تقدم نفسها بالأسماء صورًا منعكسة أو تجليات لحالات نفسية لأشخاص، فربما يكون في ظهور عبد الراضي المتنوع مثلاً تمثيلاً لجوانب مختلفة من نفسه هو ذاتها، أكثر منها كيانات خارجية دخلت فيه. هذه الأشباح قد تكون انعاكاسات أو وجوه قديمة لهُوية الشخص نفسه أو تجاربه، ولذا قد يكون ظهور عبد الراضي باكثر من وجه تجليات لحالاته هو الداخلية، وليس كيانات خارجية تسكنه. ولذا قد لا تكون الأشباح قادمة من الخارج، ولكنها ناشئة من عقل عبد الراضي نفسه أو من وعيه؛ فظهور الأشباح له ما يبرره من الناحية السيكولوجية لظاهرة الشبح، ويقترح أن تكون إسقاطات داخلية وليست كيانات خارجية.

ومهم الآن أن نصل إلى المستوى الذي فيه وعي عبد الراضي لحظة المس، أو في اللحظة التي توجد فيها الأرواح التي تسكنه. فأنا أتذكر أن عبد الراضي، في أثناء الحوارات الحميمة التي كانت تدور بيني وبينه في حجرتي في «كيمان»، أتذكر أنه تحدث معي عن أحلامه التي يرى فيها الشيخ بخيت، وكان يؤدي فيها حركات الذكر في معيته ومن معه من الصوفية. قال لي عبد الراضي - في تلك الحوارات الحميمة الجادة التي كانت بيننا - إن الأحلام كانت تطوف في الليل حيث يرحل معها إلى مسافة بعيدة، إلى قرى أخرى، إلى الشيخية وإلى البراهمة. هناك كان يستطيع أن يرى كل شيء. تلك كانت أحلامًا سعيدة كلها. أخبرني مرتين أنه كان قد زار منزلي في ألمانيا في الحُلم. ثم مضى عبد الراضي يرسم، وهو الآن في حالة الوعي واليقظة، صورة دقيقة

للمنزل كما وصفه وهو في حالة المس مع الشيخ بخيت. وفي حُلم آخر من أحلامه رآني أيضًا وأنا في منزلي مع طفلي. كان الطفلان يلعبان. وبوصفه مسلمًا صالحًا لم يذكر زوجتي في هذا السياق. وصف لي الشجرة، وطرمبة الماء. ولكنه اكتفى بما قال وأخبرني أنه لا يريد أن يمعن في أخبار ذلك الحُلم الجميل. وغطى فمه بيده وأغلقه تمامًا.

وقد سمعنا أن عبد الراضي لم يكن يشارك في حلقات الذكر، لا قبل النداء ولا بعده، لم يكن يسهم إلا بالحضور الجسدي والفرجة. ولكن في الحُلم كان عبد الراضي يشارك مع بخيت ورهطه، في مستهل حادثة المس كان بخيت نفسه كثيرًا ما يؤدي حركات الذكر تتجلى في إطلاق ثلاث نوبات من الزفير القصير.

وذات مرة قام عبد الراضي نفسه بتنظيم حلقة ذكر، وكان ذلك في ليلة من تلك الليالي التي يصبح فيها القمر بدرًا. ووقف المشاركون في الذكر طابورين أمام منزل عبد الراضي مع المنشد بين الصفين. كان المنشد يتمايل بجسده على الإيقاع جيئة وذهوبًا، وكان يميل برأسه جدًا إلى الخلف ثم يلقي بها إلى الأمام كأنه يرميها. وكان يصدح بالغناء بصوت مرتفع، بصوت أجش مفعم بيقين عميق. في البداية كان أتباع الطريقة في الذكر يكررون كلمة «الله» وراء المنشد بغنائه ويصفقون. ثم يتبعون ذلك بعبارة «الله حي». ثم يتبع ذلك بحركات من الشهيق الزفير مع حبس الكلام، وتتدرج هذه الحركات من الضعف إلى القوة والإثارة. وبين الفينة والأخرى كنت تسمع صوت أخٍ من أتباع الطريق مصحوبٍ بنحيم حزين، أشبه بنشيج امرأة. وكان تفاني أولئك الأتباع له تأثير أنثوي طاغٍ، نشيج بدا أشبه بصرخات

النشوة عندما تصل إلى الذروة. وأما المنشد فقد كان صوته ذكوريًا، يطغى على سائر الأصوات بإيقاع النشيد. ولم يكن عبد الراضي يشارك في هذا الذكر. وكان يكتفي بالمشاهدة. وعندما يبدأ إخوان الطريقة في ذكرهم الصامت إلا من الشهيق والزفير، كانت آنية البخور تحضر ويُوزع الطيب كلٌ له نصيب. وكنت أرى، وما زلت، في ذلك ضربًا من السلوك الموازي للسلوك الموجود في الحُلم ، عندما كان يظهر بخيت في حالة المس. وهم يستهلون حالات المس كانت البخور تفعل فعلها، ثم يظهر بخيت في عبد الراضي ويقوم بحركات الذكر من شهيق وزفير.

وختامًا أقول: في وسعنا الرجوع إلى حُلم عبد الراضي الأول، الحُلم / النداء من جديد. والمؤكد أن بخيت كان يُنسى تمامًا عندما كان عبد الراضي يُبتلى بمرض جدي. ولكن عبد الراضي كان عندئذٍ رجلاً في الثلاثين من عمره وربما أكثر. وكان قد سمع عن الشيخ بخيت أكثر من عدة مرات في تلك الفترة، والمرجح جدًا أنه سمع عن بخيت في طفولته الباكرة، أي الفترة التي كانت قريبة جدًا من وفات بخيت التاريخية. ولذا نجد عبد الراضي في أثناء حياته لم يستطع أن يجمع كل شيء فيما يخص الشيخ بخيت الذي كان سيُبتلى بمسه في المستقبل، من ذكريات التجلي الخارجي، وأسلوبه في الكلام وكيف كان يمارس حياته عندما كان من الأحياء، وما شئت من تلك الروايات التي تتعلق بأفعاله. وربما كان لقصة بخيت وتجليه في عبد الراضي، وعلاقته به منذ الطفولة حين سرق الرمان، ربما تبهر الفلاحين، ولكنها ليست كافية بالنسبة لنا لتبهرنا.

ولعلنا نتذكر ذلك الحُلم / النداء الذي تجلى فيه بخيت لعبد الراضي وأعطاه الراية. فما مصدر تلك الصورة؟ في الطريق إلى نجع الحجيري إلى «كيمان» و «قفط» يوجد مقام مزدوج بينهما مسافة. ومنذ طفولته كان عبد الراضي يمر من ذلك الطريق، سواء كان ماضيًا إلى الحقول أو إلى السوق. والحق أن المقام نفسه لم يكن له دور يُذكر، على الأقل في حياة أسرة عبد الراضي. ولكن كل من كان يمر من أمام ذلك الضريح المنزوي يمعن النظر بطبيعة الحال في الباب المفتوح على الطريق. وفوق ذلك الباب يمكن للمرء أن يرى رسمًا عشوائيًا مائلاً إلى السواد. يُظهر الرسم رجلاً يمسك براية. وإلى جواره رسمٍ آخر لا يكاد يبين لشيء أشبه بالشجرة (انظر اللوحة رقم ١١). صورة هذا الرجل بالراية فوق باب المقام، مع آخر كان يسلمه الراية، كان داخلاً في المكان المقدس، تلفت أنظار المارة، ويلفت أنظارهم أكثر تلك المساحة فوق الباب المفعمة بالصور. وظني أن هذه هي الصور الأصلية التي حددت حُلم عبد الراضي النداء. وفيما بعد، عندما أوريت عبد الراضي صورة فوتوجرافية لهذا الضريح والرسوم التي عليه، لم يتذكر أنه رآها قط من قبل. وهذا ما يؤكد نظريتي أن هذه الصورة قد وصلت في اختراقها إلى مستوى الحُلم في وعيه.

خاتمة

حاولنا أن نبسط القول في عبد الراضي وأشباحه. وقد نجحنا ولو جزئيًا. استطعنا تفسير ظواهر معينة مثل الحُلم / النداء الذي حلُم به بخيت، وفسرناه على أساس خبرات عبد الراضي الشخصية وذكرياته، وبوصفها تعبيرًا عن صورة مرسومة على جدار ضريح، وشبحين بوصفهما صورتين منعكستين على المرآة لآخرين. ولا يوجد دليل مقنع على أن أشباحًا خارجية سكنت عبد الراضي، وهذا ما أدى في النهاية إلى الشك في وجود الأشباح كلها. فبينما نجد أن بعضًا من ظواهر الأشباح يمكن تفسيرها من خلال التفسيرات المعتمدة على الناحية السيكولوجية والذاكرة؛ فإن الأدلة الثابتة على وجود مثل تلك الأشباح الخارجية ليست مؤكدة.

ولكن الأمور لا تسير بهذا الشكل. فإن كنا نفتقر إلى الدليل على أن الأرواح موجودة، فإننا نفتقر أيضًا إلى الدليل لنثبت للفلاحين المصريين أن الأرواح أو الأشباح لا وجود لها. فليس لدينا ما نثبت به أن شبح بخيت لم يُقم علاقة حب مع عبد الراضي، ولم يختره قاعودًا يُمتطى أو جبلاً يُرتقى، ولم يختر جسده مأوىً أو منزلاً لفترة من الزمن طالت أو قصرت. ليس لدينا ما نثبت به أن شبح عبد القادر الذي قضى في حادثة قطار بالمصادفة دخل في جسد عبد الراضي ولبسه لكي يصل من خلاله إلى والديه ويهدئ من روعهما ويطمئنهما على أحواله في البرزخ. ولا أظن إلا أننا يجب أن نسعى وراء هذا الدليل ما وسعنا السعي، وأن نجتهد في الوصول إليه ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

وإذا كان بخيت وغيره من الارواح والأشباح التي كانت تسكن عبد الراضي ما هي إلا جوانب من شخصية عبد الراضي نفسه، فإن جانبًا واحدًا منها هو الذي نرى منه العجب أي عجب. إنه شخصيات كثيرة منفصمة، ولها مجال رؤية مختلف أشد الاختلاف، وواسع أشد الاتساع، من حال عبد الراضي وفي عز يقظته ووعيه. فنحن أمام شخصية بخيت المنفصم على ذاته، ذلك الذي ينفذ ببصره في وجوه الزائرين مثلما تنفذ النظارات التي تكشف الحجب، ويصل إلى الأفكار في داخل الرؤوس. فهذا الـ «بخيت» يستطيع أن يتناول خيطًا من جلباب، أو جزءًا من طاقية، أو شيئًا يسيرًا يتعلق بمريض ما، قد يكون نائمًا على سرير مرضه على بعد مئتي كيلومتر، وهذه الـ «ريحة» التي يشمها بخيت أو يقرأ عليها التعاويذ تنبئه بالغيب، وتأتي لـه بصورة المريض، وأكثر من ذلك - تنبئه بسبب المرض وتصف لـه علاجه.

فذلك الرجل المدعو «بخيت» لديه القدرة على الوصول، وهو جالس مكانه، إلى البحار والجبال في مدينة «توبنجن» الألمانية، التي تقع على بعد آلاف الكيلومترات من صعيد مصر، وينبئك رغم هذه المسافات البعيدة، عن أخبار مدينة واحدة من بين جميع القرى والمدن، بل ويبنئك عن أحوال بيت بعينيه من بين جميع البيوت التي في هذه المدينة، ويرى في ذلك البيت فتاة صغيرة تلعب مع دميتها بالعربة الصغيرة، الفتاة الصغيرة بعينها التي يريد الزائر أن يسمع أخبارها. إنه يراها في عربة دميتها، وهو شيء لا أظن أن المرحوم بخيت ولا عبد الراضي وقعت عينيهما عليه، حتى محاوره لم يكن يتوقع قط أن يكون لدى الفتاة الصغيرة عربة دمية - ناهيك أن تلك الفتاة بالذات في ذلك الوقت بالذات تلعب بها بين يديها.

فما الذي يعطينا الحق في ألا نثق في هذا العراف - ونصدق تلك الرؤى التي لا تنتمي إلا إلى عوامل غريبة غاية الغرابة، عوالم الأرواح الشبحية؟ وهل من خطوة خطيرة نضع بها النهاية، أن الأرواح الشبحية القادمة من العالم الآخر تخترق الحجب وتأتي طائعة صاغرة لهذا العراف المسكين؟

فعندما ظهر شبح محمد عبد القادر في عبد الراضي، راح يخبر أباه الطاعن في السن أنه يعرف ماذا كانت أمه تطبخ في البيت في آخر يوم غادر فيه البيت. وأغلب الظن أن العراف - ونحن لا نتحدى هذه المهنة وأصحابها - كان يقرأ ذلك في عقل الأب المسن، وكان يعرف بالغريزة ما يدور من أفكار في عقل فلاح مثله. ولكنه لم يتورع في سؤاله إن كان قد فقد حياته بسبب عصيانه لأوامر الله، أم بسبب حادثة عارضة، أم بسبب فعل إجرامي. وعاد الشبح بالإجابة، أو عادت الروح بالسر مباشرة ودون تردد. وراح الشبح يخبر الجميع بأن الأبوين لا يجب أن يبكيا على محمد، ويجب ألا يذرفا المزيد من الدموع عليه، وأن دموعهما أمرضت خديه هو، وهو في عالم البرزخ. إذا بالروح تعاني، وعاجز عن تحرير نفسه طالما كانت أفكار ذويه ساجنة لـه ولا تطلق سراحه. ألا يقع ذلك كلـه خارج نطاق الكهانة الساذجة؟

أغلب الظن أن هذا النوع من الضحايا، ضحايا الموت العنيف، كثيرًا ما يظهرون في أجساد أمثال هؤلاء الممسوسين مثل صاحبي عبد الراضي. فهل ذلك مصادفة؟ مثل هؤلاء الضحايا هم أقرب الناس إلى الناس، وأكثرهم إلحاحًا على الحياة اليومية للأحياء، وأقرب إلى همومهم من أولئك الذين يموتون ببطء بسبب مرض أو بسبب كبر السن.

ومن وجهة نظر مختلفة أشد الاختلاف، يقترب دفاعنا عن حقيقة الأرواح والأشباح من الفهم الشعبي. عندما يموت رجل موتًا عنيفًا فإن المكان الذي يلاقي فيه الموت يصبح مسكونًا. وليس الفلاح المصري بالوحيد الذي يعتقد ذلك الاعتقاد، وليس وحده الذي يرى هذه الأشباح والأرواح - فإنه لأمر معروف في العالم كله، وفي جميع العصور والأزمان.

ونقطة أخرى تستحق التنويه. عندما كان عبد الراضي على وشك المس، كان يضطر إلى التثاؤب الكثير. وكان يقرب من وجهه سلطانية البخور: وكان ذلك مما ييسر البدء في المس الذي كان يقتحمه اقتحامًا كموجة عاتية يكاد يغرقه إغراقًا. فما شأن ذلك كله بالشخصية المنفصمة؟ أليس ذلك تنفسًا حقيقيًا، أو روحًا فعلية سكنته واستولت على جهازه التنفسي لتستخدمه لصالحها حتى لا يدخل في جسده الهواء ويخنقه أو يهدد بإغراقه؟

ولا أظن إلا أننا نسير ضد المنطق، وضد العلم الذي تعلمناه، حين نغلق أعيننا أمام إمكانية وجود الأرواح الشبحية. فالمنهج العلمي الحقيقي يقتضي منا أن نبحث ونستكشف، خاصة حين نتصدى لظواهر تبدو خارقة للطبيعة. فحين نرفض إمكانية وجود الأرواح الشبحية دون إمعان في البحث والتقصي، فإن ذلك يمكن أن يحصر فهمنا للعالم في زاوية ضيقة. وعلينا أن نوازن بين الشك والفضول، ونبقي على جهادنا في البحث عن التفسيرات المنطقية للظواهر التي نلاحظها، وأن نكون جاهزين للنظر في الإمكانيات البديلة، خاصة حين لا تكفي المعرفة القائمة لتفسيرها.

لنفترض في البداية وجود هذه الأرواح الشبحية، ثم للنظر في الدور الكبير الذي تلعبه في الحياة الدينية التي يعيشها الفلاحون. فنحن نرى أن

حياة الفلاحين الدينية في منطقتنا تختلف أشد الاختلاف عما اعتدنا أن نراه ونخمنه. فنحن نظن أنهم مسلمون، ونؤمن بأن ما ورد في كتب الفقه التي ألفها علماء الدين المسلمين يتفق مع أفكار أولئك الفلاحين. ولكن الأمور ليست كذلك، فإن الأشباح، والتي ترقد جميعها في القبور تنتظر يوم القيامة حسبما يرى الفقهاء وغيرهم من رجال الدين، كائنات قلقة ونشطة، ترسل الأمراض والموت، وتطالب بقبور لائقة، ومهمومة بتحسين أحوال ذريتهم التي تركوها في عالم الأحياء. فإن كان الفلاحون يؤمنون بذلك فهل حادوا عن الإسلام الصحيح في نهاية المطاف؟ هل عادوا إلى الوثنية وعبادة الأصنام؟

لا .. على الإطلاق. إنهم مسلمون شديدو التمسك بالإسلام. فهناك وسط هؤلاء الفلاحين، نعرف التدين الصادق، ونقترب من الإنجاز الجبار الذي حققه محمد، وهناك بينهم ندرك سر حيوية الإسلام وطول بقائه. وربما لا يكون علماء الدين أو أغلبهم سعداء بمعتقدات الكثير من هؤلاء الفلاحين. ولكن أغلب الظن أن محمدًا سعيد بهم أيما سعادة. فمحمد كان أعلم الناس بالله، الرحمن الرحيم رب العالمين، وأصل الوجود وعلته، وكل وجود. وفلاحونا أيضًا يدركون ذلك بالفطرة والغريزة. وعبد الراضي لا يتوقف عن النطق بالشهادتين عندما يستفيق من نوبة المس، وحين يعود إلى وعيه يردد: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. وعندما كان يدخل فيه بخيت، ويستقر في داخله، ويتحدث من خلال فمه، فإن أول الكلمات التي ينطق بها ذكر الله ونبيه.

وعبد الراضي محافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها، وعلى صيام رمضان، ولا يتوقف عن الهمهمة بأسماء الله الحسنى كلما اشتشعر القرب من

الله. فهو مسلم صالح بكل ما تعنيه الكلمة، وذلك ما يقيه من الشرور، ويحمي أتباعه وأصحابه وسائر أهل قريته، من أي استبداد تمارسه تلك الأرواح. فالإيمان بالله هو جوهر الحركة التي يتحركونها، ومنطلق الحياة التي يحياها أولئك الفلاحون. فسواء رضيت الأشباح أم سخطت، فإن الإيمان بالله واللياذ برحمته وعفوه، يمنح الفلاحين السلام النفسي، والصمود في وجه الموت.

وإننا لنعجب أشد العجب من أولئك الفلاحين، الذين يتعاملون كثيرًا مع الأرواح الشبحية، ونحن أكثر عجبًا بعبد الراضي الذي تسكن فيه هذه الأرواح. ولكن الفلاح لا يرى في ذلك عجبًا، فنحن هنا أمام اختلاف عميق بين طبيعة شخصياتنا وطبيعة شخصياتهم. فالفلاح - وفي هذا المشهد يمكن أن يجسد جزءًا كبيرًا جدًا من البشرية - في طبيعة شخصيته أقل قسوة بكثير. فالأرواح يمكن أن تسكن فيه ولا تسكن فينا، أو على الأقل تفضل أن تدخل في أجساد الفلاحين ولا تفضل الدخول في أجسادنا. فالجدران التي تحمي شخصيتنا أشد كثافة وأعلى ارتفاعًا. والفلاح أكثر تواضعًا ورضى وقناعة منا في علاقته الوطيدة مع الأرواح. فنحن أكثر نهبًا للوحدة والعزلة، وأكثر نهبًا للقلق ونحن داخل جدران الروح. ولكن من جانب آخر، استطعنا حماية مجالنا الذي نحتمي فيه بالتفكير والتقدير، فواجهنا الكون وأخضعنا الكثير من ظواهره. ولكن طريقنا إلى الله ما يزال أشد قسوة منهم، وإرهاقًا، وإن أفضى في النهاية إلى بصيرة أكثر نفاذًا، وإدراكًا أكثر حذقًا.

صدر من هذه السلسلة:

١ـ كيف سحر القرآن العالم، أنجيليكا نويفيرت.

٢ـ الدين الشمولي، يان أسمان.

٣ـ أوبرا الناي السحري، يان أسمان.

٤ـ حقوق الإنسان وواجبات الإنسان، ألايدا أسمان.

٥ـ السلفية والإصلاح الذي فشل في الإسلام، محمد سمير مرتضى.

٦ـ تقدم خطوة واقترب، نافيد كيرماني.

٧ـ الألمان والشرق، الانبهار والازدراء وتناقضات التنوير يوزيف كرويتورو.

٨ـ جدَل السُّلطة والمُقدَّس، الدين والسياسية في مصر القديمة وإسرائيل وأوروبا، يان أسمان.

٩ـ بأيّ لُغة خَاطَبنَا للهُ؟ـ رؤى من اليهودية والمسيحية والإسلام، أميرة أمين.

١٠ـ العلاقات اللاهوتية بين الإسلام واليهودية والمسيحية، هربرت بوسِه.

١١ـ صورة الإسلام والمسلمين في الخطاب الألماني المعاصر، أسماء عزيز حسين.

١٣ـ اتجاهات الاستشراق الألماني، أحمد محمود هويدي.

الملبوس

دراسة في الأرواح والمس في صعيد مصر

"الملبوس: دراسة في الأرواح والمس" كتاب قام بتأليفه عالم الأنثروبولوجيا الألماني الشاب هانز فينكلر في ثلاثينيات القرن العشرين، وقامت الجامعة الأمريكية في القاهرة بترجمته إلى الإنجليزية منذ بضعة أعوام، ونحن إذ نقدمه اليوم للمرة الأولى باللغة العربية، فلأنه يلقي الضوء على زاوية مهمة من زوايا حياتنا، وجانب مهم من جوانب حياة قرية من قرى محافظة قنا بصعيد مصر، وتحديدًا "نجع الحجيري" التابع لمركز "قفط". والباحث الشاب آنذاك استقر به المقام في هذه القرية، وعكف على دراسة ظاهرة المس من العفاريت والجن، والمشايخ الذين يقومون بعلاج المرضى والتماس الحل للمشكلات المختلفة من خلال عملهم كوسطاء للأرواح!!

يضم الكتاب قصصًا مثيرة، وشخصيات عجيبة، ومفارقات لا يحكمها المنطق. ومن دراسته لحالة عبد الراضي يتوسع الباحث في دراسة الظاهرة كلها دراسة أنثروبولوجية كانت سابقة لعصرها في ذلك الوقت، تلقي الضوء على البعدين الثقافي والاجتماعي في الصعيد.

لم يزل موضوع المس والأرواح والاعتقاد فيه يشغل عقول الكثيرين في منطقتنا العربية، فما هي جذوره التاريخية والاعتقادية وما هي الأبعاد الأنثروبولوجية، والتفسيرات العلمية والنفس مجتمعية لهذه الحالة؟ لم تزل الناس في نجع الحجيري تتذكر عبد الراضي، ولم يزل هناك غيره كثيرون في قنا وغيرها في منطقتنا العربية. تلقي هذه الدراسة الضوء على هذه الظاهرة ونحن أولى الناس أن نقرأها بالعربية.

قيل عن الكتاب:

"واحد من الكتب التي تأسر القارئ من السطور الأولى فلا يبرح الكتاب حتى يصل إلى الخاتمة، وهو من نوع الكتب التي يعود إليها القارئ بين الحين والآخر، ولا يملها من أول قراءة"

ISBN 978-977-88364-7-9

تصميم الغلاف
أحمد الصَّباغ

RED SEA
البحر الأحمر